الدكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
بكلية الآداب — جامعة القاهرة (سابقاً)

أدب المقالة الصحفية في مصر

الجزء الثالث

ابراهيم المويلحي

صاحب مصباح الشرق

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دار الحمامى للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يذكر القراء أنني قدمت لهم في الجزء الأول من هذا الكتاب حديثاً عن ميلاد الصحافة المصرية ، وعن المدرسة الصحفية الأولى في مصر ، وهي المدرسة التي كان من أشهر تلاميذها رفاعة الطهطاوي ، وعبد الله أبو السعود ومحمد أنسي ، وغيرهم .

كما يذكر القراء أنني قدمت لهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب حديثاً آخر عن شباب للصحافة المصرية ، وعن المدرسة الصحفية الثانية في مصر ، وهي المدرسة التي كان من أشهر تلاميذها أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم .

والذي لا يقبل الشك بحال من الأحوال أن الصحافة المصرية على أيدي هؤلاء الثلاثة بنوع خاص قد وضحت معالمها ، واشتد ساعدها ، وقويت شوكتها وأصبحت سلطة قوية في البلاد لها هيبتها ، ولها قيمتها ، ولها قدرتها على توجيه الشعب والحكومة في وقت معاً ، وكان لهذه الصحافة المصرية حينذاك أهداف سياسية قومية ، وأخرى اجتماعية ، وثالثة خلقية ، ورابعة دينية وهكذا .

والذي لا يقبل الشك أيضاً بحال من الأحوال أن الصحافة المصرية حققت كل هذه الأهداف بنجاح تام ، وبحسبنا أن نضرب المثل هنا بالسيد عبد الله النديم ، فقد أدرك بثاقب فكرة ، أو بموهبته كيف طغى سيل الغرب على الشرق ، وكيف أوشكت الحضارة الأوربية أن تجرف الحضارة الشرقية ،

وكيف عم التفرنج البلاد حتى كاد يمحو التقاليد المصرية والعادات المصرية ويضعف الإيمان بالخلق الإسلامى نفسه إلى الأبد .

إذ ذاك نهض أمثال النديم نهضتهم الصحفية المعروفة فى التاريخ ، فردوا بها المصريين إلى أنفسهم ، وأفاقوهم من غشيتهم ووضعوهم فى المكان اللائق بهم ، وبمجدهم ، وكرامتهم ، ودياناتهم ، وكانوا فى كل أولئك من المجاهدين الصادقين .

معنى ذلك إذن أنه كان فى مصر فى ذلك الوقت طغيان أجنبى ينبغى أن يقاوم ، وأنه كان فيها شعب قوى مستعد لأن يقاوم .

ومعنى ذلك أيضاً أنه إلى أولئك الزعماء فى الصحافة والأدب والسياسة يرجع الفضل كل الفضل فى احتفاظ المصريين بشخصيتهم ، ودفاعهم عن قوميتهم ودياناتهم ، وصونهم لسمعتهم التى كانت على شفا جرف هار ينهار بها فى نار جهنم .

ومعنى ذلك فى نهاية الأمر أننا نحن المصريين المحدثين من أبناء هذا الجيل مدينون فى كل ما ننعم به من عزة وكرامة لهؤلاء القادة من الأدباء والصحفيين والساسة ، وإنه لدين كبير يتألف من أشياء كثيرة لا سبيل إلى حصرها ، ولا قدرة لنا على الوفاء بها .

فنحن مدينون لهم بسلامة لغتنا التى أوشكت على الضياع ، وسلامة ديننا الذى تعرض لكيد الكائدين له من جبابرة الاستعمار ، وسلامة تقاليدنا التى أوشكنا أن نتركها جانباً ، ونؤثر عليها تقاليد الغرب متبعين فى ذلك نظرية ابن خلدون التى يقول فيها : «إن المغلوب مولع دائماً بمحاكاة الغالب» وأخيراً نحن مدينون لهم بسلامة مصريتنا وكرامتنا التى أوشكنا أن نهدرها طائعين أو مكرهين ، ونسلمها سلعة رخيصة للمحتل الغاصب .

ألا — ما أعظم هذا الدين الذى فى أعناقنا لأولئك الأبطال ،

وما أخلق شبابنا فى مصر والشرق أن يذكر لهم كل ذلك ، وأن يحمدهم عليه ويسير سيرتهم فيه .

وهذا إبراهيم المويلحى يقرأ الباحث ما بقى من آثاره فلا يتردد فى النظر إليه على أنه أحد رجال تلك الحلبة ، وبطل من أبطال تلك العصبة أولى القوة ، وتلميذ نابه من تلاميذ تلك المدرسة الثانية من مدارس الصحافة فى مصر ، يدعو بدعوتها ، ويكتب بطريقتها ، ويتبع أنماطها فى التفكير والتحرير .

ثم إن إبراهيم — فضلا عن هذا كله كان كاتب الأمير وذلك منذ اختص به إسماعيل ، واصطفاه لنفسه دون الناس أجمعين ليكون صديقه فى المنفى ، وداعيته فى الصحف .

ومن أجل هذا أصدر إبراهيم عدداً كبيراً من الجرائد فى أوربا ، وكلها على نفقة إسماعيل ، ومن وحيه ، ولخدمته ، ولكننا مع الأسف الشديد لم نظفر بعد بواحدة من تلك الصحف المصرية التى ظهرت فى البلاد الأوربية ، ولعل بعضها يوجد الآن فى بعض نواحى لبنان ، ونحن نأمل أن نحظى بها فى يوم من الأيام . وإذ ذاك فقط نستطيع أن نضيف إلى هذا الجزء من كتابنا فصولا جديدة عن صحافة المويلحى فى أوربا ، وعن أغراض هذه الصحافة .

على أننا على كل حال عرفنا كل شىء عن أسلوب إبراهيم المويلحى فى الكتابة ، وذلك من خلال جريدته التى أصدرها فى مصر ، ونعنى بها جريدة (مصباح الشرق) ثم من خلال مقالاته التى كتبها فى نقد السلطان عبد الحميد وحاشيته ، وهى المقالات التى جمعها فى كتاب له بعنوان (ما هنالك) .

وحين تبين لنا أسلوب هذا الكاتب من خلال مقالاته ، ووقفنا على خصائصه الفنية ومميزاته لم نجد ما يحول بيننا وبين الكتابة عنه على هذا النحو ، ما دمنا لا نطمع دائماً فى الكمال ، ولا نزعم لأنفسنا قدرة على الوصول إلى الكلمة الأخيرة فى موضوع ما .

وقد رتبت هذا الجزء على تمهيد وستة فصول . فأما التمهيد ففيه بيان (لحركة التنوير) التى اقترنت بالاحتلال الفرنسى لمصر ، وهو احتلال لم يدم فيها أكثر من ثلاث سنين ، ولكنه ترك فى الحياة المصرية والعقل المصرى أثراً ليس إلى إنكاره من سبيل . وفى هذا التمهيد بيان كذلك (لحركة المقاومة) التى اقترنت بالاحتلال الإنجليزى بمصر وهو احتلال طال أمده وثقل وقعه، وساء أثره . وأما الفصول التى يتألف منها صلب الكتاب ففيها حديث عن حياة إبراهيم ، وعن جهوده الصحفية فى جريدة مصباح الشرق ، وعن جهوده الأدبية الأخرى فى القصة ونحوها، وعن كتابة (ما هنالك) ، وعن منهجه فى الإصلاح ، وعن أسلوبه الكتابى فى نهاية الأمر .

ولم أجد ما أختم به الكتاب خيراً من أن أعرض على القارىء طائفة من النماذج التى تمده بصورة صادقة لأسلوب هذا الكاتب وطريقة تفكيره .

(وبعد) فهذا تراث أدبى مصرى قريب كان على وشك الزوال ، ولكن الله جلت قدرته وفقنا إلى إنقاذه من الضياع ، حتى لا تكون هناك حلقة مفقودة من حلقات أدبنا المصرى الحديث . فلله الشكر على ما هدى ، وله المنة فيما وفق ، وهو أكرم مسئول عن أن ينفع به نابتة هذا الجيل . إنه سميع مجيب .

ولا أستطيع أن أترك هذه المقدمة دون أن أقدم الشكر خالصاً إلى الشاب المهذب السيد إبراهيم المويلحى حفيد المترجم ، وسميه ، فقد أمدنا حضرته ببعض الوثائق والمواد التى أفادتنا فى هذه الترجمة .

عبد اللطيف حمزة

مصر الجديدة فى ٧ يولية ١٩٥٩

مصر بين الاحتلال الفرنسي والاحتلال الانجليزى

او

بين التنوير والمقـــاومة

فى طريق التنوير :

استيقظ المصريون من غفلتهم على أصوات الحملة الفرنسية ، وغمرتهم حيرة كبيرة عند رؤيتها ، وعجبوا كيف أن فى الأرض جيشاً هو أقوى من جيش المماليك ، وأن فى الأرض علماً غير مايتلقونه فى الأزهر الشريف !

ومضى الفرنسيون يمنعون فى إثارة العجب فى نفس المصريين ففتح هؤلاء النائمون أعينهم على عجائب لم تدر لهم فى بال ، ولا ارتقى إليها خيال ، ولا ظنوا أنهم يعيشون حتى يروا إحداها فى يوم من الأيام .

فمن مطبعة تطبع الصفحات الكثيرة فى ثوان ، إلى صحيفة تنقل للناس مختلف الأخبار ، من أبعد الأقطار ، إلى حياة اجتماعية غريبة يختلط النساء فيها بالرجال إلى معامل علمية ، هى فى نظرهم أدنى إلى السحر والشعوذة ، إلى كثير من أمثال هذه العجائب والغرائب .

ثلاث سنوات قضاها الاحتلال الفرنسى فى مصر (من سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١) وستة وأربعون عالماً من علماء فرنسا رافقوا الجنرال بونابرت إلى مصر — بعض هذا فى الحقيقة كان كافياً لتغيير نظر المصريين إلى الحياة ، وانبعاثهم إلى آفاق جديدة لا عهد لهم بها من قبل .

وما أقوى تلك اللفتة التى لفت إليها الجنرال بونابرت أنظار الصفوة من المصريين فى ذلك الحين ، يوم أن أنشأ لهم ما يسمى « بالديوان » فأتاح به لمصر والمصريين — لأول مرة فى تاريخهم الحديث — فرصة اشتراك الشعب مع ولاته فى الحكم .

وما أروع تلك الأفكار السياسية التى سرت كذلك إلى نفوس المصريين عن طريق الفرنسيين ، كفكرة الحرية ، والإخاء ، والمساواة ، والوطن ، والوطنية ، وحقوق الإنسان ، وغير ذلك من الأفكار التى أتت بها الثورة الفرنسية ؛ وإن كان الإسلام قد نادى بالكثير منها قبل ذلك بأكثر من

ألف سنة ، لولا أن نسيها المسلمون ، أو كادوا ينسونها فى مصر والشرق ، من طول عهدهم بالحكومات المستبدة التى تعاورتهم ، والتى كان بينها وبين حكومة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده فرق ما بين السماء والأرض!

ثم ما كادت مصر تفيق من غفوتها حتى وجدت نفسها تسلم قيادها مختارة لذلك العبقرى ، الذى أخذ بيدها إلى النهوض الحقيق ؛ ونعنى به محمد على ، ومنذ ذلك الوقت ـ أو قبله بقليل ـ كان المصريون قد اهتدوا إلى طريق النور ، فرأوا أمامهم طريقا طويلا له مراحل معاومة، وصُوًى مرسومة، تعرف بها كل مرحلة من هذه المراحل على حدة. كما رأوا عند كل مرحلة منها مشعلا كبيراً من مشاعل النهضة الحديثة ، يهدى السائرين ، ويكشف لهم عما فى طريقهم من زروع ونبت كريم .

ففى أول هذا الطريق كنت ترى (المشعل الفرنسى) تمسك به أيد فرنسية قوية ؛ هى أيدى علماء الحملة التى أتت مع الجنرال بونابرت . ولقد كان هذا المشعل الفرنسى ضخماً رائعاً يبهر أعين الناظرين ، ويلمع لمعاناً قوياً على ضفاف النيل ، ويرسل بأشعته إلى مسافات بعيدة !

وفى ثانية من مراحل هذا الطريق الطويل كنت ترى (مشعل محمد على الكبير) يهدى المصريين إلى منابع الثقافة الأوربية الحديثة، ويسلك فى سبيل ذلك طرقا، منها طريق البعوث العلمية، ومنها طريق الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ومنها طريق المدارس الحديثة . وعند هذا المشعل الكبير كنت ترى الرائد الأول للثقافة الأوربية فى مصر، بل القائد الأعلى لجيش الثقافة بها، ونعنى به رفاعة رافع الطهطاوى وحول هذا الرجل جموع عديدة من جند الثقافة ومحبيها من المصريين، كل يريد أن يقدم لبلاده أثمن ما يستطيع تقديمه من ذخيرة علمية أو أدبية، ويتحفها بأنفس ما تقع عليه عينه من جوهر العلم والأدب.

وفى ثالثة من مراحل هذا الطريق كنت ترى مشعل (السيد جمال الدين الأفغانى) وحوله عدد كبير من مريديه، وقد أيقظ فى أذهانهم معانى الحرية والكرامة الإنسانية ، وغيرهم بالذل الذى ذاقته مصر على أيدى الأمم التى

ملكتها وسيطرت عليها . ومن كلماته المأثورة التي كان يخاطب بها الفلاحين من المصريين في ذلك الحين قوله :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، ويقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »[١]

فيالها من صيحات دوت دوياً هائلا في آذان المصريين ، فحركت سواكنهم وأثارت ثائرهم ، ونمت في قلوبهم البغض الحقيقي لكل محتل أجنبي .

وفي رابعة من مراحل هذا الطريق كنت ترى (مشعل الجامعة الأزهرية) تجاهد ذبالته في هتك أستار الظلام الكثيف . وعند هذا المشعل العتيق كنت تلمح طائفة من علماء الأزهر الشريف . وقد أخذوا ينفضون التراب المتراكم على بعض الكتب العربية القديمة بغية بعثها من جديد حتى تأخذ الثقافة الإسلامية القديمة مكانها إلى جانب الثقافة الأوربية الحديثة .

وفي خامسة من مراحل هذا الطريق كنت ترى (المشعل السوري) وإلى جانبه رجال من سورية أتوا إلى مصر ، واقتحموا فيها ميداناً لم يزل بعد بكراً ، هو ميدان الصحافة .

ثم في نهاية الطريق يلمح الناظر من بعيد علماً مثلث الألوان يهتز في شيء من الزهو أو الفخر ، ويرمز إلى الحد الذي وقف عنده نفوذ الثقافة الفرنسية في مصر .

وهكذا نستطيع نحن أن ننظر إلى هذه الحركة المباركة التي اشترك فيها الفرنسيون من جانب ، والمصريون من جانب آخر ، والسوريون من جانب ثالث ، على أنها « حركة التنوير » . وهي الحركة التي أيقظت العقل المصري من سباته ، وأقالته من عثارة ، وأخلت بينه وبين الهواء والنور ، وجعلته يطوي صحائف النوم والكسل ، ويبدأ صحيفة الجد والعمل .

ومنذ ذلك الوقت أصبحنا أمام عقلية مصرية حديثة ، والواقع أنها عقلية فرنسية المصدر برغم أن فرنسا تركتنا للاحتلال الانجليزي باعترافها لانجلتره

---

(١) مذكرات شفيق (باشا) ص ١٠٩ الجزء الأول الطبعة الأولى .

بكل الحقوق فى مصر . نعم — لقد انتصر نفوذ الثقافة الفرنسية الذى كان قد انتشر فى مصر خلال قرن من الزمان على تسلط أجنبى لم تستطع مصر أن تفلت من قبضته إلى اليوم »[١] .

فى طريق المقاومة

زحفت مصر إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهى تحس لذة هذا المجد الذى أفاضت فيه منذ مشرق ذلك القرن ، وتستشعر عظمة هذه النهضة التى بدأتها منذ عهدها بمحمد على . وإنها لماضية فى سبيلها ، مستيقنة من نجاحها ، وإذا بالاحتلال الإنجليزى — عقب الثورة العرابية — يدهم البلاد ويزعج العباد . وينتظر المصريون أن يجلو الإنجليز عن بلادهم فى بضع سنوات كما جلا الفرنسيون فى مثل هذه المدة . ولكنهم عبثا يحاولون ، إذ بالوحش البريطانى ينشب أظفاره يوماً بعد يوم فى كل مرفق من مرافق الحياة المصرية بحجة الأخذ بيد المصريين نحو الحضارة الأوربية .

ولكن لكل حضارة من الحضارات محاسنها ومساوئها . ولقد مضى على المصريين حين من الدهر كانوا فيه قد استمتعوا بمحاسن الحضارة الأوربية . وكان لابد لهم كذلك من أن تصيبهم هذه الحضارة بمساوئها ، غير أن شعور المصريين بهذه المساوىء لم يشتد فى نفوسهم ، ولم يكبر فى قلوبهم إلا منذ عهدهم بذلك الاحتلال البريطانى ، الذى كان مخالفاً فى ظروفه كل المخالفة للاحتلال الفرنسى .

هنا أفاق المصريون إفاقة أخرى انتبهوا فيها إلى أنهم أخطئوا فى اندفاعهم إلى الأخذ من الحضارة الأوربية ، وإهمال الحضارة الشرقية الإسلامية ، ورأوا أن عليهم أن يحتفظوا بشخصيتهم ، ويعتزوا بقوميتهم وديانتهم ، ويتعاضدوا جميعاً على مقاومة التدخل الأجنبى .

والحقيقة أن هذه الحركة التى سميناها « حركة المقاومة » سارت فى مراحل ثلاث :

---

(١) راجع مذكرات الخديو عباس حلمى الثانى وانظر ما نشر عنها فى جريدة المصرى بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٥١ .

أولاها — المرحلة التى ظهر فيها السيد جمال الدين الأفغانى وتلاميذه ، الذين من أشهرهم السيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده . وفى هذه المرحلة كان يعبر عن المقاومة أحسن تعبير وأقومه « مجلة العروة الوثقى »[1] .

الثانية — المرحلة التى ظهر فيها إبراهيم المويلحى والسيد على يوسف ومصطفى كامل ، وقد بدت المقاومة بقوة هائلة على يد الثانى والأخير من رجال ذلك الرعيل ، وكان يعبر عنها أقوى تعبير جريدتان عظيمتان ، هما جريدتا المؤيد وصاحبها على يوسف ، واللواء وصاحبها مصطفى كامل .

الثالثة — المرحلة التى قام فيها سعد زغلول بالثورة الوطنية المعروفة فى تاريخ مصر الحديث بثورة سنة ١٩١٩ . وهذه الأخيرة لا تعنينا كثيراً فى البحث ، لأن وقت الحديث عنها لم يحن بعد .

اندفع المصريون فى هذه المقاومة عقب الثورة العرابية مباشرة ، ولاذ الأحرار فى أول أمرهم بفرنسا ، وهناك طفقوا يتحدثون إلى العالم الإسلامى كله ، عن طريق جرائدهم التى عكفوا على كتابتها فى مدينة النور ، وإذ ذاك أعانتهم ظروف الاحتلال البريطانى على المضى فى هذه المقاومة ، على النحو الذى يشرحه هذا الجزء من الكتاب والأجزاء التالية له إن شاء الله .

أجل — كان إيمان المصرى بالحضارة الأوربية سائراً فى طريقه إلى النمو والكمال ، وكان سلطان الثقافة الأوربية يزداد فى نفوس المصريين على توالى الأجيال ، وبلغ هذا السلطان أشده فى عهد إسماعيل الذى أثر عنه أنه قال يوماً لوزيره نوبار : « إننى أريد أن أجعل مصر قطعة من أوربا » .

غير أن هذه الموجة العنيفة — ونعنى بها موجة الافتتان بالحضارة الأوربية سرعان ما تلتها موجة أخرى جديدة ، هى موجة البغض الشديد لهذه الحضارة الأوربية ، بل النظر إليها على أنها السبب الحقيقى فيما أصاب مصر من تدهور خلقى ودينى وسياسى واجتماعى .

---

(١) راجع الجزء الثانى من كتابنا (أدب المقالة الصحفية) ص ٨٨ — ١٠١

وهكذا نجد هذه المقاومة التي بدت من الجانب المصري ، بل هذه الكراهية التي غذاها الاحتلال البريطاني ، بل ذلك الشعور بالتبرم الذي نمته السياسة الاستعمارية في الشرق الإسلامي — نجد كل هذا كافياً لظهور طوائف من المصلحين الصادقين يتلو بعضها بعضا منذ ذلك الحين . ومن ثم اتخذت هذه الكراهية للإنجليز أشكالا شتى ، وظهرت في ميادين متعددة ، ومحيطات واسعة . ومنها المحيط الديني ، والمحيط الاجتماعي ، والمحيط السياسي ، والمحيط الأدبي . والواقع أن الحديث عن كل واحد منها حديث عنها جميعها . ومع ذلك فسنقف وقفة قصيرة عند كل محيط منها على حدة .

في المحيط الديني

أتى الأوربيون مصر ، فرأوها في خمول عظيم وكسل مقيم ، وعلموا أن المصريين يعتنقون الدين الإسلامي ، فراحوا يرمون هذا الدين بالجمود ، وذهبوا يحملونه تبعة هذا الجهل الذي غرق فيه المصريون والشرقيون ، ثم لم يكفهم ذلك حتى شرعوا يسخرون من هذا الدين وأهله ، ويندون بالشرق وجهله ، وجاهر كثيرون منهم بهذه السخرية في صحفهم وكتبهم وأحاديثهم الخاصة والعامة .

ثم حلت بمصر كارثة الاحتلال البريطاني ، واصطدم المصريون بالإنجليز في ظروف شتى ، منها ظروف دنشواي ؛ وهو الظرف الذي كشف النقاب عن سياسة الاستعمار ، وجاء دليلا على أن الحكم الإنجليزي في مصر أضرّ بها في كل شيء ، وذلك إذا استثنينا جهود الإنجليز في إصلاح الري .

إذ ذاك طفق الكتاب الأحرار في مصر ينتقدون الحكم الإنجليزي بشدة ، ويكشفون عن نيّات الإنجليز بصراحة وحدة ، وبذلك أحرجوا صدر الحكومة البريطانية ، وصوروها أمام العالم الأوروبي بصورة المستعمر الغاشم والحاكم المستبد .

ويومئذ لم يجد الإنجليز بدأ من رمي المصريين بتهمة التعصب الديني الذي

يخشى منه على حياة الأجانب فى مصر ، ويالها من تهمة شنعاء ، وفرية باطلة ، وسياسة خرقاء ، تلك التى سلكها الإنجليز فى مصر ، ومن أجلها نجم فى الميدان طائفة من الكتاب المصريين الأحرار ، يدافعون عنها وعن الإسلام وعن الشرق ، وكان من أشهرهم : على يوسف ، ومصطفى كامل ، ولطفى السيد .

ولقد كان من الأفكار التى اهتدى إليها المصريون بل المسلمون جميعاً فى ذلك الحين ، فكرة الدعوة إلى (مؤتمر إسلامى) ، وهى من الأفكار التى دعا إليها عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه (أم القرى) ثم وجدت صدى لها ، وميلا إليها عند السادة البكرية المعروفين بالديار المصرية . وكان أحدهم بالفعل وكيلا لهذا المؤتمر .

وهنا يجب أن نلفت الأذهان إلى أن الزعامة فى مصر إلى ذلك الوقت كانت باقية فى أيدى رجال الدين ، من علماء الأزهر ، أو من مشايخ الطرق الصوفية ، والزعامة المصرية كالكتابة المصرية ، كانت فى أول أمرها فى أيدى الأزهريين من علماء الدين ثم أصبحت فى أيدى المدنيين من الحقوقيين والأدباء والصحفيين .

ونشرت الأهرام حديثاً لهذا الشيخ البكرى الذى أشرنا إليه ذهب فيه الشيخ إلى أن هذا المؤتمر دينى واجتماعى ، ولكن لا صلة له بالسياسة ، وأن أعضاءه سيدعون للبحث فى أدوار الأمم الإسلامية ، التى سقطت بعد عز ، وخضعت بعدة قوة ، وأصبحت تشعر شعوراً حقيقياً بحاجتها إلى الإصلاح والترقى (١) .

وعلقت (المؤيد) على هذا الحديث فقالت ما معناه .

« ... وأما الجامعة الإسلامية فقسمان : دينية وسياسية . والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسة غير موجودة ، ولم توجد ، ولن توجد ، لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية ؛ وهى المصلحة

---

(١) راجع جريدة المؤيد عدد ٥٣٢٥

وذلك أن المسلمين إذا وجدوا جامعة سياسية إسلامية أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا ، فتكون المضرة عليهم بسبب ذلك .

معنى ذلك أن الشيخ على يوسف كان يرى ألا عودة إلى الحروب الصليبية ، وإن هذه الحروب اختفت إلى الأبد ، ومعنى ذلك أيضاً أن فكرة الجامعة الإسلامية اقترنت بفكرة المؤتمر الإسلامى . وكان لهذا الاقتران محل واضح فى أذهان المسلمين فى أول الأمر ، ولكنهم حين أخذوا يقلبون الرأى فى الفكرتين معاً وجدوا أولاهما مستحيلة أو كالمستحيلة ، ووجدوا الثانية ممكنة ومقبولة، وتخوف الرأى الأوربى العام أولا من هذه الفكرة ، ولكن سرعان ما تبين له أن المسلمين لا يعنون بها غير الإصلاح الاجتماعى والإصلاح الدينى . أما الاتحاد السياسى بين الشعوب الإسلامية يومئذ فشىء كان بعيداً عن أذهانهم ، وإن حنت إليه نفوسهم ، وتعلقت به آمالهم .

وفى جريدة المؤيد مقال بعنوان :

« رأى غربى فى الجامعة الإسلامية » كتبه « مسيو لشاتليه » مدير مجلة العالم الإسلامى جاء فيه (١) .

« الحق أن الجامعة الإسلامية ليست ذات وجود حقيقى عند المسلمين ، وإن هذا اللفظ لا ينطبق على المعنى الذى يدل عليه ، وما الجامعة الإسلامية فى الواقع إلا حجة يتوكأ عليها من أخفقوا فى سياستهم من الأوربيين ، أو واسطة لاستدرار الأموال السرية التى تنفقها الخلافة العثمانية ، أو صورة منقولة يدلون بها على حدوث الفتن الأهلية بين المسلمين ، فى حين أن فكرة الجامعة الإسلامية لا تجد لها معنى حقيقياً بين أهل الإسلام وأنى لهم اليوم أن تنضم كلمتهم وهم لم يستطيعوا ذلك منذ ألف سنة ؟ ذلك أن الإسلام قد أنهكت قواه طريقة الحكومات السابقة فى الحكم ، فراح يدخل فى ثورة كثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ ، وإذا كان الاسلام لم يوفق حتى الآن إلى

---

(١) راجع المؤيد عدد ١٥٠٨ سنة ١٩٠٧ .

إيجاد الحرية العقلية بين أهله ـ وبدونها لا يتأتى له أن يتمتع بحرية اجتماعية — فإنه يستعد لها ، ويهيء الأسباب والدوافع » إلى أن قال :

« فالجامعة الإسلامية ملفقة من حيث السياسة مسكوت عنها من حيث المجتمع، والموجود منها رد فعل طبيعي وضروري فى ذلك الوسط الاجتماعى الإسلامى الذى يعوزه الهواء، حتى لا يقضى عليه القاضون، والإسلام يدافع عن نفسه ضد ذلك ، ويستخدم الأسلحة الطبيعية لتنظيم شئون أهله ، وإذن ليس ثمه جامعة إسلامية فى الحقيقة، بل هناك ثورة تريد الإصلاح والتجديد» .

ولقد كان من الوسائل التى تذرع بها المسلمون فى المرحلة الأولى من مراحل المقاومة — وهى المرحلة التى تعبر عنها مجلة « العروة الوثقى» أصدق تعبير وأحسنه — أنهم عمدوا إلى تطهير معتقداتهم الدينية مما علق بها من البدع والخرافات وما إليها من الأمور التى أوشكت أن تصيب الدين نفسه فى قواعده ، ودعوا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ، بحجة أنه (لا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله) .

ثم كان من الوسائل التى تذرع بها المسلمون فى المرحلة الثانية من مراحل المقاومة — وهى المرحلة التى كانت « المؤيد » و « اللواء » تعبران عنها أصدق تعبير وأحسنه — أنهم حصروا جهودهم فى الدفاع عن الدين ضد أعدائه الذين رموه بشتى التهم ، وأضافوا إليه كثيراً من النقائص عدواً بغير علم . ومن الحق أن يقال أن الشيخ محمد عبده اضطر فى أواخر حياته إلى النزول فى هذه المعركة ، حيث التقى بالوزير الفرنسى هانوتو ، ولكن هانوتو كان خصما شريفاً ومعقولا ، وكان يحتكم إلى العقل والمنطق فى مجادلاته ومقالاته. وكذلك فعل الإمام الشيخ محمد عبده ، أما الإنجليز — وهم خصوم الإسلام فى هذه المرحلة من مراحل المقاومة — فكانوا يقذفون الإسلام بهذه التهم لغايات سياسية ، أو أقل لأغراض استعمارية يريدون تحقيقها ، ولا تعنيهم الوسائل المؤدية لها .

وهكذا لم يصبح هم الكتاب الأحرار فى هذه المرحلة الأخيرة مقصوراً على إصلاح الفاسد من الأفكار والعقائد ، كما كان الحال على ذلك فى المرحلة التى سبقتها وإنما أصبح هم أولئك الكتاب الأحرار مقصوراً على تنظيم الدعاية Propaganda للاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها قصد صيانته من هجوم المهاجمين ، وسخرية الساخرين، وسوء نية المستعمرين من الأوربيين ، وكان من أشهر هؤلاء الكتاب الأحرار رجلان هما: إبراهيم المويلحى وعلى يوسف .

أما أولهما : وهو المويلحى - فسنرى أنه كان أديباً بطبعه قبل كل شيء ، فاتخذ من الإصلاح الدينى أو الدعاية الدينية موضوعا أدبيا خالصا . فهو حينا يكتب فى السخرية من العادات الأوربية التى تفشت فى البلاد الإسلامية الشرقية ، وحينا يعرض على قرائه جوانب من الحضارة الأوربية على سبيل الموازنة بينها وبين الحضارة الشرقية ، وحينا ثالثاً يتهكم على رجال الدين من المسلمين المصريين ، ويرميهم بالتقصير فى العمل على نشر دينهم فى الآفاق ، كما يفعل المبشرون المسيحيون الذين يتحملون شظف العيش فى جهات نائية لا تلائم صحتهم ، فضلا عن أخلاقهم وطبيعتهم الخ .

وأما ثانيهما : وهو السيد على يوسف - فقد كان رجلا صحفياً وسياسياً بطبعه ، فاتخذ من الإصلاح الدينى أو الدعاية الدينية موضوعا سياسيا خالصا وألبس آراءه الدينية ثوب الدفاع عن كيان مصر السياسى ضد الأوربيين عامة ، والإنجليز بنوع خاص . ونظر هذا الكاتب الأخير إلى موضوع الدفاع عن الدين من زاوية السياسة ، فعالج الأمر معالجة سياسية ، لا دينية ، ولا أدبية على النحو الذى ستراه فى الجزء الرابع من أجزاء كتابنا هذا إن شاء الله .

فى المحيط الاجتماعى :

كان قادة الرأى فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من المجددين من تلاميذ السيد جلال جمال الدين الأفغانى .

وعلى رأسهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والحاطبين فى حبله من المصريين المثقفين بثقافة أوربية .

وفى المعسكر الآخر من الحياة المصرية جماعة المحافظين ممثلين فى رجال الأزهر والمتصلين بهم من أنصار الرأى السنى المحافظ، ومع ذلك فقد اشترك الفريقان فى الدعوة إلى المحافظة على التقاليد .

ولاشك أن المحافظة ألزم للشعوب فى أوقات المحن والكوارث ، وأى محنة كانت أشد على مصر من محنة الاحتلال البريطانى ؟ لقد كان على المصريين أن يتماسكوا فى أثناء ذلك كل التماسك ؛ فإن أى قدر من التهاون فى مثل هذه الظروف كان غير مأمون العواقب .

مهما يكن من شىء فعلى كواهل المجددين المعتدلين وقع عبء الإصلاح الاجتماعى . وكان أكثرهم نهوضاً بهذا العبء تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . ومنهم إبراهيم المويلحى، وعلى يوسف ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، والشيخ عبد القادر المغربى ، وغيرهم .

وهكذا أصبحنا أمام طائفة من تلاميذ الإمام يحاربون الأدواء الجديدة التى ظهرت فى المجتمع. وكان بعضها نتيجة لانتشار الحضارة الأوربية الحديثة . وبعضها نتيجة لإهمال المصريين أنفسهم فى هذه الحياة الجديدة .

ومن هذه الأدواء ـ على سبيل المثال ـ ما فشا فى مصر يومئذ من عادة المضاربة المالية ، وعادة الرشوة والمحسوبية . ومنها كذلك ما اندفع إليه المصريون كذلك من اختلاط الرجال بالنساء ، وما استتبع ذلك من تطور ظاهر فى الأخلاق والعادات .

أنكر الرأى العام فى مصر كل هذه الأشياء ، كما أنكر اندفاع المصريين إلى تقليد الأوربيين فى كل مظهر من مظاهر الحياة العامة والخاصة .

فتلك بيوت الصفوة من المصريين أوشكت أن تكون أوربية لا شرقية ، وهذه ألسنتهم قد أصبحوا يلوونها ليّاً متصلا بلغة أعجمية لا عربية . وتلك عاداتهم قد أصبحت ولا صلة لها بالعادات الإسلامية .

كل هذه أمور تنكر لها الرأى العام فى مصر إلى أوائل القرن العشرين، ثم تلت ذلك موجة ثالثة هى موجة الرجوع إلى الأخذ عن الأوربيين ؛ وهى الموجة التى تغشى حياتنا الاجتماعية فى وقتنا هذا .

ولقد كان لجريدة « مصباح الشرق » التى يحررها إبراهيم المويلحى جولات موفقة فى هذه السبيل ، كما كان لجريدة « المؤيد » التى يحررها السيد على يوسف طرق خاصة بها فى محاربة العادات الضارة ؛ ومنها عادة المقامرة ، وانظر إلى هذه الجريدة الأخيرة كيف تنظم الحملات الشديدة على هذه العادة الذميمة، من ذلك أنها نشرت فى بعض شهور سنة ١٩٠٧ خطاباً هذا نصه :

عطوفتلو ناظر الداخلية :

أنا الموقع اسمى أدناه أضم صوتى إلى سائر المسترحمين ، وإلى نداء المؤيد، وألتمس من سعادتكم إنقاذ الناشئة الوطنية والأمة بأسرها من محلات المقامرة على اختلافها .

الإمضاء

الإسم والشهرة

العنوان

ودعت المؤيد كل غيور على الأخلاق فى مصر إلى نزع هذه الأسطر من الصحيفة ، وإمضائها، وإرسالها إما إلى المؤيد ، وإما إلى ناظر الداخلية رأساً ، واستجاب الجمهور المصرى إلى هذه الدعوة حتى أسمع الحكومة صوته ، فأخذت الحكومة من جانبها تحارب هذه الدور .

وأما الرشوة فقد فشت كذلك فى موظفى الحكومة، حتى اضطر اللورد كرومر إلى ذكرها مراراً فى تقاريره.ومن ذلك ماجاء فى تقريره عام ١٩٠٦ « أما بخصوص الرشوة فإننى أعرف عدة حوادث اشتكى منها أشخاص ، هم غالباً من ذوى الحيثيات ، وذلك بما فرضه عليهم إنجازاً لأعمالهم الموظفون

الصغار فى نظارة الأشغال العمومية وغيرها من المصالح الحكومية » .

وردت المؤيد على اللورد. ولكنه مضى فى اتهام المصريين بهذه الجريمة، وذهب إلى أن إنشاء وزارة مسئولة أمام مجلس نيابى يمثل أغلبية الأمة، مطلب من مطالب الوطنيين فى مصر . ولكن يحول دون تحقيقه ما شاع بينهم من الرشوة، ومن الميل إلى الدسائس ونحو ذلك من الأمور التى تعطل الحكومة الدستورية ، وتجعل مهمة الوزارة المسئولة من أشق الأمور ! !

وما دام هذا الداء الاجتماعى قد أصبح فى نظر الإنجليز مسألة سياسية، فهنا وجب على الكتاب الأحرار من أمثال المويلحى وعلى يوسف أن يعنوا بالأمر ، وأن يكتبوا فى الرد على اللورد ، وفى ردع المصريين ممن يلجئون إلى هذه العادة القبيحة التى يأخذهم بها فى تقريره، ويتخذ منها ذريعة لحرمان المصريين جميعاً من التمتع بالحكم الذاتى .

ولقد كان لذلك كله صدى فى الأدب المصرى - كما سيأتى الحديث عن ذلك - فنى شعر حافظ إبراهيم تسمع شكوى هذا الشاعر الاجتماعى الكبير من تكاسل المصريين ، وانغماس شبيبتهم فى اللهو والمجون، ومن ذلك قوله :

أفى الأزبكية مثوى البنين ... وبين المساجد مثوى الأب ؟
وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها أبو الطيب
أمانة العصر إن الغريب ... مجد بمصر فلا تلعبى

وهكذا كان شعراء مصر فى ذلك الوقت يتحدثون فى أشعارهم عن التدهور الخلقى على أنه حقيقة واقعة ، ويوازنون بين كسل المصرى وجد الأجنبى ، على أنه من الأمور التى لابد من علاجها ، والتفكير فى إيجاد حل ملائم لها .

فى المحيط السياسى :

طال أمد الاحتلال البريطانى فى مصر ، ونسيت الحكومة الإنجليزية

أو تناست وعود الشرف التى قطعتها مراراً على نفسها بالجلاء الناجز عن هذا القطر ، ولم يبق إلا أن يجاهر المصريون بعدائهم للمحتل ، وأن تتخذ المقاومة فى المرحلة الثانية شكل حركة وطنية يشترك فيها الجميع ، ويومئذ انقسم المصريون إلى متطرفين ومعتدلين ، ولكنهم لم يختلفوا تقريباً فى الغاية التى يهدفون إليها ، وهى إجلاء الإنجليز ، والظفر بالدستور . ومن ثم نشأت الأحزاب السياسية ، وإن كان ظهورها بشكل رسمى قد جاء متأخراً بعض الشيء . وكان من أهم هذه الأحزاب اثنان هما : الحزب الوطنى وهو حزب المتطرفين بزعامة مصطفى كامل ، وحزب الإصلاح على المبادىء الدستوريه ، وهو حزب المعتدلين بزعامة على يوسف (١)

ولم يكن إبراهيم المويلحى منتمياً إلى حزب من هذه الأحزاب التى بدىء فى تكوينها بعد وفاته . وإن كان فى الحقيقة — كما يلوح للباحث — من المصلحين المتعدلين . أو قل أنه كان يعتبر تلميذاً للشيخ محمدعبده ، يرى رأيه فى الإصلاح ، ويأخذمثله بنظرية الاعتدال،ويرى فيه المحقق للغرض .

والمهم أنه بعد أن كنا فى المرحلة الأولى من مراحل المقاومة — وهى المرحلة التى ظهر فيها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، أمام حركة تهدف إلى تحرير الشعوب الشرقية ، أو حركة يمكن بشىء من التساهل أن نطلق عليها اسم « الجامعة الإسلامية » أصبحنا فى المرحلة الثانية من مراحل المقاومة — وهى المرحلة التى ظهر فيها على يوسف ومصطفى كامل أمام حركة ضيقة ولكنها متعمقة ، تهدف أولا إلى استقلال وادى النيل ، وتتخذ لها عبرة من الشعوب الأجنبية التى ناضلت عن استقلالها ، وظفرت بدستورها .

أما إبراهيم المويلحى فكان كصاحبيه يدعو إلى استقلال الوطن من جهة ويحتفظ بشىء قليل من الهوى والميل إلى الجامعة الإسلامية من جهة ثانية .

ومع أن التاريخ يؤيدنا فى فهم الحركة الوطنية فى ذاتها على هذا النحو

---

(١) سبق هذين الحزبين إلى الظهور (حزب الأمة) الذى هو أول الأحزاب المصرية .

فإننا نجد اللورد كرومر يقول فى بعض تقاريره[1] :

« .. وإذا كان غير صحيح مطلقا أن يقال أن الحركة الوطنية المصرية هى بأجمعها حركة جامعة إسلامية ، فمن المحقق بها أن صفة هذه الحركة وتلك حقيقة اعتبرتها من زمن طويل ، ويراها اليوم ولو أخيراً عدد من الأوربيين المقيمين فى مصر إذا رجعوا إلى ما تنشره الصحافه المحلية عن ذلك . وأنه لمن السهل — إذا قضت الضرورة — أن نقدم أدلة عديدة تؤيد هذه الحقيقة ، ومهما يكن الحال فمن الواضح أن الجامعة الإسلامية هى عامل مهم فى الحياة المصرية يجب الاعتداد به ولو إلى حد محدود . لهذا كان من الضرورى أن ندرك معنى هذه الكلمة إذ يطلقون الجامعة الإسلامية للدلالة على اتحاد مسلمى الدنيا بأجمعها ، تعجيز الدول المسيحية ومقاومة لها. ولو نظر إليها بهذا الشكل لوجب بالتحقيق مراقبة الحكومة بواسطة الأمم الأوربية ذوات المصالح السياسية فى الشرق ، لأن هذه الحركة يمكن أن تؤدى إلى انفجار حوادث تعصب فى أقطار متعددة ، ولقد وجدنا أنفسنا على قيد خطوتين من هذا الانفجار فى الربيع الماضى بمصر .. »

هكذا كان فهم الإنجليز — إلى نهاية عهد كرومر — للحركة الوطنية المصرية ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الرأى ، وأيدنا فيه رأى جريدة المؤيد التى قالت إن الجامعة الإسلامية لها وجود فعلى من حيث الدين ، ولكن لا وجود لها مطلقا من حيث السياسة. وسنرى فى بعض فصول هذا الكتاب عناية المويلحي بفكرة الجامعة الإسلامية بهذا المعنى.

وإذا كنا لم ننس فى هذا التمهيد أن نوازن بين ماصنعه الاحتلال الفرنسى لمصر ، وماصنعه الاحتلال البريطانى لها ، فينبغى أن نذكر هنا أن الاحتلال الأول -على يد الجنرال بونابرت- أبدى رغبة شديدة فى مساعدة

(١) راجع تقرير كرومر عنه سنة ١٩٠٦ . والترجمة له وتلخيصا بجريدة المؤيد بتاريخ ٤ أبريل ١٩٠٧ .

المصريين فى أن يشتركوا فى حكم أنفسهم بأنفسهم ، على حين أن الاحتلال الثانى بدأ مقاوماً لمثل هـذه الرغبة، فقد كان اللورد كرومر — لسوء حظه وحظ مصر معه — رجلا استعمارياً بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، فكان لا يستمع — مثلا — إلى رأى بعض الساسة المعتدلين من الإنجليز فى مثل قوله : « عندما ندرك أن مبدأ (مصر للمصريين) ليس دسيسة شيطانية موجهة إلى الإنكليز ، بل هو فى الحقيقة نتيجة لا بد منها للمبدأ العام الذى أحببناه فيهم بتقاليدنا — إذ ذاك نعلم ماهية العمل الشريف المفروض علينا إتمامه فى مصر . فقد كان من حسن حظنا أننا بدأنا به . ويكون من حسن حظنا كذلك أن نوصله إلى دوره النهائى ـ دور الكمال، إننا إذا سعينا وراء إنصاف مصر — مهما كلفنا ذلك من العناء — فإن عملنا هـذا يقيد المصريين برابطة ولاء لنا لا تقدر أشد الحوادث على حل عراه »[1].

فى المحيط الأدبى :

ليس شك فى أن الأدب كان ظلا لجميع هذه الأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية . وجاء هذا الأدب بشعره ونثره وصحافته وخطابته معبراً أصدق تعبير عن جميع الأفكار السائدة فى مصر فى تلك الفترة .

فأما من حيث الدين فقد دافع هـذا الأدب المصرى دفاعاً حسناً عن الإسلام ؛ وهو الدين الذى أبدى بونابرت عظيم احترامه له ، سواء أكان صادقاً فى احترامه أم غير صادق . على حين أن كرومر نزعت به منازع السياسة الإنجليزية الصلبة إلى أن ينهش أعراض المسلمين ، ويسدد طعناته النجلاء إلى قلب هذا الدين . فتعرض بذلك لسخط المصريين وازدراء الأوربيين فى وقت معاً ، وتصدى للرد على كرومر جماعة من الكتاب من أهمهم صاحب المؤيد ، ثم الكاتب الذى سيستأثر لهذا البحث ؛ وهو إبراهيم

(١) راجع المؤيد — العدد ٥١٧٩ — بتاريخ ٢١ يوليو ١٩٠٧ حيث ترى مقالا مترجماً عن ى . إميجو استشهد فيه بكلام المستر فريزر بلاير، ومنه العبارة المتقدمة .

المويلحى . وفى فرنسا تصدى للرد على كرومر كثير من الصحف التى سبق لها أن عرفت الشىء الكثير عن الإسلام والمسلمين ، وسبق لها أن درست كل ذلك منذ اللحظة التى وطىء فيها بونابرت أرض الفراعنة . وأكثر من هذا وذاك أن وجدنا بعض الصحف الفرنسية تدافع عن الإسلام وعن حضارة الإسلام ، وتضرب المثل بحضارة بغداد ، ثم حضارة قرطبة ، ثم حضارة مصر ، كما ضربت المثل بتلك الثقافة الإسلامية التى أطلقت الفكر من عقاله فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى بحار من الأوهام والجهالة (١) .

وأما من حيث اللغة العربية فقد اشترك فى الدفاع عنها فى المرحلة الثانية من مراحل المقاومة كل من على يوسف والمويلحى ، وغيرهم من كتاب جريدتى المؤيد ومصباح الشرق ووقف الشعراء صفوفاً إلى جانب الكتاب يدافعون عن هذه اللغة ، وطالب الجميع الحكومة المصرية بأن تجعل العربية لغة التعليم الرسمية فى جميع المدارس على اختلافها . وإن ينس مؤرخ الأدب فلن ينسى تلك القصيدة الرائعة التى نظمها حافظ إبراهيم دفاعا عن اللغة العربية . وهى قصيدة يحفظها أكثر المتعلمين فى مصر إلى وقتنا هذا ومنها قوله :

رجعت لنفسى واتهمت حصاتى	وناديت قومى واحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى	عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى	رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات ؟ (٢)

وأما من حيث السياسة فبصرف النظر عن الصحافة نجد الشعر المصرى يخوض هذا الميدان . وكان من أسبق الشعراء اشتراكا فى السياسة رجلان هما : إسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم . ثم انضم إليهما أحمد شوقى بعد ذلك

---

(١) راجع ترجمة لمقال بهذا المعنى فى جريدة المؤيد — العدد ٥١٣٩ — ١٩٠٧/٤/١٣

(٢) ديوان حافظ إبراهيم — ص ٢٥٣ .

وقد نظم هؤلاء كثيراً فى نقد اللورد كرومر ، وحادثة دنشواى ، ونقد الوزراء المصريين والتعريض بهم ، ونقد السياسة الخارجية ونحو ذلك .

أما إبراهيم المويلحى — بنوع خاص — فقد عمد إلى محاربة الاحتلال الإنجليزى بطريقة أدبية لا سياسية أو صحفية ، وشرع يكتب قصته (موسى ابن عصام) التى أبدى فيها عداوته للاحتلال ، ثم حيل بينه وبين إتمام هذه القصة على النحو الذى سنشرحه للقراء فى كتابنا هذا إن شاء الله .

وأما من حيث المجتمع فقد رأينا كيف تصدت الصحف المصرية لحماية الأخلاق ، وحماية المجتمع نفسه من بعض العادات الضارة ؛ كعادة المقامرة وعادة المضاربة . وعادة الشراب والتهالك على الملاذ ونحو ذلك . كما اشترك الشعر المصرى فى هذا الميدان . وسمعنا شاعراً مصرياً كحافظ إبراهيم يخاطب (الأزبكية) فى شعر له فيقول :

كم وارث غض الشباب رميته بغرام راقصة وحب هلوك

ألبسته الثوبين فى حاليهما تيـــه الغنى وذلة المفلوك[1]

على أن مؤرخ الأدب المصرى الحديث لا يستطيع أن يهمل فى بحث له طويل أو قصير ذكر «الصالونات الأدبية» أو تلك الأندية الأرستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة المصريين من كتاب ، وشعراء ، وخطباء ، وسياسيين، ومحامين، ومعلمين، وصحفيين، ومهندسين . حيناً يجمعهم (صالون الأميرة نازلى فاضل) وحيناً يجمعهم (صالون إسماعيل صبرى) ، وحيناً يجتمعون فى (منزل على باشا مبارك) . وحيناً يجتمعون فى (منزل سعد باشا زغلول) ، وحيناً فى (منزل لطيف باشا سليم) وهكذا .

على أن صالون الأميرة نازلى فاضل كان أهمها جميعا ، وكان أشدها

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم — نشر أحمد الزين — ص ٣٠٤

تأثيراً فى الحركة الأدبية والحركة السياسية . فمن حيث الأولى كان منتدى هذه الأميرة منزل الوحى بالقياس إلى أكثر الشعراء والكتاب الذين اختلفوا إليه فى ذلك الوقت ، ومن حيث الثانيه كان هذا النادى مولد الحزب الوطنى الذى كان يضم إليه صفوة القوم فى مصر ، ومعهم رؤساء الوزارات المصرية ؛ كشريف ورياض وغيرهما ، وأعيان البلاد كسلطان (باشا) ولطيف سليم (باشا) ، وشاهين (باشا) . وعمر لطفى (باشا) وراغب (باشا) وغيرهم ممن تألفت منهم هذه الجماعة التى عرفت بالحزب الوطنى .

ولا يستطيع مؤرخ الأدب أن ينسى كذلك (دار المؤيد) وغيرها من دور الصحف الهامة فى مصر فى ذلك الوقت ؛ كالأهرام ومصباح الشرق . وفيها أى فى هذه الدور كان يجتمع برئيس التحرير خليط عجيب من المستنيرين. وإذ ذاك يتطرق الحديث بينهم إلى مسائل شتى فى الأدب والاجتماع والسياسة والتعليم والاقتصاد والأخلاق ونحو ذلك وناهيك بعظم الأثر الذى تتركه هذه الأحاديث فى نفوس سامعيها مما لا يدع مجالا للشك كذلك فى فائدتها لجميع هذه المرافق التى أشرنا إليها .

وإلى جانب (الصالونات) الأدبية الأرستقراطية كانت ثم (صالونات) ديمقراطية . ونعنى بهذه الأخيرة ما كان يجتمع هنا وهناك من جماعات الناس الذين يتحلقون كل ليلة على أبواب الحوانيت العامة . فهذه حلقة أدبية بحانوت بزاز ، وهذه حلقة أخرى بحانوت كواء أو عطار أو نساج وهكذا . وفى تلك الحلقات كنت ترى الشيخ الأزهرى إلى جانب الفتى العصرى إلى جانب الشاعر أو الكاتب المغمور ، إلى جانب الأديب المشهور ، أو العالم الكبير . وجميعهم يتحدثون فى شتى الأمور السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية حديثاً طلقاً من القيود ، محبباً إلى النفوس ، باعثاً على اللذة المعنوية والفنية .

الحق أن القرن الماضى فى مصر قد أتاح لأبنائه من سعة الوقت ما يسمح

لهم باقتناص هذه اللذائذ التى تتحدث عنها ؛ وهى اللذائذ التى حرمت منها الجماعات فى عصرنا هذا ـ عصر الازدحام ، وعصر الآلة ، وعصر السرعة .

كتاب عهد الاحتلال :

والخلاصة التى نريد أن نخرج بها من هذا التمهيد هى أن يقظة المصريين فى القرن الماضى اتخذت لها طريقين هما : طريق التنوير ، وطريق المقاومة بعد التنوير . . أما أولها فبدأ بالاحتلال الفرنسى لمصر ، وأما الثانى فبدأ بالاحتلال البريطانى لها .

وهذا الكتاب يدور حول البحث فى شخصية من شخصيات الدور الثانى ؛ ونعنى به دور المقاومة ، بل فى المرحلة الثانية من مراحل هذا الدور الأخير وهى المرحلة التى قوى فيها سلطان الإنجليز ، وحكموا فيها البلاد المصرية حكماً يوشك أن يكون مطلقاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

والحق أنه وسط هذه الظروف التى شرحنا جانباً منها ، وضجيج الحوادث التى أشرنا إشارة عابرة إلى المهم منها نشأت طائفة حديثة من الكتاب وقادة الرأى فى البلاد ، واتخذوا الصحف مجالا لأقلامهم ، وميداناً لعرض أفكارهم وكان لهذه الأحداث كلها صدى فى نفوسهم ، ووقع عظيم فى أذهانهم ، وكان من نتيجة هذا التأثير ما خلفه لنا أولئك القادة والكتاب من ثروة أدبية وصحفية طبعت بطابع السخط على الاحتلال البريطانى ، وطابع الثورة على أوربا وما يرد منها . وقد علمت من جميع هذه الأحاديث أنه كان من أشهر أولئك الكتاب ثلاثة يصح أن تطلق عليهم اسم (كتاب عهد الاحتلال) وهم :

إبراهيم المويلحى ، والسيد على يوسف ، ومصطفى كامل .

ما أول الثلاثة فهو عدو الحضارة الأروبية فى أى شكل من أشكالها .

وأما الثانى فهو نصير الخديو عباس الثانى وعدو اللورد كرومر بوصفه جبار الاحتلال البريطانى .

وأما الثالث فهو مشعل الحركة الوطنية وزعيمها ، وهو داعية مصر فى أرجاء العالم المتمدن والمدافع عن حقوقها .

والأول وهو المويلحى أدناهم جميعاً إلى الأدب ، وأقربهم جميعاً إلى محيطه ، وأكثرهم جميعاً تهيؤا له ، وقد جاء أسلوبه فى الكتابة أدبياً أكثر منه صحفياً .

والثانى : وهو على يوسف أدناهم جميعاً إلى الصحافة ، وأقربهم جميعاً إلى محيطها ، وقد جاء أسلوبه صحفياً أكثر منه أدبياً بهذا المعنى .

وأما الثالث : وهو مصطفى كامل — فهو خطيب مصر السياسى ، وزعيمها الوطنى ، وداعيتها القوى ، وقد أثر كل ذلك فى أسلوبه تأثيراً واضحاً ، فجاء أسلوبه حماسياً لا أكثر ولا أقل .

هؤلاء إذن هم كتاب عهد الاحتلال فى مصر ، وقد خصصنا كلا منهم فى كتابنا (أدب المقالة الصحفية) بجزء . وها نحن أولاء نقدم للقراء الجزء الخاص بالمويلحى ، راجين أن نقدم لهم فى نفس الوقت جزءاً خاصاً بعلى يوسف ، وآخر خاصاً بمصطفى كامل ، والله الموفق .

ابراهيم المويلحي

١٨٤٤ — ١٩٠٦



الفصل الأول

حياة إبراهيم المويلحى

لئن افتخر الجيل الذى نحن من أبنائه بالكثيرين ممن تخرجوا فى المدارس والجامعات ، لقد كان من حق الأجيال التى سبقتنا فى القرن الماضى أن تفخر بالكثيرين من أصحاب المواهب الخاصة ، ممن لم يتخرجوا فى جامعة ولا مدرسة . ولئن افتخر الجيل الحاضر بهذه المؤسسات الكثيرة كالمعاهد والجامعات ، لقد كان من حق الأجيال السابقة فى القرن الماضى أن تفخر « بالمجالس الأدبية» سواء ما كان منها أرستقراطيا كمجلس الأميرة «نازلى»[1] ومجلس البارودى ، ومجلس إسماعيل صبرى ، وما كان منها شعبيا ديمقراطيا كهذه الجماعات التى كانت تتحلق دائماً حول التجار على اختلافهم من بزاز وكواء وعطار ونحو ذلك .

وكما كانت المجالس الأدبية ، الأرستقراطية ، تجذب إليها من شيوخ الأدب بعض سراة القوم وبعض الشباب المثقف ، فقد كانت الحلقات الأدبية الشعبية تجذب إليها أخلاطاً من شيوخ الأزهريين ، وبعض المتعطشين من الشباب إلى الظهور فى عالم الأدب ، أو النبوغ فى ميدان الشعر والخطابة والكتابة . وكان هؤلاء وهؤلاء يجدون فى هذه المجالس الصغيرة من اللذة والمتعة ما يصرفهم ، ويصرف التجار معهم حتى عن العمل الذى يكسبون منه العيش ! ! . ألم نقل عن « عبد الله النديم » أنه كان يغشى هذه المجالس الأدبية

---

(١) الأميرة نازلى هى كريمة مصطفى فاضل (باشا) أخى الخديو إسماعيل وكان يختلف إلى صالونها الأدبى كثيرون من علية القوم ومنهم على سبيل المثال سعد زغلول ، وأحمد زيور ، وقاسم أمين ؛ وإبراهيم الهلباوى والسيد أحمد الحسينى المحامى والمويلحى الكبير والصغير وغيرهم .

على اختلاف درجاتها ؟ وأنه أفاد منها شيئاً ليس إلى إنكاره من سبيل ؟ وهذا الذى قلناه عن النديم نقوله الآن عن إبراهيم المويلحى .

انحدر هذا الفتى من أسرة سنتحدث الآن عنها . وكان له أخ أصغر منه يسمى عبد السلام ، وكان أبوهما السيد عبد الخالق المويلحى يريد أن يجعل من إبراهيم تاجراً . ومن عبد السلام أديباً أو عالماً ، فبعث بهذا الأخير إلى الأزهر ، وترك إبراهيم — لأنه الكبير — فى متجره الذى كان يعمل به فى تجارة الحرير ، ولكن القدر حكيم أراد غير ذلك . فخرج عبد السلام من الأزهر واحترف التجارة ، ولم يلتحق إبراهيم بالأزهر ولزم المتجر ، ولكنه تتلمذ لحسن حظه وحظ الأدب والصحافة على عطار كان له حانوت بجوار متجر السيد عبد الخالق المويلحى والد صاحب الترجمة ؛ وكان هذا العطار عالماً فى الفقه واللغة والأدب وغير ذلك من علوم الأزهر . ومن نوادر ما حكى عن المويلحى فى صلته بهذا العطار العالم أنه كان إذا أصبح الصباح وذهب لفتح متجر أبيه بقى فيه لحظات قصيرة ريثما يأتى جاره العطار وإذ ذاك يجلس إليه إبراهيم ليتلقى عنه دروساً فى الأدب والنحو والبلاغة؛ وكان الفتى يعلم أن ذلك لا يرضى أباه ، فكان يحتاط للأمر ويكل إلى بواب اسمه « على الأشمونى » ليقف على قارعة الطريق ، حتى إذا رأى السيد عبد الخالق مقبلا من بعيد أسرع فأخبر إبراهيم ، ليترك أستاذه العطار على عجل ، ويعود إلى المتجر متظاهراً بالشغل به طيلة الوقت !

أسرة المويلحى :

بيت المويلحى من البيوتات القديمة فى مصر وهو ينتمى إلى الحسن والحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل أن هذه الأسرة نزحت إلى « المويلح » وهى بلدة فى جزيرة العرب على شاطىء البحر الأحمر سنة ٥٠

---

(١) أطلعنى حضرة إبراهيم (أفندى) المويلحى على صورة شمسية لمحضر تبينت فيه كل ما ذكرته .

للهجرة . وبقى أفراد هذا البيت يتولون أمر هذا الثغر مدة كبيرة من الزمان حتى أصبحت الجزيرة العربية تابعة للدولة العثمانية ، واتخذ السلطان سليم من أبناء هذه الأسرة وكلاء عنه فى بلدة «المويلح» . ومنذ ذلك التاريخ اشتهرت أسرة المويلحى باسم « أسرة الوكيل » . وقيل أيضاً أن الجد السادس عشر لهذه الأسرة ، وهو السيد محمد أبو السرور ، شيد قلعة فى « المويلح » لحمايتها ولإيواء الحجاج المارين عليها ولإطعامهم فى طريقهم إلى الكعبة . ثم فى عام ١١٨٠ ﻫ رأينا حاكم المويلح ، وهو يومئذ السيد مصطفى حفيد السيد أبى السرور الذى سبق ذكره يطلب من السلطان أن يبعث إليه بأمراء الأوجاقات السبعة وقضاة الشرع ليشهدوا — حسب العادة والعرف إذ ذاك — بما تم فى القلعة من ترميمات ، فجاءوا إليها وشهدوا كل ذلك وقدروا نفقاته ، وكتبوا به سجلا رفعوه إلى السلطان ، وكان هذا الأمير ونعنى به السيد مصطفى المويلحى الوكيل يتاجر فوق ذلك فى الحرير ، وقد أسس له عام ١٧٧٥ م وكالة مشهورة بصناعة هذا النسيج بمدينة القاهرة ، تاركاً أمر إدارتها إلى ابنه السيد أحمد المويلحى ، ويقال أنه منذ ذلك التاريخ انقسمت أسرة المويلحى قسمين :

قسم ظل يحكم ثغر المويلح ويقال أنه لم يزل بهذا الثغر إلى اليوم ، وقسم آثر الديار المصرية بالرحلة إليها والإقامة فيها ، فبقى هناك حتى تولى عرش البلاد محمد على (باشا) الكبير عام سنة ١٨٠٥ م . ومنذ ذلك التاريخ نشأت صلة قوية ، وصداقة متينة بين هذه الأسرة وبين والى مصر وبعض رجاله سنتحدث عنها ، ووجدنا بالفعل بين أفراد هذه الأسرة رجلا اسمه إبراهيم المويلحى وهو ابن السيد أحمد المويلحى وجد إبراهيم المويلحى صاحب الترجمة ، وقد اتصل بحبيب أفندى كتخدا محمد على واتخذه الكتخدا كاتباً له ، وكان لإبراهيم ولع بالأدب عظيم ، وعناية باللغة كبيرة ، ويحكى أن السيد أحمد المويلحى كان يحكم ثغر « المويلح » بعد أبيه السيد مصطفى وذلك فى الوقت الذى جهز

فيه محمد على الكبير حملته المشهورة لمحاربة الوهابيين سنة ١٨١١ م ، وحين نجحت الحملة فى تسكين فتنة الوهابيين وطردهم من ثغر « المويلح » وذلك بفضل المعونة التى قدمها السيد أحمد ، وصلت الأنباء إلى « محمد على » بمصر فسر بها كثيراً ، وكتب بها إلى السلطان وطلب منه الإبقاء على السيد أحمد المويلحى وكيلا عنه فى ثغر المويلح ، فوافق السلطان على ذلك .

ثم فى ١٨١٢ م أتى السيد أحمد لزيارة ابنه إبراهيم فى مصر ، فوجد الوالى مشتغلا بتجهيز حملة أخرى إلى الحجاز ، وسمع أنه بحاجة فى هذه المرة إلى ستمائة كيس من المال ، فتحركت فى نفس السيد أحمد أريحية عربية حملته على أن يدفع هـذا المال كله إلى محمد على ، فقبل الوالى منه ذلك شاكراً ومحتسباً له ولأسرته هذا الجميل .

وتوفى السيد أحمد المويلحى سنة ١٨١٣ م فأمر محمدعلى بدفنه فى مسجد الإمام ، وتولى ابنه إبراهيم تجارة أبيه فى الحرير ، وأثمرت تجارته ونمت وجلبت له ولأسرته المال الوفير . ثم إن محمد على لم ينس لأبيه ذلك الصنيع فعينه فى سنة ١٨٢٧ م عضواً فى مجلس فصل الدعاوى بين التجار .

وتوفى السيد إبراهيم ، تاركا ابنه السيد عبدالخالق فى سن الستين ، وبقى السيد عبدالخالق يتولى تجارة أبيه وحده فى الحرير ، وهى تزداد فى يده نماء وإثمارا ، حتى رزق بولديه إبراهيم وعبد السلام . وبقى هذان الأخوان فى رعاية أبيهما ، وكان ظن أبيهما — كما قلنا — أن يكون إبراهيم وهو الأكبر — تاجراً وعبد السلام عالما ، ولكن شاءت الأقدار أن تخالف هذا الظن ، وأن تظهر فى إبراهيم ميول أدبية قوية لم يستطع مقاومتها ، ولم ير بدا من الاتصال لأجلها بحانوت العطار ، الذى قلنا أنه كان يحفظ كثيراً من علوم الأزهر ، وأخذ عنه إبراهيم شيئا غير قليل من هذه العلوم التى منها البلاغة والأدب والنحو والعروض .

سيرة ابراهيم المويلحي الخاصة :

توفى السيد عبد الخالق سنة ١٨٥٦ م تاركا لابنيه عبد السلام وإبراهيم ثروة كبيرة ، كان خليقاً بهما أن يحتفظا بها ، ولكنهما أضاعا جانبا كبيراً منها فى المضاربات المالية التى فتن بها إبراهيم بنوع خاص ، وكانت مصر حديثة عهد بهذه المضاربات التى كانت تبهر الناس بسرعة ما تفجؤهم به من الإثراء ، فمال إليها الكثيرون من سراة مصر فى هذا الوقت وأضاعوا فيها ثروتهم ، وأصبحت بيوتاتهم كأن لم تغن بالأمس ، وكان إبراهيم من هؤلاء الذين لايقنعون بما فى يدهم من الغنى ، فراحوا يلتمسون أكثر منه بهذه الطرق ، واتسعت تجارة هذه الأسرة فى الحرير بعد وفاة السيد عبد الخالق المذكور ، واشتهر بها أمر ابنه إبراهيم حتى أصبح عضواً فى مجلس التجار ، فعضواً فى مجلس مصر الابتدائى ، غير أن ذلك كله لم يصرف إبراهيم عن الأدب برغم أن الأدب كان يومئذ مهنة الفقراء . وأخذ يتصل بكثير من كبار الأدباء ، واشترك مع أحدهم إذ ذاك واسمه عارف (باشا) فى تأسيس «جمعية المعارف» وغرضها نشر الكتب القيمة وتقريبها للقراء بصورة ملائمة ؛ وكان تأسيس هذه الجمعية سنة ١٨٦٨ م. ثم أنشأ المويلحى لهذه الجمعية مطبعة عرفت كذلك باسم «مطبعة المعارف» وقامت هذه المطبعة بنشر طائفة صالحة من الكتب أهمها « قاموس تاج العروس » ورسائل بديع الزمان ، وسلوك الممالك، وألف باء ، وكتاب أسد الغابة ، ومحاورات الأدباء والشعراء والبلغاء، وهكذا كان لهذه الجمعية شأن يذكر فى تاريخ النهضة العلمية الحديثة ، وفجأة رأينا إبراهيم المويلحى يتجه بعد ذلك إلى الصحافة ، وكان أول ما فعله من ذلك إصدار جريدة «نزهة الأفكار» بالاشتراك مع أحد الأدباء المشهورين إذ ذاك وهو عثمان جلال ، ولم يكن لمصر من الجرائد الشعبية يومئذ غير جريدة « وادى النيل » لصاحبها أبى السعود . غير أنه ظهر أن جريدة «نزهة الأفكار» كانت من الخطورة على الرأى العام بحيث أشار شاهين (باشا)

يومئذ على الحكومة بتعطيلها خوفا من جرأة كاتبها ، ولذلك رأت الحكومة القائمة أن تصدر أمرها بتعطيل هذه الجريدة ، ولم يكن قد صدر منها غير عددين لا ثالث لهما . ومن ثم ترك إبراهيم العمل فى الصحافة هذه المرة مكرها ، وطفق يقضى وقته بعد ذلك فى مضاربات « البورصة » التى لم تلبث كما قلنا أن استنزفت ثروته وثروة العائلة ، وكانت فى نظرنا دليلا على مزاج هذا الأديب ، وهو مزاج سريع التقلب إلى درجة تلفت نظر المؤرخ كما سترى ذلك بعد .

وكادت هذه الأسرة العريقة تتعرض للتلف لولا يد إسماعيل العظيم الذى ذكر لهذه الأسرة فضلها القديم ، ورأى أن يستدعى الأخوين عبدالسلام وإبراهيم فمثلا بين يديه فقال : من منكما الأكبر ؟ فقال إبراهيم : عبدكم يامولاى فسأله : كيف تسير أعمالكما التجارية بعد موت أبيكما ؟ فقال إبراهيم : إن علمها عند عبد السلام لأنى انقطعت للعلم والأدب ، فالتفت الخديو إلى عبد السلام فتقدم وبسط الحالة التجارية والمالية . وهنا تناول الخديو ورقة وخط فيها بيده الكريمة سطرين وناولها إبراهيم ليسلمها لرئيس الديوان [1] وخرج الأخوان من حضرة إسماعيل ، وإذا بأحدهما وهو إبراهيم عضو فى مجلس الاستئناف براتب شهرى قدره أربعون جنيهاً ، وإذا الثانى وهو عبد السلام فى يده إذن بمبلغ أربعة آلاف جنيه أصلح بها حال تجارته ، ونهض بها من عثرته وعثرة أسرته .

ولم يكتف إسماعيل بذلك ، بل أنعم على الأخوين الشقيقين بالرتب والنياشين ، وأصدر أمره لسيدات القصر بألا يلبسن غير الحرير الذى تنتجه مصانع المويلحى . ثم أمر كذلك بإعداد كميات كبيرة من هذا الحرير فأرسلت إلى معرض فينا فى تلك الأيام ، ومنذ ذلك الوقت اشتدت الصلة

---

(١) انظر مقالا لإبراهيم (أفندى) للويلحى بالعدد ٢٤٩ من مجلة الرسالة بالقاهرة .

بين الخديو إسماعيل وأسرة المويلحى ، ووطن إبراهيم نفسه على الإخلاص ما عاش لهذا الوالى ولأولاده من بعده .

وبقى إبراهيم فى العمل الحكومى الذى عينه فيه الخديو إسماعيل حتى دب نزاع بينه وبين حيدر يكن (باشا) رئيس مجلس الاستئناف انتهى باستقالة إبراهيم من هذا العمل وتفرغه بعد ذلك للأدب .

غير أن الخديو إسماعيل عوض إبراهيم عن ذلك بإعطائه « مصلحة تمغة المشغولات والمنسوجات» على سبيل الالتزام — أعنى الاحتكار على الطريقة المتبعة إذ ذاك — وحدث بعد ذلك أن سقطت وزارة نوبار وتلتها الوزارة الوطنية برياسة شريف (باشا) ، وكان على هذه الوزارة الوطنية أن تفكر فى وضع الدستور ، فاختير إبراهيم المويلحى للاشتراك مع السيد البكرى فى وضع اللائحة الوطنية لتأسيس مبادىء الحكومة الدستورية ، فوضعاها يومئذ وقدماها لأولى الأمر .

ثم وقع اختيار راغب (باشا) ناظر المالية بعد ذلك على إبراهيم ليكون كاتم سره فى نظارته ، وصادف هذا الاختيار قبولا حسناً فى قلب إسماعيل الذى لم يكتف بذلك حتى عين إبراهيم ناظراً للقلم العربى بهذه النظارة ، وإذ ذاك أظهر المويلحى من النشاط والمقدرة ما جعل راغب (باشا) يحيل إليه كذلك النظر فى قلم العرضحالات مع ملاحظة قلم (تركى المالية) . وفوق هذا كله عينه راغب (باشا) عضواً فى مجلس تسديد الديون السائرة .

ابراهيم المويلحى والخديو اسماعيل :

ثم حدث ما حدث ، من تنازل الخديو إسماعيل عن العرش سنة ١٨٧٩ ، ومن سفره إلى إيطاليا واختياره مدينة « نابلى » للاقامة فيها . وإذ ذاك تطوع إبرهيم بالسفر إليه فى هذا المنفى تاركا جميع مناصبه الحكومية التى كان يشغلها فى مصر . وهناك فى إيطاليا كتب إبراهيم صفحة جديدة من

كتاب حياته . هى صفحة الولاء والإخلاص لصديقه إسماعيل . وكان إسماعيل فى محنته هذه محتاجاً لشيئين لا ثالث لهما : أما الأول فصديق يبثه شكواه ويستشيره فى كثير من الأمر، وأما الثانى فصحيفة يذود بها عن نفسه ضد السلطان، وضد الأجانب ، وضد الصحفيين من المصريين ممن تعرضوا لذمه ونقده فى داخل مصر وخارجها ، وكان من أشد أولئك الصحفيين على نفس إسماعيل ذلك الصحفى الإسرائيلى المعروف باسم يعقوب بن صنوع. ولقد وجد إسماعيل فى صديقه إبراهيم ذلك الزميل الذى يحقق له هذين الغرضين ، فاتصل الود بينهما ، وأنس كل منهما إلى الآخر ، ووثق به كل الثقة ، وتحدث الناس بهذه الصلة الحميدة فى المجالس وفى الصحف ، وبقى إبراهيم ينظر إلى صديقه العظيم «كيف يضيمه الأمل ، وكيف يقعده الملل، وكيف يصعده ذاك فوق رءوس سكان النجوم ، وكيف ينزله هذا تحت سكان التخوم [1] » . فيتأثر لذلك تأثراً ترتعد له جسمه ، ويخفق له قلبه ، ثم لم يزل إبراهيم لصاحبه الكبير « حتى حشره فى زمرة أصحاب الصحف ، فعوضه الله عن العرش الضائع بأحرف المطابع وعن التشريع بالتقريع ، وعن الوَرِق بالورَق ، وعن العبيد الطائعين بالمشتركين ، وعن التمثيل بالتحصيل ، وعن القرارات بالمقالات ، وعن حفلة الرقص بآلة القص ، ونقله من التدبير إلى التحبير ، ومن أطال الله عمر المالك العظيم إلى يا أبا شادى أدر ماكينة التحرير ، فسبحان من وضع الأشياء موضعها . وفرق العز والإذلال تفريقاً .

وهكذا وجد إسماعيل راحته فى المنفى فى صديقه المويلحى ، ثم فى هذه الصحف التى كانت من إيحاء إسماعيل ومن إنشاء إبراهيم ؛ ومن هذه الصحف صحيفة يقال لها « الخلافة » ، وأخرى باسم « الاتحاد » ظهرت سنة ١٨٨٠ م

(١) من مقال بجريدة الصاعقة عدد ٥٢ بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٠٦ لصاحب الجريدة المذكورة أحمد فؤاد .

ولكن لم يصدر منها أكثر من ثلاثة أعداد ، جاءت كلها نقداً لاذعاً لسياسة الدولة العلية ، ولقد أزعج هذا النقد اللاذع السلطان عبد الحميد بالآستانة، فبعث إلى سفيره بإيطاليا أن يبذل أقصى الجهد فى أن يكف المويلحى عن هذا النقد .

ومرضت إحدى الأميرات من زوجات إسماعيل بمرض الروماتزم وأشار عليها الأطباء بالاستشفاء فى مدينة «بروسه» من مدن تركيا ، فتحير إسماعيل فى الأمر، واستشار فيه صديقه وأمينه إبراهيم ، فأشار عليه يومئذ بأن يبعث إلى السلطان برسالة يستعطف فيها أمير المؤمنين حتى يأذن للأميرة المريضة بالإقامة فى هذه المدينة . وتولى إبراهيم بنفسه كتابة هذه الرسالة وإليك طرفاً منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين، أطال الله بقاءه ، وجعلنى من كل مكروه فداءه، من عبد اكتنفه حرمان الرضا من ولى نعمته ومالك ناصيته ، فساعته شهر ، وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وإنى أتضرع إلى مقام خلافتكم العظمى ، وسلطنتكم الكبرى ، متوسلا بجانب صاحب هذه الرسالة — صلى الله عليه وسلم — أن يلحظ ما أعرضه لدى سدتكم الملوكية بعين الرضا ، ولو أن العذر إقرار بالذنب لملأت الصحائف أعذاراً ، ولعرضت التوبة ليلا ونهارا ، وهبنى يا أمير المؤمنين جئت بكل ذنب ، أليس فى سعة عفوكم وساحة إحسانكم ما تغفر به الذنوب ؟ وأمير المؤمنين أعلى نظراً أن يؤاخذ بقول وهو إفك الوشاة ، أو يعاقب بكلام وهو بهتان السعاة ، من الذين اتخذوا حرفتهم أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، بعد أن أفنيت حياتى بهذا البيت المعمور فى خدم خدمتها ، وأوامر أطعتها، ونواهى امتثلتها ، وموالاة جعلتها شرطاً سادساً لدينى ومعتقدى ، واتباعاً لقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ثم قال : وإن أذكر أمير المؤمنين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، بقوله تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

وإن بين جلالتكم وبين رعيتكم — وهذه المريضة فرد من أفرادهم — الرحم الدينى الذى هو أولى بوجوب الصلة من رحم السنين ، قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» — أى واتقوا الله فى إخوانكم فى الدين برعاية عهودهم ، وحفظ حقوقهم، فعلمنا أن الأخوة الدينية تقتضى مزيد الشفقة والرحمة، ولا معنى للرحمة والشفقة، إلا أن تنقذ المؤمن من المهالك ، وتؤمنه من المخاوف، وتخلصه من الآفات وأن توصل إليه الميراث ما استطعت ، ولا يكمل عند الله الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ولو شاهد أمير المؤمنين هذه المريضة المسكينة وهى سائلتى بماذا أجاب الخليفة ؟ أيرضى أمير المؤمنين أن أقول لها قد أغضى عن الإيجاب وهو تصريح بهتك الحجاب أو الموت — كبرت كلمة تخرج من الأفواه فإذا قالت « فأين الدين والإيمان ؟ والحديث والقرآن والعدل والإحسان فلا مساغ يا أمير المؤمنين للجواب .

يا خليفة رسول الله ، هذه فرد من أفراد رعيتكم ، وقال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكل مسئول عن رعيته » فالتمس من أعتاب مولانا المعظم أن يصدر أمره العالى بما يوافق شفقته وإرادته ، وأن يعفو عن عبده ،وإنى لممتثل لجميع أوامر مولانا أمير المؤمنين أعدها فرضاً واجباً ،فإن الحياة والله لا تصفو لعبد سدتكم وفى التصور أن ولى نعمته مغض عنه ، وأنا واقف على البعد أتلقى أوامركم بفريضة الامتثال ، فان لم يصادف تضرعى ودعائى قبولا فإنى أخشى أن هذه المريضة وهى فى الاحتضار تمد يدها بكتاب الله تعالى قائلة « بينى وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب العزيز فى الدنيا والآخرة والأمر لله من قبل ومن بعد[1] .

---

(١) راجع الرسالة العدد ٢٤٩ السنة السادسة .

سافر إبراهيم بعد ذلك عام ١٨٨٤ ، إلى باريس حيث أصدر العدد الرابع من جريدة الاتحاد ، التى كان يرعاها الخديو إسماعيل . وكانت لهجة إبراهيم فى هذا العدد قاسية على السلطان . فطلب هذا عن طريق سفيره فى باريس إلى الحكومة الفرنسية نفى إبراهيم من فرنسا . ولا ندرى لماذا بادرت الحكومة الفرنسية بتلبية طلبه . وإذ ذاك انبرى لنقد وزير الداخلية أحد المحامين الفرنسيين .

ونشر المحامى نقده هذا فى جريدة « الفيجارو » الفرنسية عدد ٣٣٣ سنة ١٨٨٤ واختتمه بقوله « إنى أسأل بصراحة المسيو « ولدك روسو » عن الضرر الذى يسببه إبراهيم (بك) فى باريس . أم هل فقد بلدنا الجمهورى حق الإقامة فيه ، وأضحى غير قادر على منح الضمان الكافى للمحكوم عليه سياسياً . وإلا فما هو الأمان الذى يمكن أن يجده عندنا كل غريب فقد حق التمتع بمصالح بلده ؟ ألا يظن حضرة وزير الداخلية أنه من السذاجة أن تنال بسهولة وبدون محاكمة إبعاد صحفى فرنسى غير راض عن سياستنا الحالية من اسطنبول أو لندرة مثلا لأنه يصدر جريدة عدائية هناك ؟ إن القبض على إبراهيم (بك) ونفيه بدون محاكمة لا يعد فقط عملا استبدادياً ، بل أمراً منكراً ربما استحق الاستجواب عنه فى البرلمان[١].

أبحر بعد ذلك إبراهيم إلى لندن بدعوة من السيد «جمال الدين الأفغانى» ، فعرض عليه أن يشترك معه فى تحرير جريدتى « العروة الوثقى » و « ضياء الخافقين » كما اشتركا فى الدفاع الحار عن الشرق والإسلام ولم يكتف إبراهيم بذلك بل أنشأ هناك لنفسه جريدتين جديدتين ، وهما جريدة « الأنباء[٢] » وجريدة « عين زبيدة » .

---

(١) انظر مقالا لإبراهيم (أفندى) المويلحى بالعدد رقم ٢٥٠ من مجلة الرسالة بالقاهرة .

(٢) ورد فى جريدة الكوكب لصاحبها محمود زكى العدد ١٨ بالسنة الخامسة بالقاهرة أن جريدة الأنباء ظهرت فى نابلى . أما جورجى زيدان وعيسى اسكندر المعلوف فرويا أنها ظهرت فى باريس .

ولسنا ندرى لماذا اندفع إبراهيم فيها اندفاعاً ظاهراً إذ ذلك فى إظهار ولائه للسلطان عبد الحميد . وحين وصلت الأخبار إلى مسامع السلطان ، سر لها سروراً عظيما . وأظهر الرضا عن خطة إبراهيم فى نقده الشديد لساسة الإنجليز وعلى رأسهم « غلادستون » . ومن ثم فكر السلطان فى استدعاء المويلحى إلى الآستانة ، ولكن المويلحى ارتاب أولا فى هذه الدعوة ، ورأى أن يبعث بابنه محمد لكى يكشف له عن جلية الأمر ، فذهب محمد إلى الآستانة وتبين له أن السلطان صادق فى هذه الدعوة التى وجهها إلى أبيه ، فكتب إليه يطمئنه على ذلك ، ويتعجل حضوره .

إبراهيم المويلحى فى الآستانة :

ومثل إبراهيم بين يدى السلطان الذى أكرمه ، وتلقاه بالإنعام والبشر والبشاشة ، ثم عينه عضواً فى مجلس « أنجمق المعارف » وكان رئيسه يومئذ « منيف باشا » الذى وصل إبراهيم بكبار رجال العلم بالآستانة ومنهم الشيخ «الشنقيطى» وهناك فى الآستانة تعرف المويلحى كذلك إلى إبراهيم (بك) أدهم ، صاحب جريدة الحقائق ، وأخذ على عاتقه وصف المواكب السلطانية على صفحات هذه الجريدة ، وذلك فى كل مرة يخرج فيها السلطان للصلاة .

وهناك مثالا من إنشائه ، يصف موكب صلاة الجمعة فى الآستانة قال : ما قيصر فى يوم افتخاره ، أستغفر الله ، بل ما سعد قادماً من القادسية ولا المعتصم من عموريه ، أملأ للقلوب مهابة ، ولا للعيون بهاء ، من رؤية جلالة السلطان فى موكبه يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ، ترد العساكر رجالا وفرساناً من أطراف الآستانة إلى « بشكطاش ، عشرة آلاف أو يزيدون ، فينتظرون فى طريق السرايا السلطانية صدور الإرادة السنية بتعيين المسجد ، وهى طريقة جارية إلى اليوم ، وإن كان المسجد الحميدى قد اختص بصلاة جلالته دون سواه ، فإذا صدرت الإرادة اجتمعت العساكر فى ساحة المسجد أمام باب السراى ، واصطفت صفوفاً مضاعفة

بعضها وراء بعض ، وفى هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين ، والوزراء والمشايخ ، والأجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء ومن كان معهم من علية القوم الوافدين على الآستانة فى قاعة « الجيب الهيونى » المطلة على تلك الساحة ، التى لا يسمع السامع فيها قيلا ولا صهيلا إلا صليل الأسياف ، وترديد الأنفاس، هيبة وإجلال ، وانتظاراً واستقبالا لإشراق نور الحضرة السلطانية فإذا حان وقت الصلاة أشرقت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياء ، من مطلع السراى التى تحمل الإمام نائب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجلس أمامه الغازى عثمان (باشا) والمشيرون ، وكبار رجال الدين حافون من حول المركبة مشاة تخشع الأبصار ، ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الإمامية ، وهم فى غير هذه الساعة أكاسرة الزمان ، وقياصرة الرومان كبراً وجبروتاً ، كلهم فى أمواج الملابس الذهبية يسبحون ، وعلى صدورهم نياشين الجوهر تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب إلخ »[1] .

وشاءت الأقدار أن يقيم إبراهيم فى الآستانة عشر سنوات ، شق على جواسيس تركيا فى أثنائها أن يصفو له العيش ، وأن يظل صديقاً للسلطان، أثيراً عنده ولو فى الظاهر ، وترصد هؤلاء الجواسيس لإبراهيم حتى علموا أنه يكاتب جريدة « المقطم » فى مصر بين حين وآخر ، وأن موضوع المقالات التى يكتبها فى الجرائد المصرية نقد لاذع لسياسة « الباب العالى » وتعريض ظاهر بها وأبلغوا ذلك كله مسامع السلطان ، فبعث إلى الشرطة لتقوم بتحقيق الأمر ، واستطاع ناظر الضبطية أن يلقى القبض على إبراهيم، وتصادف أن كان بيده فى هذه اللحظة مسودة مقالة من هذه المقالات التى ينتقد فيها السلطان فأسقط فى يده ، ونظر من نافذة الحجرة التى ألقى عليه القبض بها ، فرأى ديكا خارج النافذة فأسعفته بديهته إذ ذاك بحيلة

---

(١) انظر جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر الجزء الثانى ص ١٠١ الطبعة الثالثة .

تخلص بها من المقال الذى بيده ، وذلك أنه أخذ يمزق الورق التى كتب بها المقال قطعا قطعا ، وأخذ يلوك كل قطعة منها بلسانه لوكا شديداً حتى يجعل منها شبه الحبة التى يلقى بها إلى الديك فيلتقطها قطعة قطعة ، حتى أتى على نهايتها . والعجيب أن هذه الحيلة التى نجا بها إبراهيم جازت على رجال التحقيق، واقتنع هؤلاء ببراءته ، وبلغ ذلك سمع السلطان فأظهر الرضا على إبراهيم من جديد ، وأنعم عليه يومئذ بالرتبة الأولى من الصنف الثانى وصاحبها يلقب « بسعادتلو افندم » وهى توازى رتبة الميرميران الملكية التى يلقب صاحبها بلقب باشا . وهكذا كان إبراهيم يخدع السلطان عن نفسه طول هذه المدة، ولكن السلطان فيما يظهر كان لا يرى بأساً فى هذا الخداع وكأن السياسة أملت عليه ذلك . وحدث أن أتى الخديو «عباس الثانى» إلى الآستانة لزيارة السلطان لعرض الشكر والعبودية على أعتاب الخلافة السنية ، وأحب إبراهيم وهو الصديق القديم للأسرة العلوية أن يزور هذا القادم من رجالها إلى الآستانة وهو الخديو عباس ، ولكن حيل بينه وبين هذه الزيارة التى كان يترقبها ، فقد أبى بعض الكبراء من حاشية عباس أن يصلوا بينه وبين إبراهيم، وهو الرجل الذى تجرى فى عروقه محبته للبيت العلوى ، وهى محبة قديمة ورثها عن آبائه وأجداده منذ تولى محمد على الكبير عرش مصر . واشتد غضب إبراهيم لهذه الحادثة ، وكاد يتميز من الغيظ ، وفكر من لحظته فى حيلة عجيبة يفسد بها على القوم أمرهم ، ويحرمهم بها ثمرة المجىء إلى الآستانة والتشرف بلقاء السلطان بها ، فأمسك بالقلم وخط مقالا زوره تزويراً على لسان حاشية الخديو « عباس الثانى » وبعث به إلى جريدة المقطم فى مصر ، وعمد « إبراهيم » فى مقاله هذا إلى أن يصور معية عباس بصورة الناقمين على الحالة فى مصر، والفزعين إلى السلطان أن ينقذ مصر والإسلام من براثن الاستعمار ، وجاء فى هذه الرسالة المختلقة قوله :

هذه مصر أيد الله بك مقام الخلافة،وثبت بك أركان السلطنة ، ونصرك

النصر الوشيك ، فريدة التاج العثمانى والقسم الأكبر من السلطنة السنية ، والطريق الأعظم إلى الحرمين الشريفين ، قد أصبحت تمد يد الفزع الصارخ إلى عظمتك ، وتنظر كالمغشى عليها من الموت إلى حياتها فى يدك الكريمة ، فامنن عليها بالحياة يا أمير المؤمنين ، وخلصها ممن تجاسر على حوزة الإسلام بلا حجة ولا قوة ، وفى يد جلالتك الحجة والقوة ، وهذه أرواحنا رهينة ثلاثة أحرف من عظمتك ، فمرنا بما تريد لنخلص الإسلام المتخبط فى تلك الأشراك ، وقد بقينا يا أمير المؤمنين سنين عدة معلقين لا ندرى أنحن تحت حكم الخلافة والسلطنة السنية فتطمئن قلوبنا ، أم تحت حكم هذا الذى دخل فى يوم على وعد أن يخرج فى غده فبقى إلى الآن تخفق راياته على مساجد المسلمين فى بلد هى عش الأولياء ، ومرقد آل البيت النبوى ، ومجد جدك السلطان سليم خان ... إلخ .

فالآن وقد وفدنا على دار الخلافة مع سمو وكيلك المطبوع على محبة جلالتك ، المفتخر بنظرات الرضى عليه من ألطاف عظمتك ، الواقف موقف السمع والطاعة لأوامرك ، راجين من السدة السنية إجراء الوسائل الفعالة لإخراج هذا الداخل على وطننا ، وإبعاده عن الأراضى المقدسة التى يدأبون على التدخل فيها فإنهم إذا استمروا — لا قدر الله — فى البقاء بمصر سهل عليهم الدخول فيها وفى غيرها لطبيعة الموقع . ونسأل الله أن يؤيد جلالة مولانا الخليفة الأعظم وينصره على الباغين[١] .

كان من نتيجة هذه المقالة السيئة أن ثارت ثائرة الحكومة الإنجليزية ، وذهب سفيرها فى تركيا لمقابلة السلطان ، وسأله بم جاب معية الخديوى عباس ؟ وكادت العلاقات السياسية تتوتر بين البلدين ، لولا أن فكر السلطان يومئذ فى عمل يثبت به لانجلترا أنه لا يوافق على شىء مما جاء فى المقال ، وكان من نتيجة هذا العمل أن امتنع السلطان عن جميع الإنعامات التى كان ينوى منحها

(١) راجع المصدر السابق ص ٦٦٠ من مجلة الرسالة العدد ٢٥٠

حاشية الخديوى عباس ، وذلك فى الحفل الذى أقامه لاستقبال « الخديوى عباس فى قصر يلدز. وهكذا نجح إبراهيم بهذه الحيلة — وإن كانت سيئة — فى أن ينتقم لنفسه انتقاماً سريعاً من حاشية الخديو . بل هكذا كان من أخلاق المويلحى المهارة فى تدبير المكائد ، والحذق فى حبك المؤامرات . والأخبار الدالة على هذا كثيرة . وكلها ناطقة بذكاء الرجل وحرصه على الانتقام ، وإن القارىء لمذكرات أحمد شفيق (باشا) ليقع فى ثناياها على شتى من هذه الملاحظات . كتب شفيق (باشا) يقول : قد كان الخديو (يريد « عباس الثانى ») مستاء من دسائس إبراهيم (بك) المويلحى ومن تقاريره التى كان يرسلها «للمابين» ، وكنت قد أشرت على سموه أن الطريقة الوحيدة لراحتنا أن يقترح سموه عليه اصطحابه مع حاشيته ، وعمل اللازم عند الوصول إلى الآستانة لإبقائه بها ، وعندما أراد الخديو الرجوع إلى مصر ذكرت تحسين (بك) بحجز المويلحى ، فرد على بأن السلطان إن رأى حجزه وهو قد حضر فى كنف الخديو يكون مدعاة للنقد ولا يليق بمقام سموه ، ولذا ترك ليعود مع جنابه .

لسنا نريد بذكر هذه الصفة أو غيرها من صفات المويلحى أن نشوه سمعته ، أو ننقص من قيمته، وإنما المؤرخ الأدبى يحرص على تصوير الكاتب أو الشاعر لا كما تفعل آلة التصوير الشمسى ، ولكن كما تفعل الأشعة السينية حين تنفذ إلى العظام والأعصاب وتخترق الشرايين والأوردة ، وغرض المؤرخ فى ذلك هو إحداث الصلة بين الأديب وبين ما يصدر عنه من أدب. ولم أذهب بعيداً فى هذا الموضوع ؟ ألم يكن ابن خلدون على شهرته من أمهر رجال التاريخ الإسلامى فى الدسائس والمكائد ، ألم يكن ينحدر من أسرة معروفة فى التاريخ بهذه الأوصاف ؟ بلى ، ومن أجل ذلك استطاع ابن خلدون أن يفلسف التاريخ الإسلامى ، وأن يكتب وهو رجل لم يقرأ كثيراً فى كتب الفلسفة كتابه « المقدمة » وهــو الكتاب الذى طغت شهرته على الكتب التاريخية التى كتبها .

المويلحي يعود الى مصر :

ولم يجد إبراهيم بعد ذلك بدأ من العودة إلى وطنه مصر ، والنجاة بنفسه من هذا الجو الخانق فى تركيا ، فوصل إلى مصر فى غضون عام ١٨٩٥ م واستراح الرجل فى بلده من وطأة الجواسيس الذين أحاطوا به فى الآستانة، واستنشق فى مصر نسيم البساطة التى كان محروما منها طول إقامته بالقرب من « الباب العالى » ثم أخذ ينشر بين الحين والحين مقالاته الانتقادية التى كتبها على صفحات المقطم ، ووصف فيها حياة القصور السلطانية بالآستانة، وكشف القناع عن الدور الخطير الذى تلعبه الجاسوسة داخل هذه القصور ، وكان إبراهيم لا يجسر على إمضاء هذه المقالات باسمه الصريح ، وإنما كان يوقع تحت هذه المقالات باسم أحد الفضلاء ، ثم بدا له أن يجمع هذه المقالات النقدية فى كتاب جعل عنوانه « ماهنالك » ولم يجرؤ أن يجهر باسمه كمؤلف لهذا الكتاب ، بل قال إن مؤلفه « أديب فاضل من المصريين » وعلم السلطان بأمر هذا الكتاب فبعث إلى سفيره فى مصر بأن يجمع كل النسخ التى طبعت منه ، فأذعن السفير لأمر السلطان عبد الحميد ، كما أذعن له إبراهيم ، وجمع بنفسه نسخ هذا المؤلف الصغير ، وسلمها إلى السفير خلا نسخا قليلة كانت قد تسربت من قبل إلى بعض أصدقائه وسنعرض للقارىء بعض نماذج من هذا الكتاب عند الكلام عن الأسلوب الصحفى لمؤلفه .

وكان إبراهيم صحفياً بطبيعته ، لا يستطيع أن يحبس قلمه عن الكتابة ولا يقوى على العيش بعيداً عن الصحافة ، من أجل ذلك فكر سنة ١٨٩٨ فى إنشاء جريدة أسبوعية أدبية سياسية سماها « مصباح الشرق » وسيعرف القارىء أن هذه الجريدة الأخيرة كانت تنشر فيها بعض الفصول الأدبية التى أغوت كثيراً من القراء ، فكانوا ينتظرون صدورها بفارغ الصبر ، وكانت تنفذ جميع أعدادها يوم إصدارها ، بحيث يشق على الناس العثور

على نسخة منها فى اليوم الثانى ، وظل إبراهيم يصدر هذه الجريدة حتى وقف عن إصدارها فجأة سنة ١٩٠٣ .

وإلى إبراهيم المويلحى كذلك تنسب جريدة أخرى اسمها (المشكاة) كان يصدرها باسم ابنه السيد خليل (بك) المويلحى وصديقه حمدى (بك) يكن ، إلا أنه لم يصدر من هذه الجريدة غير أربعة أعداد فقط ، احتجبت بعدها سنة ١٩٠٥ عن أنظار الجمهور .

أخلاق المويلحى :

ومهما يكن من شىء فكل من يقرأ سيرة هذا الرجل يستطيع أن يستخلص منه صورة لخلقه وأخرى لعقله . ولقد يكفينا هنا أن نضع أيدينا على الخطوط العامة لهاتين الصورتين ، ولا نريد من ذلك إلا ما يريده الناقد الأدبى حين يتعرض لشخصية شاعر أو كاتب خطيب ، فيحلل ما أمكنه هذه الشخصية إلى عناصرها ويقربها إلى أذهان الجمهور .

وأول ما يلفت نظر القارىء لسيرة المويلحى أنه كان رجلا كثير التقلب إذ كان نهباً لمشاعره ، وكان يصدر فى حياته دائماً عن عاطفته أكثر مما يصدر عن عقله وتفكيره ، يحب فيبلغ من الحب أقصاه ، ويبغض فيبلغ من البغض أقصاه ، ويمكر فوق ذلك بالرجال ، ويكيد لهم فيبلغ من المكر أو الكيد أقصاه ، وربما كان لا يفهم من كلمة السياسة والدهاء غير هذا المعنى ، ولا شك أن هذا الخلق كان خير عون للمويلحى على أن يكون أديباً سياسياً . ذلك أن الأديب رجل يستجيب لعواطفه أولا ، وأما الفيلسوف فرجل يستجيب لعقله أولا ، وما كان المويلحى فيلسوفا . ولكنه كان أديباً لا أكثر ولا أقل .

وكان إبراهيم رجلا كثير التقلب ، ومن يدرى لعل لهذا الخلق بعض الصلة بتهافت المويلحى على المضاربات المالية : يربح فيها حينا ويخسر فيها

أحيانا،حتى أجهزت هذه المضاربات على ثروته وثروة أسرته ، ومن المحقق أن كان لهذا الخلق أثره كذلك فى حياة إبراهيم الصحفية ، فقد رأينا أنه لا يكاد ينشىء صحيفة من الصحف الهامة حتى يعطلها بعد إصدارها العدد الثانى أو الثالث أو الرابع منها ، ثم يترك العمل بهذه الصحيفة مختاراً لامجبراً على تركها بأمر من أوامر الحكومة ، وسنرى أن الفرق عظيم جداً من هذه الناحية بين رجل كالمويلحى ورجل كالشيخ على يوسف .

وانظر إلى جورجى زيدان يصف هذه الناحية من أخلاق المويلحى بقوله « فترى المترجم رحمه الله قد تقلب فى أعمال مختلفة ، بين تجارة وخدمة فى الحكومة ، وإنشاء المطابع والجرائد ، ونشر الكتب وغيرها وهو دون الثلاثين من العمر ، ولم ينل كل مرامه من واحد منها مع اقنداره وذكائه ، ولعل السبب فى ذلك لجاجته فى استثمار عمله قبل أن ينضج ، وعدم ثباته فى خطة واحدة ، لأنه لو ثبت فى التجارة مثلا ولم يرغب عنها فى خدمة الحكومة لكانت تجارته من أوسع التجارات ، ولو ثبت فى الخدمة ولم يعدل عنها إلى الصحافة والطباعة لكان من أكبر أصحاب المناصب ، ولو ثبت فى الصحافة إلى الآن لكانت صحيفته من أكبر الصحف وأهمها ، ولكنه لم يستقر على حال ، والأذكياء الذين لا يثبتون على حال ولا فى عمل إنما يكون سبب تقلبهم الرغبة فى النجاح السريع ، يريدون الطلوع إلى الأوج دفعة واحدة، فإذا استبطأوا الوصول إلى قمة النجاح فى عمل تركوه وانتقلوا إلى سواه ، فيأول ذلك فى الأكثر إلى ضياع العمر فى بناء القصور بالهواء ، ولو ثبتوا فى عمل واحد مهما يكن نوعه لكفاهم مؤنة الشكوى من معاكسات الزمان [١] .. الخ .

على أن «إبراهيم المويلحى» على تقلب مزاجه وقلة ثباته كان ذا عزيمة قوية لا يجول بخاطره رأى إلا لحق به التنفيذ على الفور . وليست حياة المويلحى

(١) انظر جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر الجزء الثانى الطبعة الثالثة ص ١٠١ .

فى الواقع غير سلسلة من هذه الخواطر التى ترد إلى ذهنه وتنتقل بسرعة البرق إلى حيز الفعل . وقد أورد صاحب الصاعقة من أمثلة هذه العزيمة الصادقة كثيراً مما يتصل بعلاقة إبراهيم المويلحى بإسماعيل ، وما يتصل بالحلول التى كان يقترحها ليخرج بها إسماعيل من مأزق مالى أو سياسى .

فى الرجل بعد هذا كله ميل إلى ضرب من الاعتزاز بالنفس ، ربما كان ضرباً من الكبر والاستعلاء ، وربما كان ضرباً من سرعة الغضب وحدة المزاج ، وربما كان ضرباً من الانتقام ، وربما كان ضرباً من الفكاهة المريرة والسخرية الغليظة ، وربما كان مزاجاً من جميع هذه الأشياء ، فما روى من ملحه فى شبابه « إنه مر وهو راكب حماره على حسن (بك) مذكور وكان فى ذلك الوقت الشيخ حسن وحانوته فى الحمزاوى ، فسلم عليه فلم يقم له ، فمضى فى حاجته ، ثم عاد بعد قليل ونادى عليه . فلما جاء طلب إليه أن يريه ما عنده من فناجيل القهوة ، فأتى له بما أراد فصار يقلبها فى يده ، وسأله عن ثمن كل صنف إلى أن سأله عن نوع منها فقال له بقرش فرمى به فى الأرض فكسر وأخرج من كيسه القرش وأعطاه إياه ثم قال : « إن الذى يقيمه قرش ويقعده قرش لا يجوز له أن يتعالى على الناس فأخجله ومضى[1] » .

ومما حكاه السيد رشيد رضا من فكاهات المويلحى ما قد يكشف لنا عن طويته قوله[2] وكان إبراهيم (بك) المويلحى يغيظه من محمد عبده أن يقول فى مقالاته المؤنقة « مش بطال » فضرب له المويلحى مثلا ينم عن غيظه منه قال « لو أن رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون وعن يمين عرشه الأنبياء المرسلون ومن ورائهم جميع البشر ، ويليهم جميع أنواع المخلوقات من الجن والشياطين والبهائم والوحش والطير ثم قيل للشيخ عبده ما تقول فى هذا المنظر لما زاد على قوله « مش بطال » .

---

(١) جريدة الصاعقة عدد ٥٢ بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩١٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٦٩٤ .

والخلاصة أن إبراهيم المويلحى كان رجلا عصاميا فى الأدب ، لم يتخرج من مدرسة ولا من جامعة ، ولا عرف أنه حضر بانتظام على مجموعة من كبار الأساتذة ، وذلك بالطبع فيما خلا العطار الذى أخذ عنه شيئاً من العلم الأزهرى فى أثناء الطفولة، وفيما خلا الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى لا بد أن نفترض أن المويلحى حضر عليه بعض الدروس فى أثناء الشباب وبعض الكهولة ، وذلك من حيث تكوينه الأدبى والعقلى ، وأما من حيث أخلاقه الشخصية فقد رأيت أن إبراهيم كان رجلا ذا دعابة رفيعة تظهر من ثنايا أحاديثه، ودعابة غليظة تظهر من بعض تصرفاته ومعاملاته ، وكان رجلا يحب الانتقام، قوى العزيمة حاد المزاج، حاد الذكاء ، واسع الحيلة سريع البديهة، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة على حد تعبيره هو فى وصف أخلاق المصريين. ثم أن المويلحى كان كما رأينا نهازاً للفرص ، يعرف كيف ينتفع من كل فرصة تمر به ، ويعرف كيف يخرج من كل مأزق يوضع فيه ، ومعنى ذلك أن إبراهيم كان تاجراً فى أخلاقه بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى .

وما كان أشد ما يحب إبراهيم المال ويسعى للحصول عليه ما وسعته الحيل فى ذلك . أحصى الكونت « فيليب طرازى » الجرائد التى تنسب إلى المويلحى وذكر منها جريدة الخلافة فقال أنها صحيفة سياسية أسبوعية دينية صدرت سنة ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية فى مدينة «نابلى» ، وقد نشرها إبراهيم (بك) المويلحى المسافر بصفته كاتبا لإسماعيل (باشا) بعد خلعه من سرير الخديوية المصرية ، وكان المويلحى يذيع على صفحات الجريدة أن مقام الخلافة عند المسلمين يتسلسل من أصل عربى ، وأنه انتقل بلا حق إلى آل عثمان سلاطين الأتراك ، وكان يقول أن خديوى مصر أولى من سواه بهذه الكرامة الدينية ، لأن مصر كانت مقراً للخلفاء فى سائر الزمان ، فاضطرب السلطان عبد الحميد لذلك وخاف من امتداد هذه الفكرة بين الأمة العربية الإسلامية التى يتألف منها القسم الأكبر من سكان السلطنة العثمانية . فأوعز إلى سفيره

فى باريس أن يسعى فى تعطيل الجريدة المذكورة بالوسائل الفعالة قبل أن تنشر خبرها بين المسلمين، واتفق أن الدكتور «لويس صابونجى» كان موجوداً حينئذ فى عاصمة الفرنسيين ، فأشار على السفير العثمانى بأن أفضل وسيلة لبلوغ الغاية المقصودة هى إغراء المويلحى بالمال فتتبع السفير نصيحته وتوقف المويلحى عن نشر جريدته بعد صدور العددين الأول والثانى[1].

وهكذا كان المويلحى يقف حيناً فى صف الخديو ، وحيناً فى صف الباب العالى ، مرة يناصر صديقه عباسا وأخرى يعمد إلى الدس عليه لدى السلطان ، وهو فى أكثر هذه المرات مشغول بالمال وحده قبل كل شىء .

المويلحى ومحمد عبده :

ويحدثنا تاريخ الأستاذ الإمام لمؤلفه الشيخ رشيد رضا أن الخديو عباس احتاج إلى قلم المويلحى فى محاربة الشيخ محمد عبده ، وانتهز لذلك فرصة الفتوى الترنسفالية[2] فرد الشيخ رشيد رضا على هجمات المهاجمين للشيخ محمد عبده بقوله :

هى الترنسفالية التى هاجمتها السياسة الخديوية بأقلام كتابها المأجورين وشيوخها المداهنين ، فانكسرت دولة المال والرتب والنياشين ، وفازت دولة العلم والدين ، وكان النصر لكتابها المخلصين . وقد تقدم ذكر هذه المسألة وما قاله لى الشيخ محمد توفيق البكرى من أعداد سمو الخديو لحملة من فرسان الكتاب للهجوم على المفتى — يريد محمد عبده — فى تفنيد هذه الفتوى،واحتقارى لهذا التفنيد،ولم يلبث أن ظهر صحة قوله وصدق قولى ، واحتقاره لهؤلاء الكتاب وكونهم لا يقام لهم وزن فى هذا الموضوع ، فقد كتبوا وكتبنا فكنا نحن الغالبين فى العلم ، وكانوا هم الراجحين فى الجهل حتى أن إبراهيم (بك) المويلحى لم يجد ما يرد به على صاحب المنار إلا مثل

---

(١) فيليب طرازى : تاريخ الصحافة العربية الجزء الثانى ص٢٦٤ وما بعدها .

(٢) أفتى الشيخ محمد عبده بتحليل لحم الحيوان الذى يذبحه الترانسفاليون ضربا بالبلطة وقال أعداؤه بل حرام لأنه هو الموقوذة التى نهى عن أكلها القرآن ، وأحدثت هذه الفتوى ضجة فقهية فى مصر .

ما كتبه فى تهييج العامة عليه فى حكايته بقول المفسرين فى قوله تعالى « سأريكم دار الفاسقين » .

إنها مصر فى عهد موسى وأمثاله[1] .

ومما حكاه السيد رشيد رضا من فكاهات المويلحى كذلك، قوله : « وكان إبراهيم (بك) المويلحى يحيظه من محمد عبده أن يقول فى مقالاته المؤنقة « مش بطال » فضرب المويلحى مثلا ينم عن غيظه منه قال :

« يقول الكاتب ، أن الشيخ وضيع الأصل وأن أباه كان صغيراً فى إحدى القرى وأن الشيخ كان غلاما نقيرا ، لا يملك نقيرا ، وكان يقتات فى الأزهر بقشر الفول والبطيخ ، ويلبس القميص على اللحم ، ويبيت وسط المجاورين فى الصحن ، ثم هو ينتحل الآن لنفسه محتدا نبيلا، وبيتا كبيرا ، ويستر ذلك الأصل المنحط ، والفقر المدقع ، بتغاليه فى تعاليه ، وتطاوله وتباهيه ، وتعاليه عن أصله وتناسيه ، وتناهيه فى زهوه وتفانيه ، وتصعير خده للناس وتجافيه، وبتصغير كل ما يراه كبيراً ، وبتحقير كل ما يراه عظيما : فلو رأى العرش وحملته ، ورب العزة والملكوت ، وإله الجبروت والرحموت، والملائكة وصفوفهم ، والأنبياء ووقوفهم ، والجن وخشوعهم والجبابرة وخضوعهم ، والمصطفى ولواء الحق فى يده ، والشفاعة من بعض مدده، والجنة وقصورها، وولدانها وحورها، وأزهارها وأنهارها، وأشجارها وأطيارها ، والجحيم وشواظها ، والأمم واتعاظها ، والصراط والميزان ، والشمس والقمر يسجدان ، وسأله سائل عما رأى، لقال ، وهو مصعر الخد زهوا ، ومتفكك الأعضاء تيها : « مش بطال ! »

عام الكف أو صفحة من الأدب الساخر فى مصر :

كانت بين المويلحى وعلى يوسف ملاحاة ومهاترات ، لا ندرى لها سبباً

(١) محمد رشيد رضا — تاريخ الأستاذ الإمام ص ٦٦٧ .

غير المنافسة الصحفية بينهما ، وحدث أن التقى محمد المويلحي نجل إبراهيم بسرى من سراة مصر اسمه « محمد نشأت » وكان لقاؤهما فى حانة« دركوس » من حانات القاهرة ، وتعدى محمد المويلحي على محمد نشأت وسب أباه ، فما كان من هذا الآخر إلا أن لطم محمداً على خده ، وذاع نبأ هذه اللطمة فى الأوساط الأدبية فى مصر فى ذلك الوقت ، وكان للمويلحيين أعداء كثيرون منهم الشاعر المصرى المعروف إسماعيل صبرى (باشا) ، واتخذ الكتاب والشعراء هذه اللطمة موضوعا لفكاهتهم وتندرهم ، وكتبوا كثيراً فى ذلك.

وأفسحت المؤيد صدرها لهذه الكلمات وسمى هذا العام الذى نشر فيه هذا الأدب الهجائى وهو عام ١٩٠٢ باسم عام الكف .

وانتقم المويلحي بعد ذلك من صاحب المؤيد فى حادث زواجه بالسيدة صفية السادات وقضية الكفاءة التى رفعت عليه سنة ١٩٠٤ ونشر فى صحيفة « مصباح الشرق » كثيراً من الأدب الساخر بهذه المناسبة واتخذ المويلحي لهذا الأدب الساخر عنوان « عامل كفء » ، والجناس واضح بين هذا العنوان وقول جريدة المؤيد عام الكف ، والمقابلة أو الطباق واضحتان كذلك بينهما .

وقد نظم الشاعر إسماعيل صبرى فى هذا الموضوع اثنتى عشرة مقطوعة (١) .

من الأولى :

إذا فتح العداة عليك حرباً	وخفت بوادر المتنجزينا
فقل وارفع عقيرة من ينادى	فلا تجد المؤزر والمعينا
أعرنى يا ابن إبراهيم صدغا	أخوض به غمار الصافعينا
فإن هو قد أعارك ما ترجى	رأيتهمو أمامك هاربينا

(١) انظر ديوان إسماعيل صبرى — نشر أحمد الزين ص ٩٤ — ١٠٠ .

ومن الثانية : تحت عنوان الأسلحة الجديدة :

قلت لنجـــل الصافعين احترز   من صدغ إبراهيم يوم الكفاح

ولا تمازح إن رأيت ابنه   شاكى صدغ لا يجيب المزاح

فقال لى إن كان كفى معى   ما دمت حيا لا أهاب السلاح

ومن الثالثة :

يا صريع الأكف صدغك أمسى   خلقاً مثل طيلسان ابن حرب[1]

أنت فى الحـان أمان وسلم   وهو فى معمعات حرب وضرب[2]

ومن الرابعة :

فقـال محمـــد نعم السلاح   إذا التف بالعسكر العسكر

وصدغك أن نقر الناقرون   عليه يرن ولا يكسر

والخامسة بعنوان النصيحة :

يا ابن الألى رسخت أحلامهم ورست   إذا الأكف مجانين مهاويس

لا تدخل الحـان والصناع ثائرة   حتى تقام حواليك المتاريس

وقل لصدغك يستقبل وفودهمو   بالبـاب إنهم قوم منـاحيس

والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة :

نشرت كلها بعنوان « المناجاة » وهى محاورة بين إبراهيم المويلحى وابنه محمد .

« الأب » :

لى خـــلال مخـــله   بالمروءات والوفـــا

رب هب لى نقيض ما   بان منها وما اختفى

يا عمـــادى وعـــدتى   يوم لا ينفـــع القفـــا

---

(١) طيلسان بن حرب : يضرب به المثل فى القدم والبلى وسبب ذلك أن ابن الرومى كان قد مدح ابن حرب فخلع عليه طيلسانا باليا فقال فى ذلك الطيلسان شعراً :

يا ابن حرب كسوتنى طيلسانا   رق من صحبة الزمان وصدى

طال ترداده إلى الرفو حتى   لو بعثنـــاه وحده لتهدى

(٢) يشير الى أنه وصدغه فى شغل عن صاحبه .

« الابن » :

إلهى إنى من ذنوبى تائب ... زمن فعلى الممقوت يارب خائف
فلا تجعل اللهم صدغى صحيفتى ... إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

« الأب » :

هنا وهناك لى أثر حميد ... يشرفنى إذا أنا ما انتميت
نهشت الناس أعراضا ومالا ... ونلت من البرية ما اشتهيت
وكم صفع الجريم أديم وجهى ... فما خفت الهوان وماارعويت
أأترك لذة الفتن اعتباطاً ... وأهجرها وفى المصباح زيت ؟

« الابن » :

أنا فرع الألى رفعوا بناء ... يرى للنسر فوق ذراه بيت
أريش يراعتى بمداد خبث ... وأنَّى لاح لى هدف رميت
وإن أحد تعرض لى بسوء ... وقفت وراء صدغى واختفيت

والعاشر على لسان المويلحى مفتخراً :

أنا والله أصلح للمخازى ... وأفعل فعلتى وأتيه تيها
أمكن صافعى من لطم خدى ... وأعطى ذمتى من يشتريها

والحادية عشرة والثانية عشرة بعنوان استرحام :

الأولى — على لسان المويلحى يسترحم صاحب المؤيد مما ينشره فى جريدته :

أيها المولى الذى عودنا ... حكمة الرفق بحال البائسين
إن شهر الصوم قد حل ففز ... فيه بالأجر وشكر الشاكرين
قد كفانى كل ما قد حل بى ... فاعف عنى يا أبر القادرين

والأخيرة على لسان صاحب المؤيد يجيبه :

ابن إبراهيم طب ، إنا وأن ... قد أذقناك جزاء الظالمين
لكرام إن غضبنا ردنا ... عن أذى مثلك طبع الكاظمين

إن هـذا الشهر شهر يجتنى فيـه أمثالك صفح الصافحين
قد محونا آية الـكهف وها نحن نتلو اليوم آى الراحمين
فالزم العرف تعش فى ظلنا فى عداد الـكاتبين المـكرمين
واكـتب الخير وقله ترضنا واستقم ترضى إله العالمين

وعندنا أن هذا الشعر أثر من آثار البيئة المصرية والمزاج المصرى . ونحن نعرف أن المصريين يميلون بطبعهم إلى الفـكاهة والمزاح . وقد يثقل المزاح عندهم إلى حد التعريض والسخرية الغليظة والإضحاك المرير . ولا حيلة للمصريين فى ذلك فهكذا نطروا منذ القدم . وهكذا جبلوا على تلك الفنون المختلفة من اللذع ومن السخر ، وبما زلنا إلى اليوم نرى أمثلة شتى من الأدب الساخر . وفى ظنى أن الأدب المصرى لن يخلو يوماً ما من هذا الغرض .

على أن نقمة الناس فى مصر من المويلحى ربما كان سببها الأول اشتغاله بالصحافة عامة وبفن « الـكاريكاتور » فى هذه الصحافة خاصة .

ونحن وإن كنا لم نعثر إلى اليوم على أمثلة من هذا « الـكاريكاتور » فإننا نعتقد بوجوده موفوراً فى « مصباح الشرق » كما حدثنا بذلك الشيخ عبد العزيز البشرى وكما أشار إلى ذلك إسماعيل صبرى وقد سمعته يقول :

أأترك لذة الفن اعتباطا وأهجرها وفى المصباح زيت

فى هذا البيت الأخير تورية مصرية لاتخفى على القارىء ، فلفظ المصباح يحتمل هنا معنيين : معنى المصباح العادى وهو غير المقصود ، ومعنى مصباح الشرق وهو عين المقصود .

منهج المويلحى فى الاصلاح :

كان المويلحى من رجال الإصلاح . ولـكن ما هى خطته المرسومة لهذا الإصلاح ؟ ربمـا اتضحت هذه الخطة من الـكلام عن صحفه وعن الأفـكار التى تناولها فى هذه الصحف ، والمنهج الذى وضعه لها .

غير أننا نستطيع أن نقول هنا باختصار أن إبراهيم المويلحى كان يصدر فى كتاباته فى الكثير الأغلب عن فكرة خاصة وفكرة عامة . أما الفكرة الخاصة فمدارها مصر ، وغايتها الدفاع عنها وعن ولاتها من رجال البيت العلوى ضد الاحتلال الأجنبى ، والذى لا ريب فيه أن إبراهيم كان من أشد الكتاب بغضاً للمستعمرين ، ومن أشدهم فى الوقت نفسه حباً وإخلاصاً لإسماعيل وأبناء إسماعيل .

وما كان ضيق عباس بالمويلحى إلا عن وشاية كان سعى بها أعداؤه عند الخديو ، وكان المويلحى يقابل المكر والدسيسة بأقوى منها . ولولا غرام المويلحى بهذه الدسائس لكان رجلا محبوباً من الجميع .

وأما الفكرة العامة فمدارها الشرق وغايتها الدفاع عن الإسلام ، ومن ثم كان إبراهيم داعية عظيما لما نسميه بالجامعة الإسلامية تحت الراية العثمانية . والمويلحى فى هذه الفكرة الأخيرة قطعة من العصر الذى عاش فيه وتلميذ مخلص لأستاذيه الكبيرين : السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده وإن سلك طريقاً غير طريقهما ، وسبح فى واد غير واديهما كما سترى مصداق ذلك فيما كتبه المويلحى فى كتابه المشهور باسم « ما هنالك » .

تحدث الأستاذ تشارلز آدمس فى كتابه « الإسلام والتجديد فى مصر » عن تلاميذ محمد عبده فقسمهم شعبتين : شعبة الأزهريين وشعبة الحكوميين . ونظر إلى إبراهيم المويلحى على أنه من تلاميذ الشعبة الأخيرة ، ممن اتصلوا بالأزهر الشريف ، ومع ذلك جذبتهم الثقافة الأوربية ، وجعلتهم أهلا للمناصب الحكومية . ونظر تشارلز آدمس إلى المويلحى كذلك على أنه من شيوخ المحافظين ، أشار إلى الخلاف الذى وقع بينه وبين محمد عبده فى فتوى الترنسفال المشهورة[1] وهو الخلاف الذى خرج بعده المويلحى على الشيخ « محمد عبده » وأدخل السرور بذلك على قلب الخديو عباس الذى أسرع

---

(١) سبق شرحنا هذه الفتوى .

فضم المويلحى إلى جانبه ، وحارب به عدوه الألد الشيخ محمد عبده [١].

والأستاذ آدمس رأيه الخاص فى المويلحى ، أما نحن فقد رأينا فيه تلميذاً من تلاميذ الإمام ، وسلكناه معه فى عداد المجددين المعتدلين . ولم ننظر فى ذلك إلى الخصومة الشخصية بينهما .

والحق أن المويلحى كان ذا موهبة أدبية ليس إلى إنكارها من سبيل وكان ذا موهبة صحفية لم تساعده طبيعته وأخلاقه على الانتفاع بها على الوجه المطلوب . وعندنا أنه لو كان إبراهيم قد أعنى نفسه أو أعفته ظروفه من حب المال ، وحب العجلة ، وحب الذات لكان لمصر كاتبها الأول ، وصحفيها الأول ، ورائدها الحق .

ومما تقدم نعلم أن المويلحى اشترك فى كتابة الصحف الآتية :

صحيفة الخلافة : أصدرها فى نابولى عندما كان فى صحبة إسماعيل .

وصحيفة الاتحاد : بدأها فى نابولى وأصدر بعض أعدادها فى جهات أخرى من أوربا ، وصحيفة الأنباء ، وصحيفة عين زبيدة ، وقد أصدرهما فى انجلتره واشترك يومئذ فى مجلتى العروة الوثقى وضياء الخافقين بدعوة من السيد جمال الدين الأفغانى . وتلك مجموعة الصحف التى أصدرها الرجل خارج القطر .

أما الصحف التى هيمن على إصدارها داخل البلاد فأهمها جريدة «مصباح الشرق» ، وجريدة هزلية يقال لها «سوق العصر» وجريدة ثالثة هزلية كذلك يقال لها «أبو زيد» وإليه كذلك تنسب جريدة رابعة هى جريدة «المشكاة» التى أصدرها باسمى ولده خليل (بك) المويلحى وصديقه حمدى (بك) يكن ، ولعلها آخر ما أخرجه إبراهيم المويلحى من الصحف ، لأنها عطلت سنة ١٩٠٥ م . ومات المويلحى الكبير نفسه فى السنة التالية .

ألا ما أكثر الصحف التى اشترك فيها إبراهيم ، وما كان أهمها وأشدها تأثيراً فى الجماهير . ولكننا للأسف حين أردنا أن نظفر بكل هذه الصحف

---

(١) راجع الإسلام والتجديد فى مصر — ترجمة الأستاذ عباس محمود العقاد ص ٧٢ نقلا عن كتاب تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا الجزء الأول ص٦٦٨ .

لم يتيسر لنا الظفر بغير أعداد قليلة من صحيفة مصباح الشرق . وبمجموعة كثيرة من مقالات له نشرها فى غير صحفه ، وهى المقالات التى قلنا أنه نشرها فى جريدة المقطم المصرية ، ثم جمع هذه المقالات فيما بعد فى كتاب سماه « ماهنالك » على أنها « لأديب فاضل من المصريين » . وعلى ذلك فنحن مضطرون اضطراراً إلى أن ندرس إبراهيم الصحفى من خلال هذه المقالات القليلة التى أشرنا إليها ، وإن كنا نندى على أنفسنا وعلى الدهر أن نظفر بالصحف الأولى لإبراهيم ، حتى يتسنى لنا معرفة التطور الذى خضع له أسلوبه الصحفى إلى أن بلغ هذه المنزلة التى تمثلها لنا هذه المقالات . ومن يدرى لعل من الباحثين من يحظى يوماً بهذه الصحف التى نفتقدها الآن . ولعله يومئذ أن ينجح فى تصوير هذا التطور الذى كنا نرمى إليه .

إبراهيم المويلحى والشعر :

ليس كثيراً فى الواقع ما عثرنا عليه من شعر هذا الرجل ، ولكنه على قلته يدل بوجه عام على مبلغ رقته ، وغزارة عاطفته ، ورقة حاشيته فى حالات الرضى .

على أن هذا الشعر الذى قرأناه للمويلحى لا يرقى فى مجموعه إلى مرتبة الشعر الذى نقرؤه لبعض المجيدين الممتازين فى عصره من أمثال إسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وغيرهم . ولذلك لانستطيع أن نسلك المويلحى فى عداد الشعراء . ولكنا مطمئنون كل الاطمئنان — كما سنرى — إلى أنه كان ذا موهبة خاصة فى النثر ارتقى بها إلى درجة الزعامة الحقيقية فى هذا الفن .

ومن شعره ماهو رسمى ، ومنه ماهو إخوانى . ومن الأول قصيدته التى مدح بها الملكة فكتوريا ، ونشرتها الأهرام فى صفحتها الأولى بماء الذهب وهى قوله :

فكتوريا مالكة الممالك طاهرة الصفات كالملائك
منصورة الأعلام فى المعارك عدوها وقف على المهالك
ومجدها أدناه فوق النجم

أسطولها فى البحر كالأطواد وهو يمر كالسحاب الغادى
فتصبح الجبال كالوهاد دكا من الأبراق والأرعاد
من سفن مملوءة بالرجم

وجندها فى البر كالأسود وغابهم بنادق الحديد
ونصرهم فى طالع السعود وهمهم حرية العبيد
وقمع جبار شديد الغشم

راياتها مأمن كل خائف فى لجة البحر وفى التنائف
وسيفها يردع كل خائف على اختلاف الناس والطوائف
وحكمها نص القضاء الحتم

إن الغنى فى مشرق ومغرب صورتها الغراء فوق الذهب
مشرقة التاج شروق الكوكب فى مجلس الأعيان أو فى موكب
فرسانه من الملوك الشم

الملك إن عدوه بالانسان فلكها يعد بالبلدان
لأنه لم يجتمع فى آن للفرس واليونان والرومان
والأرض إرث عادل فى الحكم

ستين عاماً حكمت دولتها وشرفت بين الملا أمتها
فأقبلوا ليشكروا نعمتها ويلثموا لعزهم سدتها
من عرب فى ملكها أو عجم

الإنجليز بأسهم شديد وعزمهم ما فوقه مزيد
ورأيهم فى فعلهم سديد وفضلهم على الورى مديد
وهم مثال للنهى والحزم

من كادهم فكيده عقيم وألف شاهد له أقيم
والمخلص الود لهم حكيم ذو دربة بدهره عليم

ينال منهم ما اشتهى بالسلم

قد أصبحت مصر بهم تختال فى ثوب عز قبله أسمال
والناس قد أحيتهم الآمال وكلهم فى رغد أمثال

من بعد ما كانوا عبيد الوهم

ما الكاتب البليغ فى إنشائه والشاعر المفلق فى إطرائه
والأخطب الأفوه فى إلقائه والناقل المكثر فى أنبائه

ببالغين وصفهم فى الحلم

مليكة تهنأ الدنيا بها وأمة منصورة من ربها
موكب عيدها لفخر شعبها منتظم من شرقها لغربها

ووصف علياها ختام النظم

قيل فى الباعث على نظم هذه القصيدة ، إن « عباساً الأول » أمر شاعره ونديمه الشيخ على درويش بنظم قصيدة فى مدح الملكة فكتوريا سنة ١٨٥١ فلما كان عهد عباس الثانى طلب هذا إلى المويلحى أن ينظم قصيدة فى مدح الملكة تكريماً لها فى عيدها الذى احتفل به الانجليز فى شهر يونيو سنة ١٨٩٧ . ورفعت القصيدة إلى جلالتها فى ذلك الوقت .

ويخيل إلينا أن إبراهيم كان يطمع فى ذلك الحين أن يكون شاعر الأمير لو أنه وجد السبيل ممهداً أمامه لمثل ذلك . فإن له ميولا واضحة نحو الملكية . وله دراية دقيقة برجال البلاط ، وله مقدرة خاصة على معاشرة الملوك والسلاطين بوجه عام . وانظر إليه وهو يهنىء الخديو عباساً الثانى بقدومه إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٠٢ مصطنعاً فى ذلك طريقة العصر فى نظم الشعر على حروف الجمل :

وافى الخديوى فحسب النيل أفراحا　　واستبشر الناس لما نجمه لاحا

٦٩٧ ٦٦١ ١٥٠ ١٢١ ٢٩١　　٩٦٩ ١٤٢ ٧١ ٩٨ ٤٠

سنة ١٣٢٠　　سنة ١٣٢٠

وقابلوا عتبات المجد زاهرة　　فكلمتها شفاه القوم إفصاحا

١٤٦ ٨٧٣ ٨٣ ٢١٨　　٥٧٦ ٣٨٦ ١٧٧ ١٨١

سنة ١٣٢٠　　سنة ١٣٢٠

وذهب عنا بيأس كل فارغة　　وعمنا فضله يمنا وإصلاحا

٧٠٨ ١٢١ ٦٥ ٥٠ ٣٧٦　　١٦٧ ٩٤٥ ٤٠١ ١٣٥

سنة ١٣٢٠　　سنة ١٣٢٠

والمجد ينصره والقطر يشكره　　والملك يذكره بالعدل إن ساحا

٨٤ ٥٥٥ ٣٤٦ ٥٣٥　　١٢٧ ٩٣٥ ١٢٥ ٥١ ٧٠

سنة ١٣٢٠　　سنة ١٣٢٠

على أن هذا كله شعر رسمى قلما يفصح فيه الشاعر عن عاطفة صادقة أو شعور حقيق . ولإبراهيم المويلحى شعر من نوع آخر ، هذا هو الشعر الإخوانى الذى يعبر فيه الشاعر عن محبته لأصدقائه وتشوقه إليهم . ومن هذا الأخير قصيدته التى تشوق فيها إلى صديقه الشيخ محمد عبده ، وكان بالشام وإلى صديقه الشيخ بيرم التونسى وكان بتونس ، قال :

سقى الله أرض الشام الحيا　　وأخضل قيعانها والربى

رياض كأن نجوم السماء　　خيال لأزهارها فى السما

وماء على جانبيه الزهور　　كسيف على صفحيته الدما

وأقداح خمر عليها الحباب　　كورد يرف عليه الندى

وساق يميس بكاساته　　كورد على غصنه قد زها

وشمس عليها الغمام الرقيق　　كدينار تبر علاه الصدا

إلى الله أشكو جوى فرقة　　أجدت هموما وهاجت أسى

خليل بلبنان أمسى وخل　　بتونس ألقته أيدى النوى

يشقان قلبي شق النواة فشق لهـذا وشق لذا
فطوراً أهيم بريح الجنوب وطـوراً أهيم بريح الصبـا
حللت أخا الفضل أرض الشآم فحل السناء بها والهنا
وخليت مصر فخليتهـا كمثل مطلقة عن قلى
فللوجـد حر بأحشائها شديد الضرام شديد اللظى
وقد كنت فى مصر ريحانة فحيت بها مصر ذاك الحمى
وغبت فلم تغن عنك رجال كثير العـديد رزين الحجى
كذلك لم تغن زهر النجوم إذا غاب عنهن بدر الدجى

والقصيدة الأخيرة ذات معان وأخيلة جميلة خلا ذلك البيت الذى شبه فيه الماء على جانبيه الزهور بالسيف على صفحتيه الدماء .

وكنا نود لو ظفرنا بطائفة صالحة من مثل هذا الشعر . وإذن لأنصفنا هذا الأديب الكبير فى ميدان النظم كما نجتهد الآن فى إنصافه فى ميدان النثر. ولكن الرجل لم يقم به أحد ولم يجمع آثاره أحد . ومن ثم فنحن معذورون فى الوقوف به إلى هذا الحد .

وفاة المويلحى :

ومات إبراهيم المويلحى سنة ١٩٠٦ على أثر علة انتابته ولازمته سنة كاملة . ويقول جورجى زيدان فى وصف إبراهيم المويلحى :

كان ربع القامة ممتلىء الجسم حسن الملامح ، كما ترى رسمه فى هذه الترجمة وكان حلو الحديث ، لطيف النادرة ، سريع الخاطر حسن الأسلوب، نابغة فى الإنشاء والصحافة، وفى الطبقة الأولى من كتاب السياسة رشاقة ومتانة أسلوب، مع ميل إلى النقد والمداعبة . ولا يخلو نقده من لذع أو قرص لا يراعى فى ذلك صديقاً ولا قريباً ، حتى قيل: لم ينج من قوارص قلمه إلا الذى لم يعرفه.

وتولت جريدة (الصاعقة) لصاحبها أحمد فؤاد رثاء المويلحى بمقالها الافتتاحى فى العدد الذى صدر بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٢٣ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٩٠٦ م وهو مقال طويل جاء فيه :

كان السيد إبراهيم المويلحى رحمة الله عليه أنقى خلق الله قلباً وأصفاهم نية ، وأخفهم روحا ، وأرقهم طبعا ، وأحسنهم حديثاً ، وأطلقهم لسانا ، وأمتنهم حجة . إنه ليحدثك بالحديث فتستعذب الإلقاء، وتستحسن الإيحاء، وينشرح صدرك لبديع بيانه، وفصيح قرآنه وحسن أسلوبه. حتى لكأنه خلق من كل الأرواح ، وقبض بيمينه على أعنة القلوب . ثم قال ومن كالمويلحى طاف الدنيا وصافح الملوك ، وأزعج أصحاب التيجان ، وأثكل المنابر ، وأبكى العروش ، وعاشر الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مداركهم . مزايا عرفت فيه من يوم درج ودب إلى يوم درج فى كفنه . ولولا هالما كان إسماعيل على استبداده بالرأى وإيثارة للضلال على الهدى يستضىء بنور فكره فى منفاه ، ويستعين بعقله على بلواه ، ولا يبرم أمراً دونه، حتى هابه مع ذل المنفى ملوك الأرض وخشى بأسه قياصرتها .. ولولا المويلحى ما كان إسماعيل إلا كمن عهدناهم من برنسات نابولى ، ولولا جريدة الأنباء ماسعى الخليفة سعيه فى استقدامه إلى الآستانة، ولا كان له ما كان من رفعة الشأن وسمو المكان .. ولولاه ما انتصر جمال الدين على رينان ، وما أدرك ماربنان، استغفر الله، بل لو كان فى أجله سعة لصار بفضل الفقيد من المؤمنين . وازداد الاسلام به عزاً على عز . ولولا فضله فى نزع ماتسرب إلى ذهن رينان من الأوهام التى سكنت إليها نفسه ، وتمكنت من رأسه ما استضافه (سالسبورى) نصف حول فى لندن ، على ما نعلمه من تفانى هؤلاء الانجليز فى الشح ، بل لولا قوة تأثيره ماخشيت منه حكومة الجمهورية على بأسها وقوتها فأخرجته من ديارها خوفا من أن يهيىء فى الفرنسويين رجالا منهم يسلخون تونس عنهم . ولو قلنا أن هذا الرجل لايعرف إلا الحق ، لا يخدع كبيراً مهما كثر ما عنده ، ولولا دعابة فيه لكان له فوق ما أعطاه الله من مراتب العلاء لم نبعد عما نعرفه من صفاته ونعهده فى أخلاقه . فقد عادى عبد الحميد وهو بين سمع سلطته وبصرها . وحوله جنده وأعوانه لما رأى منه انحرافا عن زواجر

القرآن ، وحارب الضال الزنديق أبا الهدى الصيادى حين أخذ عليه غشه للخليفة وافتتانه بعبد الغنى الآغا وأشباهه .

وكانت أقصى أمانيه وغاية ماتصبو إليه نفسه أن يرى للإسلام من القوة والمنعة والشوكة ، والصولة والبأس ما يرهب أولئك الذين استلانوا جانبه ، واستهانوا بأهله،ونظروا إليه نظر الضوارى إلى السائمة . وكل مانقل عنه من حكايات الزيغ فى العيقدة ، والغلو فى الكفر ، والميل إلى الأذى ، وحب الشر ، فما يدخل فى باب الحسد من أعداء العلم . ولله حكمة فى هؤلاء العلماء لايدركها عقل الانسان . ومما ينقل عنه أن الدول الأوربية لما اتفقت على جعل المالية المصرية تحت مراقبتها ، وبدأت تكيد لإسماعيل فى ملكه، وأحس منها بذلك ذعر واستدعى عبدالسلام (باشا) المويلحى وكان من أعضاء مجلس النواب ، وتقدم إليه أن يجمع النواب ويقصدون القناصل فى نزل شبرد،ويسردون عليهم ماتؤول إليه حالة مصر من الثورة والفتنة إذا أصرت الدول على رأيها . فكبر على عبد السلام (باشا) جمع النواب على بعد ديارهم وتفرق مساكنهم فقال له إبراهيم (بك) وهو فى حضرة الأمير : اجمع مائة من الفقهاء والتجار واذهب بهم فقل أنهم نواب الأمة وتكلم أنت فقال له إسماعيل :

وأنت تذهب معه كأنك من النواب وتأخذ معك لطيف (باشا) سليم بحلته العسكرية حتى يقيد هؤلاء البهائم بنظام ، وحتى يصرف عنهم ما يختلط بنفوسهم من الرعب ، إلى غير ذلك مما أعان به أصحاب التيجان . ففكهم من الأصفاد ، وأبقى عليهم ملكهم . ومن أمراء مصر من لا يعرف المويلحى أيام أن أشار على إسماعيل أن يهدد القناصل بالبكرى فخافوا من ثورة تسيل فيها الأرواح وتحصد النفوس وعدلوا عما عزموا عليه .

إلى آخر ماجاء بهذا المقال الافتتاحى الطويل الذى كتبه محرر جريدة الصاعقة بهذا الأسلوب الرائع المصفى ، وصدر فيه عن كل هذا الإخلاص الكبير للمويلحى .

الفصل الثانى

المويلحى وجريدة مصباح الشرق

يجمل بنا قبل أن نعرض لهذه الجريدة أن نقدم لها ببعض أقوال الأدباء ممن رأوها وقرأوها وقالوا أنهم أعجبوا بها ، بل تخرجوا عليها فى الأدب والصحافة ، ومن هؤلاء المعجبين بهذه الجريدة الشيخ عبد العزيز البشرى ، وهو أديب قاهرى ممتاز ، كانت له جولات فى الصحافة الأدبية لم نزل — نحن المصريين — نذكرها له بالثناء والتقدير[1] .

قال رحمه الله تعالى فى كتاب (المختار) :

من أكثر من ثلاثين سنة خلت ، ولما أزل بعد فى أيام الفتوة ، وفى صدر طلب العلم فى الأزهر ، صدرت فى مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) فى أربع صفحات ، دون صفحات الجرائد التى تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب إلى الحمرة ، ويقوم بتحريرها إبراهيم (بك) المويلحى ، وابنه السيد محمد المويلحى . وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت فى ذلك العهد من المهانة والفسولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود .

لقد كان هذا « مصباح الشرق » شيئاً طريفاً حقاً . لقد كان أبلغ من طريف ، فإنه لأعجوبة حقاً ، لقد كان هذا مصباح الشرق أبلغ من أعجوبة ، إنه لشىء يكاد يتصل بحكم الخواص فى تلك الأيام !

---

(١) توفى الشيخ عبد العزيز البشرى بالقاهرة فى مارس ١٩٤٢ .
وكان من زعماء المدرسة القديمة فى أدبنا الحديث ، له أسلوب يعرف به ، وقد عرض لتحليله أستاذنا طه حسين فى مقدمة كتاب المختار للبشرى فليرجع إليه من أراد .

بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخير ، وديباجة مشرقة ، وصيغ مؤنقة ، ونسج متلاحم ، وأسلوب ليس وراءه فى هذا الذى يدعونه «السهل الممتنع» أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائعة فى سياسة الأمم وفى الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبتكر المنشأ ، ومنها المترجم من مختلف اللغى ، فى عبارة عربية بليغة ، سلسلة ناصعة واضحة ، لا تستروح منها أى ريح للاستعجام .

وهل رأيت قط ترجمات السابقين فى عصر بنى العباس ؟

مذهب طريف فى النقد — نقد الأشخاص — لا عهد للأدب العربى به من قديم الزمان ، بل لعله لا عهد له به منذ أول الزمان .

لم تكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقة الجرم مرتين أو ثلاثا حتى أصبحت من بعض شغل الخاصة فى هذه البلاد . لا يدخل الأصيل فى يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاغت أبصار ، وتكرمشت جباه ، وتقلصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، وجفت قلوب ، هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ كذلك كان يترقب الخاصة مشرق (المصباح) .

وسرعان ما تخطفه اليد الراجفة فتشقه ، وسرعان ما يشيع البصر كله فى مساحة النقد كلها ، لا يستقر على موضوع خاص ، ولا يتحيز فى حديث معين بل أنه لينساح على الصحيفة كلها ، انسياحا ليدرك قبل رد الطرف أشك المويلحى اسم صاحبه فيمن شك ، أم أرسله فى جملة الطلقاء ؟ حتى إذا اطمأن الرجل إلى أنه قد كتبت له السلامة لحلته ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يطامن من نفسه ، ويبسط من خلقه ما انقبض ، ويفرخ من روعه ما تحبس . وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلحيين فاحكم أنت — عصمنا الله وإياك — كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ! على أنه مما ينبغى أن يذكر هنا أن المصباح لم يكن يعرض قط لأغراض من يتولاهم بالنقد ، ولا يتلمس إلى مكارههم ، أو يتتبع عوراتهم . بل

لا يتناول من أمورهم إلى ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم . فقد كان المصباح أجل من ذلك موضعاً وآنف كرامة . وإنه ليستحدث لوناً طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهد به للأمم العربية جمعاء .

هذا النوع من النقد يقوم فى الجملة على التماس الضعيف من أثر الرجل فيعرضه بالقلم صورة (كاريكاتورية) يزيد فى تشويهها ما يتوافد لذهنه الدقيق من ألوان التشبيه وما يحضره من فنون الاستشهاد والتمثيل ، ولا يبرح يمط الموضوع فى هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القريبة والملابسات الدانية ، تسندها النكتة البارعة ، ويسعفها التندر البديع ، حتى ينتهى إلى ما لا ينتهى إليه أحد من الناقدين .

ولقد كان هذا من (مصباح الشرق) الأصل الثابت لهذا اللون من النقد . أعنى النقد (الكاريكاتورى) فى مصر . كما كانت صحيفة المويلحيين (أبو زيد) أول ما عرف — فيما أعرف أنا — من التصوير الكاريكاتورى فى هذه البلاد .

لم ينته خطب مصباح الشرق إلى هذا الموضع فحسب ، بل لقد كان على أنه صحيفة لا تظهر فى جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ، يروى من جلائل الأخبار فى الأسباب العامة ما لا تنقله الصحف اليومية على شدة انتصارها لمثل ذلك ، وإذكاء عدتها الكثيرة فى طلبه وتقصيه . فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج فى كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار ، نقلا عن صحيفة مصباح الشرق الأسبوعية مضافة إليها معزوة لها . وفضل المصباح فى هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل إبراهيم المويلحى عند أولى الأمر كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجونه عنه لغيره من رواة الأخبار ، ولا أحب أن أجوز هذا الموضع من الكلام قبل أن أقول إن المصباح أول من جلا للناس براعة الجاحظ ، وعبقرية ابن الرومى ، بما كان يختاره لهما من بدائع المنثور ، وروائع

المنظوم ، قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أو ديوان . وأول من عالج النقد الأدبى لما تنضح به قرائح الشعراء ، وأعنى به ذلك النقد الرفيع الغالى الذى جمع بين أساليب النقد فى أذكى عصور العربية ، وبين طرائفه التى اختطها نقدة الغربيين فى هذا الزمان ، وعلى الجملة فلقد فتح المصباح فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى مصباحاً حقاً يهتدى المتأدبون بسناه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام .

وبهذا أصبح مصباح الشرق أخر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد .

ومما ينبغى أن يذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاظمتهم سطوة المصباح فى باب النقد فحسبوا له كل حساب . وياويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والإحسان .

ثم قال البشرى فى أول كلامه عن صديقه وأستاذه محمد (بك) المويلحى ما نصه : « لست أغلو إذا زعمت أننى فى مطلع نشأتى الأدبية كان مصباح الشرق عندى هو المثل الأعلى للبيان العربى . وبهذا كنت شديد الإكباب على قراءته وتقليب الذهن واللسان فى روائع صيغه ، وطرائف عباراته ، حتى لقد كنت أشعر أننى أترشفها ترشفاً لتدور فى أعراقى ، وتخالط دمى ، وتطبع ملكتى على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقد الطريف ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . ولقد كنت فتى مولعاً بالصناعة . شأن أكثر نابغة المتأدبين فى ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحى فى المصباح حديث عيسى بن هشام زادنى وزاد لذاتى به فتونا[1] .

وعما قليل سنعرض لهذا الحديث الذى فتن به البشرى ولداته ، وهو

---

(١) راجع عبد العزيز البشرى : كتاب المختار الجزء الأول ص ٢٢٥ .

« حديث عيسى بن هشام » كمادة من مواد الجريدة التى نصفها الآن ، وهى جريدة مصباح الشرق . وقد خصصت له فصلا من فصول هذا الجزء هو الفصل الرابع .

ولنبدأ الآن بذكر محتويات الجريدة ، وذكر التقسيم الصحفى لها ، وأن الناظر فى عدد من أعدادها يجدها تتألف من أربع صفحات فقط ، بالصفحة الأولى منها نجد عنوان الجريدة (مصباح الشرق) وهى جريدة سياسية إخبارية علمية أدبية .

تصدر يوم الخميس من كل أسبوع مؤقتاً ، أنشئت سنة ١٣١٥ هجرية ، لصاحبها ومحررها إبراهيم المويلحى .

وعن يمين الصفحة الأولى من أعلى نجد قيمة الاشتراك وأجرة الإعلان وعن يسارها من أعلى كذلك نجد تنبيها من صاحب الجريدة للقراء أن تكون المكاتبات باسمه مباشرة ، وتنبيهاً آخر بأن الرسائل لا ترد لأصحابها نشرت أم لم تنشر . ثم تنبيهاً ثالثاً بأن وكيل الجريدة هو « أمين إمام » ، وتحت هذه العنوانات يرى القارىء تاريخ صدور الجريدة بالتقويمين الهجرى والميلادى . وبأقصى الصفحة الأولى من يمين يذكر عدد الجريدة بالرقم ، وبأقصاها من يسار تذكر السنة .

ثم يأتى بعد ذلك المقال الافتتاحى ، وهو مقال كبير فى الغالب يملأ الصفحة الأولى بأكملها ، وقد يطغى على جزء من الصفحة الثانية كذلك بحيث لا يقل عدد الأنهر التى يشغلها هذا المقال عن خمسة أو ستة ، وتلك هى أولى مواد الجريدة .

ثم تأتى بعد ذلك فى الصفحة الثانية مادة أخرى من مواد الجريدة ، موضوعها (أخبار دار الخلافة العلية) ، ولا تكاد تبلغ النهرين ، وفيها يقرأ القارىء أخبار السلطان وحاشيته ، وبعض أخبار الأستانة نفسها .

وكذلك تشتمل الصفحة الثانية من صفحات المصباح على مادة ثالثة

هى مادة « الحوادث الداخلية » . وقد تدخل ضمن هذه المادة أشياء تتصل بها ، من نحو قصيدة فى تهنئة الخديو ، أو قصيدة فى تهنئة أحد الوزراء ، أو قصيدة فى تهنئة رجل كبير كالشيخ محمد عبده بمنصب الإفتاء وهكذا .

يلى ذلك مادة رابعة . ولهذه المادة خطرها من الناحية الأدبية الخالصة وفيها يعرض المحرر على قرائه فنونا مختلفة من فنون الأدب ، فحيناً يعرض لهم شيئاً من الأدب العربى القديم كأدب الجاحظ ونحو ذلك . وحيناً يعرض لهم شيئاً من الأدب المصرى الحديث ، من إنشائه أو من إنشاء ابنه محمد المويلحى ، وحيناً يعرض للقراء — فيما يقول الشيخ عبد العزيز البشرى — صورة كاريكاتورية لبعض الخاصة من المصريين[١] ، وحيناً يقدم للقراء بعض الكتب الحديثة ، ويقوم بتعريفها لهم ، كما فعل ذلك بكتاب « سر تقدم الإنجليز » وهو الكتاب الذى ترجمه أحمد فتحى زغلول من الفرنسية إلى العربية . وكان لتأليف هذا الكتاب ثم لترجمته ضجة كبيرة فى فرنسا وفى مصر . وهذا ما دعا المويلحى إلى الإفاضة فى وصف هذا الكتاب وحض المصريين على اقتنائه وقراءته[٢] .

ثم بالصفحة الثالثة من صفحات هذه الجريدة — أو فيما بقى من هذه الصفحة — يرى القارىء مادة من مواد الجريدة ؛ هى مادة الإعلانات على اختلافها .

وأما الصفحة الرابعة والأخيرة فقد خصصها المحرر للمادة السادسة وهى مادة تلغرافات الأسبوع .

---

(١) راجعنا نحن تسعة وتسعين عدداً من أعداد الجريدة صدرت فى السنتين الأولين من حياتها ، ولم نعثر على هذا اللون الأدبى الذى يتحدث عنه الشيخ عبد العزيز البشرى . فلعل ذلك كان فى السنوات الأخيرة من حياة هذه الجريدة . وهى السنوات التى لم نعثر على عدد من أعدادها بعد .

(٢) راجع مصباح الشرق العدد ٦٥ من السنة الثانية بتاريخ ٢٢ يونية سنة ١٨٩٩ .

هذا ويجب أن يعرف القارىء أن هذا النظام الذى وضعناه ، أو هذا المنهاج الذى قلنا إن (المصباح) قد صار عليه لم يتم للجريده دفعة واحدة ، بل مضت مدة كافية حتى استقرت الجريدة على هذا الوضع[١] . وآية ذلك أننا قد اطلعنا على الأعداد الأولى من هذه الجريدة فوجدناها خالية أو كالخالية من تلك المواد الأدبية السابقة ، إذ ليس بها من الأبواب غالباً غير ما يأتى :

(١) المقال الافتتاحى .

(٢) مقال صغير فى الباب العالى .

(٣) مقال صغير عن سياسة الإنجليز .

(٤) حوادث داخلية .

(٥) أخبار السودان .

(٦) تلغرافات آخر ساعة .

(٧) تلغرافات الأسبوع .

وقد جرت العادة أن يفصح المحرر عن أغراض الجريدة فى عددها الأول ولكن المويلحى لم يفعل شيئا من ذلك وجاء هذا العدد الأول وبه المقال الافتتاحى وعنوانه هكذا :

---

(١) ليس فى دار الكتب المصرية غير الأعداد التى ظهرت من هذه الجريدة فى خلال السنتين الأوليين فقط . وقد ظهر العدد الأول منها بتاريخ (١٤ من أبريل سنة ١٨٩٨) وتولى ظهور أعداد الصحيفة أسبوعيا بانتظام بعد ذلك حتى أتمت الجريدة السنة الأولى من صدورها وكان العدد الواحد والخمسون ختاما لهذه السنة ، وذلك بتاريخ (١٣ من أبريل سنة ١٨٩٩ ميلادية) .

ثم بدأت السنة الثانية للجريدة فظهر العدد الثانى والخمسون بتاريخ (٢٧ من أبريل سنة ١٨٩٩) واستمر صدورها بعد ذلك أسبوعيا إلى العدد الذى ظهر بتاريخ (٦ من أبريل سنة ١٩٠٠) وهو العدد السابع والأربعون من أعداد المصباح فى هذه السنة الثانية

وبذلك أتمت هذه الجريدة فى أثناء السنتين الأوليين من حياتها إصدار تسعة وتسعين عدداً من أعدادها كاملة ، هى الأعداد التى تسنى لنا الاطلاع عليها ، ومنها استقينا كل معلوماتنا عن الجريدة ، وعلى أساسها تكونت لنا هذه الفكرة التى نعرضها للقراء .

بسم الله الرحمن الرحيم

وإن أحسن شيء أنت قائله قول يقال إذا ما قلته صدقا (١)

ثم قال :

اللهم حبب إلينا الصدق فى القول والعمل ، ولا تجعلنا من المفتونين بآرائنا ، واعصمنا من الخور ، فلا نضيع على الناس أعز ما لديهم : مالهم ووقتهم : فى قراءة اللغو ، واحفظنا أن تمد أعيننا إلى ما فى أيدى الناس ، لنسلبه فيهم بالمفتريات المنمقة ، والأباطيل الملفقة ، وتفخيم الألقاب ، والإسهاب فى المديح والإطناب ، ونجنا من القدح بعد المدح ، والمدح بعد القدح ، ابتغاء وجه الدرهم والدينار ، واحقن ماء وجوهنا من تلك السماجة ، سماجة إعادة الجريدة مراراً لمن يرفضها ويردها ، وطهر صناعة التحرير من أدرانها ، فقد انحط قدرها فى أعين العقلاء ... واشترك فى الآية الكريمة قراء الجرائد وأصحابها ، إلا من عصم الله ، فالقراء «سماعون للكذب» وأصحاب الجرائد «أكالون للسحت» وقد دخل فى زمرة المحررين أميون لا يقرأون الكتاب ، وأصبحت الجرائد المنتشرة فى مصر — إلا ذوات الشأن منها — كالجراد المنتشر . ولا غرو — فالجراد يأكل المزروعات ، والجرائد تأكل ثمراتها ، هذا وإن الدهر كالبليغ ، يؤدى المعنى الواحد من حوادثه بعبارات مختلفة! .

ثم طفق المحرر يسوق أمثلة من الواقع على شره أصحاب الصحف ، وتحايلهم فى ابتزاز المال من أصحاب الجاه والسلطان بحجة فى يده رسالة كلها مطاعن فى أحدهم ، وأنه قد جعل له مبلغ من المال على نشر هذه الرسالة فى الجريدة ، ومن ثم يأخذ الرجل ذو الجاه فى التفكير حتى يحتقن مخه ، وتنتقل المسألة عنده إلى طور جدى ، ثم ينفح صاحب الجريدة مبلغاً من

---

(١) وهو تحريف البيت المشهور :

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

المال ، او على تعبير المويلحى يعطيه «جائزة غيرجائزة» ، فيأخذها الصحفى ، ويترك صاحبه في شك من جميع أصحابه وأصدقائه .

وفى النصف الثانى من هذا المقال يناشد الكاتب المحتلين فى مصر أن يسنوا قانوناً للمطبوعات ، ويحرمون فيه على الصحف نشر الأكاذيب التى من هذا النوع . ثم يرد الكاتب على نفسه فى هذه المسألة قائلا :

« ولكن المحتلين يتعللون بكل تعلة ولا يعقلون ، وإن شتمهم أصحاب الجرائد وسبوهم ، لأنهم يتحملون مضاضة القول لفائدة العمل ، وهم يقتفون آثار السياسة الرومانية خطوة خطوة فى مستعمراتهم . فلا يتعرضون للناس فى دياناتهم وعاداتهم البتة . ولكنهم لا يريدون أن يكون بينهم ذو مال جسيم أو جاه عظيم الخ » .

ثم ساق الكاتب شاهداً على ذلك من التاريخ الرومانى ، وخلاصته أن القيصر الرومانى (تراجان) فتح مملكة وجعل عليها والياً ، فعجز ذلك الوالى عن ضبط أمورها لوجود الكثير من العظماء والوجهاء وأصحاب الكلمة النافذة فى هذه المملكة . « فأرسل للقيصر رسولا يسأله عن رأيه فيهم ، فجاء الرسول إلى قيصر ، وهو فى بستانه بجانب شجرة يقص بآلة فى يده فروعها العالية ، ليساويها بفروعها الدانية . فقص عليه ما بعث لأجله ، ووقف ينتظر الجواب . فقال له الإمبراطور : اذهب فقد أعطيتك الجواب بما أفعل ! »

قال المويلحى « أما استئصال المال فمناجله كثيرة . ويكفى له الأزبكية برقصها وقمارها . وخمرها وخمارها ... قال لى أحد الأدباء « أن فى مصر خمسة ملايين من الأفدنة يأكلها فدان واحد ، وهو محلات الخمر والميسر وغيرهما بالأزبكية ، فإنه لا يتردد عليها أحد إلا أصيب أخيراً بامتلاء رأسه من الهم ، وفراغ كيسه من الدرهم . وإنك لترى الذين يستحي منهم بالنهار يستحيون منك بالليل فيها » .

تلك هى الكلمة التى افتتح بها المويلحى عدده الأول من أعداد جريدته وهى كلمة خالية من المنهج أو الخطة أو الطريقة أو الهدف ونحو ذلك ، وإنك لترى المويلحى وقد نهج فيها منهج الجاحظ فى الكتابة . بدأها بالدعاء لنفسه على طريقة جاحظية ، واستطرد فيها من قول إلى قول ، ومن فكرة إلى فكرة بطريقة جاحظية . ورشحها بالحكايات والنوادر بطريقة جاحظية . وأكبر الظن أنه أفلح يومئذ فى تقديم جريدته إلى القراء فرأينا أفئدة منهم تهوى إليها .

وقد فرغنا من عرض المقال الافتتاحى الأول لجريدة المصباح ، كما فرغنا من وصف النظام الصحفى لهذه الجريدة ، ولم يبق لنا إلا أن نأخذ فى نقدها من الناحية التى تعنينا فى هذا البحث ، وهى ناحية الأسلوب .

وثم ملاحظات عامة يجمل البدء بها ثم الانتقال منها إلى الملاحظات الخاصة ، فمن العامة :

أولا : أن الصيغة الأدبية هى الغالبة على هذه الصحيفة ، لأنها تشغل من حيزها فراغا أكثر من الفراغ الذى تشغله الأخبار والتلغرافات والاعلانات فى وقت معاً .

ثانياً : طغيان الطريقة الأدبية فى الأداء على الطريقة الصحفية ، ونرى مصداق ذلك فى عناية المويلحى بكتابة العنوانات فى مادة الحوادث الداخلية على صورة حكمة أو مثل أو بيت من أشعار العرب ، أو بيت شعر من نظم المحرر ، وهكذا .

فمرة ترى الحوادث الداخلية خبراً عنوانه :

طوى الدهر منذ اليوم ذكرى فشودة ولم يبق منها عندهم غير بارها[1]

---

(١) هو بيت من نظم المحرر الذى قال تحت هذا العنوان : لما كان كثير من الحوادث التى تقع فى مصر لا يكاد يمضى عليه بعض الزمن إلا وينطوى فى سجل النسيان رأى أحد أرباب الحانات من الأجانب أن يبقى لمسألة فشودة ذكرا حسنا ، ويخلد لها أثرا جميلا ، ففتح (حانة) أطلق عليها أسم (بار فشودة) . وهذا كل ما بقى من آثار هذه المسألة .. الخ

وفى ذلك من روح التهكم البادية فى كلام المويلحى ما فيه . راجـــع العدد المتقدم ذكره .

ومرة نجد خبراً من الأخبار الداخلية بعنوان :

يادار غيرك البلى ومحاك   ياليت شعرى ما الذى أبلاك ؟

وكان موضوع الخبر انتقاد وزارة الداخلية فى خلوها من الموظفين فى أثناء الصيف[1] .

ومرة ثالثة نجد العنوان :

« ومن الخفير أتاهموا الإخفار »

ومرة رابعة نجد العنوان :

« رب ضارة نافعة »

وفى مرة خامسة نجد العنوان :

إذا فعل الفتى ما عنه ينهى   فمن جهتين لا جهة أساءا ... الخ

ثالثاً : ميل المويلحى ميلا ظاهراً إلى السخرية والتهكم واعتماده اعتماداً كبيراً عليهما فى هذه الجريدة . على أن هذه السخرية غالباً ما تكون جادة فى المقال الافتتاحى أو ما يقوم مقامه ، هازلة أو ضاحكة فى باب الحوادث الداخلية أو ما يقوم مقامه ، وهكذا نجد أنفسنا دائماً أمام صحفى هو إلى الأدب أقرب منه إلى الصحافة .

ومن ثم كان إقبال الناشئة المصرية على هذه الصحيفة عظيما ، كما حدثنا بذلك الشيخ عبد العزيز البشرى .

* * *

أما أهداف « مصباح الشرق » فلم يشر إليها المويلحى فى العدد الأول من أعدادها كما رأينا . ولكن المطلع على ما بقى من أعداد هذه الجريدة يستعرض عنوانات المقالات الافتتاحية على عجل ، فيستطيع أن يعرف أن لصاحبها أهدافاً عامة ، تدل جميعها على أن المويلحى كان من كبار المجددين المعتدلين فى مصر . وتتلخص هذه الأهداف العامة فيما يلى :

---

(١) راجع العدد ٦٦ من السنة الثانية .

أولا: الهدف السياسى العام — ونعنى به الدعوة لما كان يسمى يومئذ باسم « الجامعة الاسلامية » وإليها كان يدعو زعماء المصريين وقادتهم فى ذلك الوقت وكانوا يرون فى ذلك عزة الاسلام والمسلمين، وعظم شأنهم فى أعين الدول الأوروبية التى لاريب أنها تخشى ذلك النوع من التكتل الاسلامى العظيم تحت راية واحدة ، هى راية الدولة العثمانية .

من أجل هذا كتب المويلحى مقالات كثيرة بعنوانات مختلفة ، وكان ينحل بعض هذه المقالات (عظيما من عظماء الاسلام فى الشرق) . ولكن أسلوب المويلحى فيها لم يكن يخفى على أحد .

وفى هذه المقالات كان المويلحى يريد أن يقنع الرأى الاسلامى العام بشىء واحد فقط ، هو « العزة والقوة » . وكان لا يعنى بالعزة هنا عزة العلم والمعرفة ، ولا بالقوة هنا قوة النار والحديد . وانظر إليه حيث يقول :

« . . . فهذا هو القوة للدين ، هذا هو الاصلاح للدولة والذود عن حوض المسلمين ، لا مايضيعون به الوقت سدى من الأخذ والرد ، والمناقشة والجدل فى بيان الإصلاح ، وحفظ الجامعة الاسلامية من إيراد الآراء فى كيفية عقد المؤتمرات ، وذكر العلم والتعليم ، والكلام فى نشر المدارس والمعارف ، والأخذ بأذيال الغربيين فى مدنيتهم وأشكال حكومتهم ، وتراكيب جمعياتهم ، اللهم إن كل هذه الأقوال دون الأفعال إن دمنا عليها لتوصلنا إلى ما كان عليه حال القسطنطينية حين دخول الفاتح إليها ، كان العلماء من أهلها لاهين فى مجلسهم بالمناقشة والجدل فيما لا نفع فيه ولا فائدة منه ، ورمح الفاتح يقرع الباب »[١] .

وفى العدد الثالث والتسعين من السنة الثانية تحت عنوان ، مدنية قرن :

---

(١) راجع مصباح الشرق : العدد ٩٥ من السنة الثانية — بعنوان :الوطن فى الاسلام

قال المويلحى : « فقد تبين من جميع ما تقدم أن سلامة المسلمين ، وحفظ دولتهم الآن فى قوة السلاح ، لا فى انتشار المعارف الغربية ، وحرية الجرائد واقتفاء آثار الغربيين فى مدينتهم الخ ، كأن هذه الموضوعات كانت كل ما يشغل بال الرأى العام إذ ذاك .

وفى سبيل « الجامعة الاسلامية » كان المويلحى يدعو كذلك إلى الاكتتاب العام لجميع الأموال اللازمة لتدعيم هذه الفكرة ، وسنرى أنه لم يكتف بالمقالات العامة التى كتبها فى الدعوة لهذا الاكتتاب ، حتى أخذ يجعل ذلك غرضاً من أغراض القصة التى بدأ يكتبها وينشرها كذلك على صفحات جريدته « مصباح الشرق » ؛ وهى القصة التى عنوانها « حديث موسى بن عصام ، كما سنرى بعد .

ثانياً : الهدف السياسى الخاص — وهو الدفاع الحار عن مصر والسودان ضد الاحتلال الانجليزى ، ثم دعوة المصريين إلى الاتحاد والتوفيق التام بين عنصرى الأمة : المسلمين والأقباط ، حتى لا يحدث المصريون فى صفوفهم ثغرة ينفذ منها العدو . وهنا لا يكتفى المويلحى كذلك بكتابة المقالات حتى يجعل هذه الدعوة غرضاً من أغراضه فى تلك القصة التى نشير إليها ، وهى « حديث موسى بن عصام » التى سيأتى الكلام عنها .

وما رأيت المويلحى قد ارتفع فى أسلوبه قدر ارتفاعه فى المقال الذى كتبه بالعدد السادس والخمسين من السنة الثانية من حياة المصباح . وقد جعل عنوانه المقال ببيتين من الشعر يظهر أنهما من نظمه ، وهما قوله :

رأينا من الإصلاح فى مصر نوعه وسوف نرى سودانها مثل ما نرى
فما هبطت حمر الثياب ببلدة وكان لدود الأرض قوت من الثرى

ولا شك أنه يكنى هنا عن الانجليز بكلمة « حمر الثياب » وفى هذه المقالة كان المويلحى منفعلا أشد الانفعال ، وليس أدل على ذلك — فيما نرى —

من إيراد كلامه فى هذا المقال إيراداً موسيقياً دقيقاً ؛ حتى ليخيل إلى القارىء أنه يقرأ شعراً لا نثراً ؛ وعندى أن ذلك لا يتيسر للكاتب إلا فى أوقات انفعاله واشتغال وجدانه .

ثالثها : الهدف الدينى — وكان المويلحى يهدف فى بعض مقالاته إلى الإصلاح الدينى على النحو الذى دعا إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . وكان المويلحى يوجه الحديث فى هذه المقالات إلى رجال الأزهر ، غير أنه كان يسلك معهم سبيل السخرية والتهكم ، بخلاف الأستاذ الإمام فقد سلك معهم سبيل الجد والصراحة ، وهما صفتان من صفاته وطبيعتان من طبائعه .

والفرق بين المويلحى ومحمد عبده فى ذلك أن أولهما أديب والثانى زعيم ، ومن ثم كانت السخرية والبلاغة فى الأداء بعض وسائل الأول ، وكان الجد والعلم والاشتغال بتفسير القرآن والحديث ، والدعوة الصريحة إلى الجد فى الإصلاح وسائل الثانى ، وهكذا لا نتصور أحدهما حين يكتب إلا باسما ، ولا نتصور الآخر حين يكتب إلا عابساً ، وكان المويلحى لا يرى صلاح الدين إلا بالرجوع إلى أصله الأول الذى كان عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

فننزع منه تلك البدع ومحدثات الأمور ، إذ الدين على ما نراه مشحون بما ليس منه ، مما يضحك ويبكى ، من الأقوال المضللة ، والمسائل الخلافية ، والأحاديث الموضوعة ، والأساطير الملفقة ، ومثل من يعلم علوم الدين قبل خلوها من هذه الشوائب كمثل الرجل الذى لقن ابنه ستين ألف حديث . وبعد أن أضاع الغلام الزمن فى حفظها عن ظهر قلبه قال له أبوه :

اعلم أن ما حفظته الآن من الأحاديث كله موضوع ، ولم ألقنك إياه إلا لتعلم أن ما عداه هو الصحيح[1] !.

---

(١) انظر مصباح الشرق — العدد ٧٣ — من السنة الثانية — بعنوان رسالة ثالثة طلعت علينا من أفق الشرق لعظيم من عظماء الاسلام .

وكان المويلحى كذلك يدعو بدعوة الشيخ محمد عبده فى وجوب تعليم رجال الأزهر ، ووصلهم ببعض العلوم الحديثة ، ووصلهم كذلك بأمهات كتب الأدب ؛ وهى: الكامل للمبرد ، ونقد الشعر لقدامة ، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ، والعقد الفريد لابن عبد ربه . كتب المويلحى يقول :

« وأطال أحدهم وهو حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده — فى بيان الفائدة على الأزهر وطلاب علوم الدين من تدريس هذه الكتب التى هى أركان العلوم الأدبية ، فرد عليه من يزعم أن مدارستها تعطل من مدارسة العلوم الدينية (على أن الدين لا يفهم إلا بها) حتى انتهى بهم الجدل إلى موافقة أربعة منهم على وجوب تدريس تلك الكتب . ولكن الأغلبية قررت أن ممارسة هذه الكتب والارتياض عليها أمر غير واجب، ومستحسن غير لازم، لا يوجبه العلماء على الطلاب فى التدريس ، ولا يأخذونهم به ، ولا يحملونهم عليه ؛ ولكنهم يبيحون للطالب أن يحصل ذلك بنفسه إن أراد »[1] .

رابعها : الهدف الاجتماعى — وهو ما حدا بالمويلحى إلى النظر فى إصلاح المجتمع الشرقى عامة ، والمجتمع المصرى خاصة. وقد دعاه ذلك إلى النظر بعين الاستخفاف الممزوج بالإشفاق إلى العادات القبيحة فى الشرق ، والعادات القبيحة فى مصر ، والأخلاق الضعيفة هنا والأخلاق القوية هناك . ومن أجل هذا كتب المويلحى مقالات بعنوان (الشرق والغرب) ، وأخرى بعنوان (الشرق وحده) وثالثة بعنوان (مصر وحدها) .

وكان المويلحى فى جميع ما كتب فى هذه الناحية شديد الاعتزاز بمصريته وعثمانيته وشرقيته ، شديد السخط فى الوقت نفسه على المدنية الغربية . قوى التحذير لقومه بألا يغتروا ببهرج الحضارة الأوروبية وهو من هذه

(١) راجع (مصباح الشرق) — العدد ٧٩ — من السنة الثانية — بعنوان مستحسن غير لازم .

الناحية يعتبر تلميذاً مخلصاً للنديم. والنديم — كما نعلم — هو أول من حارب التفرنج وسخر منه وندد به . واقرأ عبارة المويلحى إذ يقول :

« والمدنية الغربية ليست على شيء من الفضل والكمال ، ولا تقوم — كما يزعمون — على دعامة الأخلاق الفاضلة وما تشمله من العدل ، والانصاف ، والإخاء ، والمساواة ، والرحمة ، والشفقة ، والمحبة الإنسانية والحرية العامة ، وإن جل ما فيها ، بل كل تزويق ، وتنميق ، وتضليل وتمويه ، وزخرف ، وبطلان . يختفى فى طياتها ما ركب فى طباع الإنسان من النقائص التى ينطوى تحتها الظلم ، والجور ، والعداء ، والأثرة ، والقسوة ، والطمع ، والنهم . بل إن تلك المدنية تزيدها حدة ، وتكسبها نمواً ، وتبلغ بها أقصى معانيها ، فتعممها من الأفراد إلى الجمعيات ؛ حتى تصبح لا أثر فيها للشعور الشريف ، والاحساس الطاهر ، والعواطف الكريمة الخ »[1] .

تلك هى أهداف «المصباح» الأربعة . وأستطيع أن أضيف إليها هدفاً خامساً : هو الهدف الأدبى — ومن أجله أخذت المواد الأدبية تشيع شيئاً فشيئاً فى هذه الجريدة ، حتى جاء وقت وجدنا فيه الغلبة لهذه المواد الأدبية على غيرها من المواد الأخرى بل من أجل هذا الهدف توخى المحرر الإجادة فى أسلوبه الصحفى قدر استطاعته ، حتى أصبحنا لا نكاد نلمس فى جريدته الفرق واضحاً بين الأسلوبين الأدبى والصحفى ، بل رأينا كتابة المويلحى وقد أصبحت نموذجاً يحتذى ، وطريقة تتبع ، وأثر يقتفى ، كما أصبح لهذا الأسلوب الجديد ضجة كبيرة فى الأوساط المثقفة، وسلطان كبير على النابتة .

---

(١) راجع مصباح الشرق ، العدد ٧٦ من السنة الثانية تحت عنوان (مثال لبرهان) والعدد ٩٨ من المصباح مقالا عنوانه (فظائع الحضارة) .

الفصل الثالث

نموذج من المقال

فى جريدة مصباح الشرق

كتب المويلحى بالعدد (٣٠) من السنة الأولى بتاريخ الخميس ٢٥ جمادى الثانى سنة ١٣١٦ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩٨ مقالا افتتاحياً هذا نصه :

أيها العلماء

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

الدعوة إلى الدين وبعث البعوث لها من أطراف الأرض إلى أطرافها أمر واجب فى الدين الإسلامى ، فإنه لم ينتشر من بطاح مكة إلى حيطان الصين . إلى أقاصى الغرب ، إلى مجاهل الجنوب ، إلى جزائر المحيط إلا بهذه الدعوة محمولة فى صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار فى زمن كان السفر فيه قطعة من العذاب ، فلم يمنعهم هذا العذاب من الوصول إلى حدود الهند وغيرها خطوة خطوة ، يصيبهم الظمأ وتهلكهم المخمصة ، وينهكهم النصب وتنبرى تحتهم أبدان الإبل ، وتغور أعين المطايا . قاموا بهذا إمتثالا لأمر الله بالجهاد فى سبيل الله . والجهاد ليس السيف وحده . والسيف القاضب مخراق لاعب إذا لم تمض الدعوة حده ، وجهاد الغى والغواية ، والجهل والجهالة ، والهوى والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد فى الله . قال الله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده » .

قال المحققون من المفسرين فى تفسير هذه الآية الشريفة : هو أمر بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى ؛ وهو الجهاد الأكبر . وعن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

هذه كانت سيرة السلف رضى الله عنهم ، وهذا كان ديدنهم ، وهذا كان عملهم فى نشر الدين الاسلامى ، وإنارة القلوب بنوره ، وهداية النفوس بهديه ، وتطهير الصدور من أدران الضلالة ، وأوضار الخرافة بالأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة . ولكن من نكد الدنيا أن خلف من بعضهم خلف انقطعوا عن العمل ، وقعدوا عن الواجب ، وركنوا إلى الراحة ، ووقفوا عند التفاخر والتشامخ بأعمال غيرهم ، حتى اضمحل ذلك التفاخر على طول الزمن بانقطاع العمل . والعمل بنيان إذا لم يسنده عمل آخر تهدم وانتقض قال سيد من آل بيت النبوة رضى الله عنه :

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونعمل مثل ما عملوا

وكفى بهذا البيت شاهداً على وجوب استمرار العمل بعد ذلك البناء الذى شاده جدهم صلى الله عليه وسلم .

وما زلنا على هذا التقاعد والتقاعس ، والتكاسل والتخاذل ، حتى ضاعت الفرص ، وانسدت وجوه المساعى ، وأنست النفوس بهذا الخمول ، وألفت القلوب هذا القعود ، وأصبح المسلم لا يستطيع أن يطالب المسلم بتوسيع دائرة الاسلام كما يدعو إليه الواجب الأول ، بل غاية ما يستطيع أن يطالبه به هو أن يعمل على حفظ ما وصلت إليه تلك الدائرة ، فيسعى المسلمون ، وعلماء المسلمين فى إحياء السنة ، وإماتة البدعة ، ونفى الضلالة ومحو الخرافات . وقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا ظهرت البدعة فعلى العالم أن يظهر علمه ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله .

لا أريد أن أمضى فى هذا المقال قبل التعليق على القدر الذى نقلناه منه الآن ، كيما نريح القارىء فى الفينة بعد الفينة ، ونسوق الملاحظات التى نلاحظها طائفة بعد أخرى .

وأول ما نلاحظه هنا عنوان المقال ، فلم يكتف المويلحى بأن يكون

هذا العنوان (أيها العلماء) حتى وضع للمقال عنوناً آخر ، هو آية من آيات القرآن ، وتلك طريقة يختص بهـا المويلحى الذى رأيناه شديد العناية بالعناوين الأدبية الجذابة بقدر المستطاع .

وإذا عرف القارىء أن موضوع المقـال هو دعوة الأزهر الشريف فى مصر ، ودعوة الحكومة المصرية معه إلى عمل إيجابى فى السودان ، يقابل الأعمال الإيجابية الكثيرة التي يقوم بها الانجليز هناك . وهذا العمل الذى يدعو إليه الأزهر والحكومة فى السودان إنما هو العناية بنشر الدين الإسلامى فى تلك البلاد بعد إذ فشا فيها الجهل ، وانتشرت فيها الخرافات .

أقول عرف القارىء أن الموضوع الرئيسى للمقال هو هذه الدعوة التى وجهها الكاتب للعلماء ، وعرف أن هذا الكلام الذى قرأه حتى الآن لم يعد أن يكون مقدمة لموضوع هذه الدعوة لا أكثر ولا أقل ، وللمويلحى فى حقيقة الحال غرام شـــديد بالمقدمات ، وله ميل عظيم نحو الإطالة فيها ما استطاع إليها سبيلا . ويرى القارىء مصداق ذلك فى جميع المقالات الافتتاحية التى كتبها فى جريدته مصباح الشرق .

أما الأسلوب الذى صبغت فيه هذه المقدمة فيستطيع القارىء أن يلمس فيه طائفة من الخصائص الفنية ومنها .

أولا : حرص الكاتب على جزالة الألفاظ ، كما فى قوله يصف جهاد السلف فى سبيل نشر الدعوة « محمولة فى صدور رجال تجشموا متـاعب الأسفار فى زمن كان السفر فيه قطعة من العذاب ... يصيبهم الظمأ وتهلكهم المخمصة ، وينهكهم النصب ، وتنبرى تحتهم أبدان الإبل ، وتغور أعين المطايا ... الخ » .

ثانياً : حرص الكاتب كذلك على التوقيع الموسيقى للعبارة حرصاً يصل إلى حد السجع فى أوقات قليلة ، وإلى الازدواج فى أكثر الأوقات كما فى قوله :

« قاموا بهذا امتثالا لأمر الله بالجهاد فى سبيل الله ، والجهاد ليس السيف وحده ، والسيف القاضب مخراق لاعب إذا لم تمض الدعوة حده » .

ثالثاً : حرص الكاتب أيضاً على التوسع فى التعبير أو الإسهاب فى الأسلوب ، أو بعبارة أخرى التبذير فى استخدام المترادف طمعاً فى تثبيت المعنى فى ذهن السامع ، وتمشياً مع طبيعة المويلحى التى هى أدنى إلى السرف كما أشرنا وسنشير إلى ذلك . وانظر إلى قوله :

« وجهاد الغى والغواية ، والجهل والجهالة ، والهوى والضلالة ، بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد فى الله » . وفى العبارة السابقة — فضلا عن الاسهاب — نوع من الجناس بالاشتقاق بين الغى والغواية وبين الجهل والجهالة لا يخفى على القارىء .

رابعاً : ميل الكاتب إلى الاستشهاد بالقرآن مشفوعا ذلك بتفسير الآية التى استشهد بها . ولا تقل إن موضوع المقال هو الدعوة إلى الجهاد ، فكان على الكاتب أن يستشهد بالقرآن ، فالحقيقة أن المويلحى من أشد الكتاب فى عصره حباً فى الاستشهاد ، وأكثرهم حرصاً على أن يشفع ذلك بالتفسير الذى يرجع فيه إلى أئمة هذا العلم .

وهذا ما فعله الكاتب أيضاً بالحديث النبوى . أعنى أنه كان حريصاً على الإتيان به ، وعلى الخوض فى شرحه والتعليق عليه .

تكفى هذه الملاحظات لكى نعود إلى المقال من حيث تركناه قال :

« وهذا السودان فقد توالت عليه الفتن ، وقام فيه (محمد أحمد)[1] بدعوى كاذبة ألبسها لباس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليجذب القلوب إليه . فظهر لنا الآن مما كان ينشره على قومه أنه كان يسعى فيهم لإحياء السنة ، وإماتة البدعة ، وهو — وإن كان أخطأ فى دعواه ، فانه

(١) هو محمد أحمد المهدى المعروف فى التاريخ .

أصاب فى مسعاه ، وقد عثرنا على كثير من هـذا القبيل فى الأوراق التى كان ينشرها ؛ ومنهـا الرسالة التى أثبتناها له فى آداب الصـوم . ولـكـنه ما كاد يؤلف القلوب على هذا الطريق حتى قضى نحبه ، وخلفه طاغ ، باغ ، أفاك ، سفاك ، عامى . أى عريق فى الجهالة والضلالة ؛ ذلك (عبد الله التعـايشى) فكان أول ما بدأ منه أنه هدم ما بنى محمد أحمد . فدفعه جهله وعداوته للعلم أن أمر بإلقاء جميع ما فى أيدى الناس من الكتب فى النيـــل إلى أفـواه التماسيح ، وحرم أهل السودان قاطبة من الوقوف على واجباتهم الدينية ، والرجوع إليها فى كتاب ، ونفى أصحاب محمد أحمد الذين كانوا يرشدون بإرشاده جملة إلى (فشودة) ، فمكث السودانيون على الجهل سنين تراكمت عليهم الضلالات ، وتمكنت منهم الخرافات ، وتأصلت فيهم البدع ، ولم يبق فيهم من يأمرهم بمعروف ، وينهاهم عن منكر .

أما الآن وقد فتحت أبواب السودان ، وظهرت هذه الأمة السودانيـة الإسلاميـة بمظهر الافتقـار إلى تجـــديد السنة ، وتبـديد تلك الخرافات بمرشدين يرشدونهـا إلى هـداها ، ويخلصونها من هراها ، فـكان ينبغى أن أول ما نسمعه عقب الفتح أن مجلس العلمـاء فى إدارة الأزهر الذى يجتمع لغير شىء ، قد اجتمع مراراً فى اليوم الواحد لانتخاب جماعة من طلبـــة العلم ، يرسلهم إلى السودان ، ليرشدوا الناس إلى دينهم قبل أن تلتبس عليهم الوجوه ، ويتخبطهم ما يتخبطهم بعـد الفتح ، لا أن نسمع أن (السردار) يدعو قومـــه إلى اكتتاب يفتح به مدرسة إنجليزية فى السودان إحيـــاء لذكرى (غوردون باشا) الذى كان رئيساً عند الإنجليز فى الدين ، لما كان لديهم فى السياسة رئيساً ، ولا أن نسمع الأخـــرى ؛ وهى أن حضرة البابا أمر بعد فتح السودان بإرسال رسل من المبشرين اليسوعيين ، وعيّن للسودان وأفريقيا رئيساً لنشر الدين المسيحى . هـذا وأهـل الأزهر يتثاءبون ويتناومون تحت ظلال مجلس إدارتهم ، لا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ، ولا سعادة الدار الواحدة . فهم يفضلون البقاء على أكل

الخبز البحت ، فإن كان ثم إدام فالفجل ، والجبن ، وقشور الفوا كه . وقد رضوا من الدنيا بالنزول إلى ما لا يقدر الدهر أن يسلبه منهم ، فإنه لا يقدر أن يسلب الخبز من أحد فى مصر . ومن رضى لنفسه هذه القناعةهانت عليه الأعمال العظيمة ، وقويت نفسه على تحمل المشاق فى سبيل الأعمال الصالحة التى يدخرها ليوم الحساب . وهم أجلّ من رضوا بالزهدين : الزهد فى الدنيا والزهد فى الآخرة . « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذ رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

قال الفخر الرازى فى تفسير هذه الآية الكريمة : دلت الآية على أنه يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم ، والصراط المستقيم ، لأن الآية تدل على أنه تعالى أمرهم بالتفقه فى الدين ، لأجل أنهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدين الحق ، وأولئك يحذرون الجهل والمعصية ، ويرغبون فى قبول الدين . فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم ، والصراط المستقيم . ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين كان من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

وقال الإمام الزمخشرى فى تفسير هذه الآية بعينها (فلولا نفر) : فحين لم يكن نفير الكافة ، ولم تكن مصلحة فهلا نفر (من كل فرقة) أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير . (ليتفقهوا فى الدين) ليتكلفوا الفقاهة فيه ، ويتجشموا المشاق فى أخذها وتحصيلها . (ولينذروا قومهم) وليجعلوا غرضهم ، ومرمى همتهم فى التفقه إنذارهم ، وإرشادهم ، والنصيحة لهم ، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمونه من المقاصد الركيكة من التصدير والترأس ، والتبسط فى البلاد ، والتشبه بالظلمة فى ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشو داء الضرائر بينهم ، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر أو شرذمة جثوا بين يديه ،

وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل « لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً » الخ .

ونريح القارىء مرة أخرى من المقال، لنأخذ معه فى نقد هذا الجزء الذى نقلناه وهذا الجزء فى الحلقة هو صلب المقال ، أو الفكرة الأساسية التى يريد الكاتب أن يعبر عنها،وينقل إحساسه بها كاملا إلى القراء.وفيه نجد المويلحى يبسط حالة السودان . وقد افتقر منذ ظهور التعايشى إلى الهداة والمرشدين ، وإلى العلماء والمتفقهين فى الدين ، وانتقل الكاتب من ذلك إلى الموازنة بين ما صنعه الإنجليز — ومعهم البابا — من إرسالهم المبشرين ، وفتحهم المدارس إحياء لذكرى رجال السياسة والدين ، وما صنعه الأزهر الشريف من نومه العميق ، وجهله المحيق ، وتجاهله أمراً أوجبه الدين ، وهو الدعوة إلى الحق فى بلاد ظمأى إلى معرفة الحق . كل ذلك فى أسلوب تظهر فيه الخصائص الفنية التى أشرنا إليه ظهوراً لا مرية فيه .

فمن جزالة فى الألفاظ، إلى حرص شديد على الإيقاع، كما فى قوله: وخلفه طاغ باغ ، أفاك سفاك ، عامى أمى، عريق فى الجهالة والضلالة إلخ. إلى استشهاد بالقرآن ، على أن يكون هذا الاستشهاد مشفوعا بالتفسير. وإن كان التفسير فى هذه الفقرة التى تقدمت من المقال قد طغى طغيانا عظيما خرجت به المقالة المتقدمة على أن تكون مادة صحفية إلى أن تصبح درساً تفسيرياً .

وليس شك فى أن المويلحى كان فى هذا الاتجاه متأثراً بنشأته الدينية وبأستاذه الأول الذى قلنا أنه اتصل به منذ الطفولة ، وهو الشيخ العطار صاحب الحانوت المجاور لحانوت أبيه .

على أن أكبر ما يلفت نظر الناقد فى العبارة السابقة إنما هو إثارته لرجال الأزهر الشريف ، واعتماده فى هذه الإثارة على السخرية والتهكم ، وبلوغه من هذين مالا يبلغه كاتب آخر فى عصره ، وحين يعالج موضوعا كهذا الذى نحن بصدده .

ومن كالمويلحى فى لذعه وتهكمه وتفننه فى السخرية والتندر ؟

وتنحلّ السخرية عند المويلحى إلى طائفة من العناصر التى لا تخفى على القارىء الفطن ، ومنها عنصر المفارقة أو الموازنة . وهو فى العبارة السابقة يوازن لنا موازنة واضحة بين صنيع الانجليز فى السودان ، وصنيع المصريين فى تلك البلاد ، وهى موازنة تثير الضحك من علماء المسلمين ، كما تثير السخط عليهم من الناس أجمعين .

ومن عناصر السخرية عند المويلحى عنصر الاستقصاء ، وعنصر التعليل ، وعنصر الذم بما يشبه المدح ، وعنصر العبث بالألفاظ ، وعنصر التسمية الزائفة لبعض المعانى ، أو هذه العناصر التى يتألف منها ما يسمى عند عامة المصريين فى وقتنا الحاضر (بالتريقة) .

وانظر معى إلى المويلحى كيف يتدرج فى السخرية من رجال الأزهر . فيبدأ أولا بقوله :

« ... فكان ينبغى أن أول ما نسمعه عقب الفتح أن مجلس العلماء فى إدارة الأزهر الذى يجتمع لغير شىء . . ! إلخ » ثم يمضى الكاتب قدماً فى هذه السخرية فيقول :

« هذا — وأهل الأزهر يتثاءبون ويتناومون تحت ظلال مجلس إدارتهم » . وانظر إلى قول تحت ظلال مجلس إدارتهم فهو يبعث فى الذهن قول النبى « الجنة تحت ظلال السيوف » كما تبعث فى الذهن تلك الموازنة بين استعمال (الظلال) هنا (والظلال) هناك :

ويتقدم الكاتب فى سخريته قائلا فى وصف رجال الأزهر .

« لا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ، ولا سعادة الدار الواحدة » والشاهد فى قوله « ولا سعادة الدار الواحدة » ، ثم يقول :

« فهم يفضلون البقاء على أكل الخبز البحت ، فإن كان ثم إدام فالفجل والجبن وقشور الفواكه . وقد رضوا من الدنيا بالنزول إلى ما لا يقدر

الدهر أن يسلبه منهم ، فإنه لا يقدر أن يسلب الخبز من أحد فى مصر » .

وفى هذه الجملة الأخيرة وصل المويلحى إلى الدرجة الأخيرة فى سلم السخرية الذى صعد به إلى الأزهر ورجال الأزهر. وهناك من أعلى الدرج رمى الكاتب هؤلاء بقوله لهم :

« ومن رضى بنفسه بهذه القناعة هانت عليه الأعمال العظيمة ، وقويت نفسه على تحمل المشاق فى سبيل الأعمال الصالحة التى يدخرها ليوم الحساب . وهم أجل من أن يرضوا بالزهدين : الزهد فى الدنيا والزهد فى الآخرة » .

وفى هذه العبارات الأخيرة تتضح العناصر الباقية من عناصر السخرية عند المويلحى ، وهى عنصر الذم بما يشبه المدح ، وعنصر التسمية الزائفة لبعض المعانى . ومما ورد من هذه المعانى فى العبارة المتقدمة معنى القناعة ومعنى الزهد ، ومعنى قوة النفس على تحمل المشاق ، ومعنى الأعمال الصالحة. وكل هذه الألفاظ إنما يراد بها فى نفس المويلحى معنى الذلة والخنوع ، ومعنى الفقر والضعف ، ومعنى الجبن والخور ، والتعاقد عن أداء الواجب .

ثم انظر إلى المويلحى ينتقل فجأة وعلى غير انتظار من هذا الضحك الهادىء ، والسخرية المريرة إلى الجد الجاد ، وإلى القول الحق ، وإلى الحجة الدامغة ، وهى القرآن الكريم ، فيصب فى آذان رجال الأزهر قوله تعالى :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

صب الكاتب ألفاظ هذه الآية الكريمة صباً فى آذان رجال الأزهر ، ثم وقف قليلا ليذكر لهؤلاء أقوال المفسرين على اختلافهم فى تفسير هذه الآية الكريمة . وهنا يأتى الكاتب لهم بتفسير الزمخشرى .

وهكذا يتلاعب الكاتب بعقول رجال الأزهر وعواطفهم ومشاعرهم ويبلغ من ذلك كل ما أراد .

وأخيراً يدنو الكاتب من خاتمة المقال ، حيث يرسم لرجال الأزهر طريق السير فى هذه الغاية فيقول لهم :

هذا مايكلف الله به طلبة العلم ؛ ويفرضه عليهم ، ويأمرهم به ، وينهاهم عن مخالفته ، وهذا حال السودان على ماشرحناه ، فما النحلة التى يقابلون بها الناس فى الدنيا ، ويلقون بها الله فى الآخرة ؟

فإن قيل إن رقة القروى الأزهرى الرواقى تمنعه من تجشم الأسفار ، ومفارقة الأهل والأوطان ، قلنا لمجلس الإدارة فى الأزهر إن لديك جماعة من طلبة العلم السودانيين ، لاتعوقهم رقة الحضارة عن الرجوع إلى أوطانهم التى طالما خفوا إليها، ولا يتعذرن عليك انتدابهم بهذا السبيل الحميد ، لتحرز لك ولهم وللمسلمين شرف الدنيا وحسن ثواب الآخرة ».

أما إذا تقاعد أهل العلم ، وتقاعس أهل الفقه ، وتكاسل أهل الفضل من العلماء وأئمة الدين ، وحملة الكتاب فى الأزهر الشريف عن هذا العمل الواجب ، وسمعنا بعد ذلك بنجاح دعاة الأديان الأخرى فى مساعيهم وأعمالهم مع السودانيين ، فيكون الإثم والجرم والذنب أطواقا فى عنق كل من يتصدر فى المجالس ويدعى الفقه والعلم والإرشاد والهداية ، ويبسط اليد للتقبيل ، والذيل للتبريك » .

والكاتب فى هذه العبارات السابقة أكثر هدوءاً واتزاناً ، وأدنى إلى الروية والتريث ، وأميل إلى التبسط فى القول ، والإطالة فى الأسلوب ؛ كما فى قوله «أما إذا تقاعد أهل العلم، وتقاعس أهل الفقه، وتكاسل أهل الفضل إلخ».

وكما فى قوله « فيكون الإثم والجرم والذنب أطواقا فى عنق كل من يتصدر فى المجالس ، ويدعى الفقه والعلم والإرشاد والهداية » .

ألا ترى أيها القارىء أن الإثم هو الجرم هو الذنب ، ولكن الذى حمل الكاتب على الإتيان بهذه الألفاظ الثلاثة أمران . أولهما رغبته فى

الإتيان بهذا التشبيه للآثام بالأطواق . وثانيهما ميل الكاتب إلى التبذير في الألفاظ تبذيراً لا يذكرنا إلا بميله المعروف إلى التبذير في المال .

وأخيراً بعد الأسطر الكثيرة ، والعبارات الطويلة والصور المتلاحقة يختم الكاتب مقاله بهذه العبارة « وقد بسطنا القول ، وأوضحنا الكلام ، وبينا مقدمات الأعمال . ولا شك أن من له مسكة من العقل يصل إلى معرفة نتائجها التي تأتي بأعظم المصائب على الإسلام ، وأنكى النوائب على الدين الحنيف » .

والآن — وقد فرغنا من عرض هذا المقال — يجمل بنا أن نلقي عليه نظرة أخرى من أعلى ، نقف بها على الخصائص العامة التي تميزه فهل كان هذا المقال صحفياً ؟ أم هما معاً ؟ .

لقد صح عندي بعد قراءة هذا المقال أنه إلى الخطبة أدنى منه إلى المقالة كما صح عندي — مع ذلك — أنه يشتمل من عناصر المقالة الصحفية على عنصرين هامين ، ينبغي أن نشير إليهما إنصافاً للمويلحي الصحفي ، واعترافاً باستعداده العظيم لمهنة الصحافة ونجاحه فيها رغم تغلب الأسلوب الأدبي عليه وهذان العنصران الصحفيان هما :

أولا : عنصر السخرية ، وقد سبق لنا القول في الجزأين السابقين من أجزاء هذا الكتاب إن المقال الصحفي يجب ألا يخلو — عادة — من هذا العنصر ، مادام الكاتب الصحفي في معرض النقد والتوجيه ، بحيث إذا خلا المقال الصحفي في هذه الحالة من السخرية الخفيفة أصبح لا غناء فيه .

ثانياً : الهدوء ، ونعني به اعتدال الكاتب الصحفي في إظهار عواطفه للقراء . وقد سبق لنا القول كذلك إن هنا فرقا — من هذه الناحية — بين الصحفي والخطيب . والأخير صاحب الحق في إثارة الجماهير في تحريك مشاعرهم عن طريق الغضب أو الثورة . والأول — وهو الصحفي — لا يليق به أن يتخذ لنفسه موقف الخطيب في إقناع الجماهير بل عليه أن

يعتمد فى كل ذلك على قدرته فى الإتيان بطائفة من اللفتات الذهنية حيناً ، واللفتات الشعورية حينا ، بحيث يتمثله القراء رجلا هادئاً رزينا ، لاتفارق فمه ابتسامة رقيقة ولكنها قاتلة .

ولا يعجبن القارىء من هذه التفرقة التى نحدثها دائماً بين لغة الأدب الخالص ولغة الصحافة الخالصة ، فما زلنا حريصين على إيجاد هذه التفرقة ، وما زلنا ننظر إلى الأدب الخالص على أنه له أسلوبا خاصاً وغاية حيوية خاصة ، وأن للصحافة الخالصة أسلوبها وغايتها وأهدافها ، ووسائلها اللغوية التى تختص بها .

* * *

ويرى القارىء فى جريدة (مصباح الشرق) مادة أخرى من المواد الأدبية التى أشرنا إليها من قبل ؛ وأكبر الظن أنها بقلم إبراهيم المويلحى نفسه ، وإن كان لم يوقع باسمه تحتها . ولكننا نعرف أنه صاحب الجريدة ومحررها فى ذلك الوقت هو الذى كان يكتب جميع موادها بنفسه ، وقلما يستعين فى ذلك بغيره .

ولا بأس هنا من أن ننقل للقارىء هذه المادة وله بعد قراءتها أن يلاحظ عليها ما يشاء من الملاحظات . وهذه هى المادة التى نشير إليها منقولة من نفس العدد الذى نقلنا منه المقالة الافتتاحية السابقة :

الغضب

« فإن قال قائل إن للغضب حلاوة ، وإن فى مقابلة الشر بالشر لذة أنكرنا ذلك عليه كل الإنكار وقلنا له : إذا كان فى مقابلة الخير بالخير لذة وارتياح ، وكان وجه الجميل جميلا ، فإن العكس فى مقابلة الشر بالشر . والكريم من يخجل من الانهزام فى ميدان الخير ، كما يخجل من الانتصار فى ميدان الشر .

أما الانتقام فهو مما يترفع العاقل عنه ، وإن كان يتناول معنى العدالة، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضى الزمن فى التربص له . ومهما خف الانتقام ولطف فإنه لا يفترق عن الإساءة والإضرار إلا بالتماس العذر لفاعله .

لطم أحد الناس حكيما من الحكماء فى طريقه على غير عمد فلما رجع يعتذر إليه من اللطمة قال له الحكيم : فيم الاعتذار ؟ ما أذكر أنك لطمتنى؛ وذلك لأنه رأى بحكمته أن تناسى الإساءة ، والتغافل عنها أجمل فى النفس من ذكرها ، وأفضل من الانتقام لها ، وأرقى من العفو عنها .

ورب قائل يقول: أما وجد الحكيم فى نفسه حرجا ومضضا من وقوع تلك اللطمة عليه ؟ فيقول : إنه لم يجد إلا ارتياحا وانشراحا ، لأن النفس الكبيرة يزدهيها أن تحتقر الإساءة ومن صدرت عنه ، وألذ ما فى باب الانتقام للمنتقم ، وأنكى ما فيه للمنتقم منه أن تحكم على المعتدى عليك بأنه ليس أهلا بأن يستفزك الغضب عليه .

وكم من منتقم لأمر صغير جره الانتقام إلى أمور عظيمة ، وأضرار بليغة . فلنترفع ، ولنتكرم ، ولنفعل ما يفعله ملك الضوارى إذا رن فى أذنه صوت الأكلاب الغضف لم تطرف نحوها عينه ، ولم تتحرك منها نفسه .

فإن قلت : إن الانتقام يوجب الاحترام ، قلنا : إنك إذا أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء فلا حاجة إلى إضافة الغضب إليه ، ولا ضرورة لأن ترى فيه تلذذاً وتشفياً ، ولكن اعتبره فعلا نافعاً .

ويجب على العاقل الحكيم أن يحتمل الإساءة من الأقوياء بالصبر ، لا بل بالبشاشة والارتياح ، لأنهم إذا شعروا بسوء قبولها ، وسوء وقعها والتأثر منها ، زادوا عليها وضاعفوها . وأكبر عيب فيمن أسكرهم الدهر بالمناصب والمعالى أنهم يزيدون على إساءتهم الحقد على من أساءوا إليهم . ولا محل للحقد بعد الإساءة وقد قيل لرجل اكتهل وشاخ فى خدمة الملوك

« كيف بلغت هذه السن ، وهو شاذ نادر فى قصور الملوك ؟ » فقال : « بلغته بقبول الإساءة والشكر عليها » .

وقد يوجد الإنسان فى حال يكون إظهار التأثر فيه من الإساءة أشد خطراً منها .

ويحكى أن الباغى الطاغى ثالث قياصرة الرومان اشمأز من تكلف شاب فى زيه وزينته وهيئته وشارته ، وكان ابن كبير من كبراء الرومانيين ، فأمر بسجنه ، فجاء أبوه يلتمس العفو عنه فقال القيصر : قد قتلته . وأمر فى الحال بقتله . ثم أراد أن يخفف عن الأب من مصيبته ، فدعاه إلى مائدته فى ذلك اليوم ، فحضر الرجل وليس على وجهه أثر من الحزن والغضب ، فناوله القيصر بيده قدحاً من الخمر بعد أن وكل به من يراقبه ، وكأنما هو فى هذه الحالة يناوله فى الكأس دم ابنه . فشرب الشيخ القدح إلى آخر نقطة فيها . ثم أمر القيصر بتضميخه وتعطيره وتتويجه بالزهور ، وهو ما كان يفعل فى مجالس أنسهم وسرورهم ، فتقبل الرجل كل ذلك بالبشاشة وأخذ مجلسه على مائدة الملك مع تسعة وتسعين شخصاً ، وظل فى يوم موت ابنه على شيخوخته وتقوسه يتغالى معهم فى لهوهم ولعبهم ، كأنما جاءته البشرى بمولود يرثه ويحفظ ذكره .

بشرى الغنى أبى الثبات تتابعت بُشراؤه بالفارس المولود

وكأنى بك تقول : ما سبب هذه المذلة والمسكنة والخطة والدناءة ؟ فأقول لك : كان للرجل ابن ثان ، يريد أن يحفظ حياته من هذه اليد المطلقة فى الظلم . وما كان الرجل ليتأخر عن مصادمة ذلك الطاغية لولا كان ما يخشاه متعلقاً بنفسه وحدها . ولكن المحبة الطبيعية الأبوية قد تغلبت على كل تأثر وانفعال . ولولا كتمانه ما يغلى فى صدره من الحزن ، وإظهاره ما تكلفه فى حضرة الملك من البشاشة والتلاهى ، حتى أعجب به الملك لكان الإبن الثانى لحق بالإبن الأول .

والعقل يرشدنا أن نمتنع عن الغضب على ما هو مساو لنا فى المنزلة ، وعلى من هو فوقنا فى القدر ، وعلى من هو دوننا فى الدرجة ، فإن الانتصار فى مصارعتك من هو مساو لك فى هذا الميدان مشكوك فيه . ومصارعتك من هو فوقك جنون . ومصارعتك من هو دونك جبن ودناءة .

* * *

ولا يكتب هذا المقال غير رجل عرك الأيام والرجال ، وبلا الكثير من أمور السياسة ودهاتها ، بل لا يكتب هذا المقال رجل فيه سذاجة الأطفال أو فى أعماق نفسه سخط شديد على الحياة والأحياء من نوع هذا السخط الساذج الذى عبر عنه المتنبى فى قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها — وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظفروا به — ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

بل الحق أن هذا المقال لا يصدر أيضاً إلا عن كاتب من كتاب الملوك ، عرف أخلاقهم ، ومارَس جبروتهم ، وانتفع بصحبتهم بقدر ما أوذى بها ، وصدق الكاتب الإسلامى القديم عبد الله بن المقفع حيث قال :

« إن صاحب الملك كراكب الأسد ، يهابه الناس ، وهو لمركبه أهيب ».

وندع هذه المادة الأدبية لنعرض على القارىء مادة أدبية أخرى من مواد « مصباح الشرق » ، ولعل هذه الأخيرة من مواد هذه الجريدة أقرب المواد جميعها إلى الأدب بمعناه الصحيح . ففيها تعرض لنا الجريدة نموذجاً جديداً كل الجدة هو « القصة » ، ولطرافة هذه المادة من ناحية وأهميتها من ناحية ثانية فقد خصصناها بفصل من فصول هذا الكتاب هو الفصل التالى:

الفصل الرابع

القصة فى جريدة « مصباح الشرق »

فى كتاب غير هذا الكتاب ألقيت على نفسى وعلى القارىء هذا السؤال:

هل كانت القصة الاجتماعية فى مصر حدثاً أدبياً أو صحفياً ليست لها مقدمات ؟ أو كانت هذه القصة الاجتماعية أمراً له مقدمات ! ثم حاولت الإجابة عنه بعد ذلك فيما يلى:

منذ ظهرت الصحف الشعبية فى مصر وهى منبر عام لرجال الإصلاح من أمثال محمد عبده وعبد الله النديم والمويلحى الكبير والمويلحى الصغير ، والسيد على يوسف ولطفى السيد ، ومصطفى كامل ومن إليهم . وقد سعى كل واحد من هؤلاء أن يضع يده على الداء ، أو على طائفة الأدواء التى كان يشكو منها المجتمع المصرى إذ ذاك ، حتى أصبح «الإصلاح» حديث العام والخاص ، بل أصبح «الإصلاح» مادة من أهم مواد الصحيفة التى ترجو لنفسها البقاء .

عاب المصلحون على مواطنيهم فى الصحف المصرية أموراً شتى : منها تهافتهم على محاكاة الأوروبيين فيما لا يتفق والعادات الشرقية والتقاليد الدينية. ومنها ميلهم إلى تصديق البدع والخرافات مما أتلف دينهم ، وران على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة .

ومنها سكوت بعضهم عن التدخل الأجنبى الذى استفحل شره فى بلادهم ، وكاد يفقدهم قوميتهم وشخصيتهم ، كما أفقدهم حريتهم واستقلالهم ، ومنها البؤس الاقتصادى الذى قسم البلاد قسمين أو طبقتين متباعدتين : طبقة الفقراء الذين لاحظ لهم من مال أو ثروة ، وطبقة الأغنياء الذين لهم كل المال والثروة ، ومنها الجهل الذى حرم سواد الأمة العلم ، وكان من أيسر مظاهره أن بقيت المرأة المصرية حبيسة دارها ، مقهورة على أمرها ،

لاتعرف من شأن الحياة الاجتماعية خارج الدار أكثر مما يعرفه الصبي .

عاب المصلحون على المصريين كل ذلك . وصوروا لهم الحكومة المصرية عاجزة كل العجز عن إصلاح القضاء ، والتعليم ، والأمن ، والصحة . كما صوروا لهم حالة الموظف المصرى وقد استبد بقلبه اليأس ، وغلب عليه الشعور بالذل ، ومد يده إلى الرشوة لصغر راتبه الشهرى ، وبنى حياته على (المحسوبية) لأنها الطريق الوحيد إلى الترقى !

وجاءت كتابات النديم ، ومحمد عبده ، وبشارة تقلا ، وعلى يوسف ، وغيرهم مشخصة هذا الداء القاتل ، منادية بطلب الإصلاح العاجل ، مرغبة جميع المصريين فى الأخذ بأسباب التقدم الصحيح حتى لاتبقى مصر متخلفة عن الدول الأخرى .

ثم إن الكتاب الكبار ممن أشرنا إليهم أفادوا من نقد الأجانب للمصريين فى كتبهم التى كتبوها عن مصر ، كما أفادوا من تقارير الوكالة البريطانية التى اعتادت أن تكتبها عن المصريين فى كل سنة . ونظر الصحفيون إلى هذه الأقوال والتقارير نظرة عاقل حكيم على أنها مرآة لأخلاقنا ، ومجتمعنا ، وعقولنا . « وكثيراً ما تعرف الشعوب نقائصها على يد أعدائها » كما قال ذلك صاحب الأهرام فى مقال له[1] .

وعلى هذا فنحن حين نبحث عن المقدمات الأدبية والتاريخية لظهور القصة المصرية بهذه الصبغة الاجتماعية فلا مفر لنا من القول بأن :

(أولى المقدمات) هى ظهور الصحافة المصرية . فقد كانت هذه الصحافة فى ذاتها نشاطا فكريا مهد لظهور القصة المصرية . وهذا هو السبب فى أن القصص المصرى اتجه فى أول أمره اتجاها اجتماعيا — كما قلنا . ولعل أول دليل يمكن أن نسوقه على ذلك هو ظهور القصة المعروفة فى الأدب المصرى « بحديث عيسى بن هشام » للمويلحى . وهى قصة بالمعنى الصحيح الذى اتفق عليه النقاد .

---

(١) صحيفة الأهرام بتاريخ ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٧ .

ومن أجل هذا سنتحدث طويلا عنها — ولكن بعد الفراغ من الحديث عن المقدمات التى سبقتها . وهى المقدمات التى تحدثنا الآن عن واحدة منها.

أما (الثانية من هذه المقدمات) فهى جهود الكتاب الأدباء من غير المنقطعين للصحافة، رغبة منهم فى إشعار المصريين بتلك العيوب ، وبثّ روح الاستياء والكراهية لهذه العيوب ، وخلقا الرغبة الصادقة فى التخلص منها فى أقرب وقت مستطاع .

ومن هؤلاء الكتاب الأدباء على سبيل المثال : محمـــد فريد وجدى . وذلك فى كتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية » . وهو الكتاب الذى أعيد طبعه فيما بعد بعنوان « المدنية الإسلامية » . وفيه يتحدث الكاتب عن فكرة الأوربيين عن الإسلام ، ويقيم الدليل على خطأ هذه الفكرة ، لأنهم بنوها على علمهم بالبدع والخرافات التى حملت حملا على الإسلام ، وجهلهم بالإسلام نفسه على حقيقته .

وهكذا جاء هذا الجهد من جانب الأدباء غير الصحفيين فى سبيل الدفاع عن الدين مؤيداً للجهد الذى بذله الصحفيون فى هذا السبيل . فهذا « قاسم أمين » لفت إليه أنظار المصريين بكتاب له عنوانه (المصريون) رد فيه على (دوق داركور) الذى تعرض لذم الدين الإسلامى .

ثم عاد قاسم أمين فلفت إليه أنظار المصريين بكتابه العظيم الذى دافع فيه عن المرأة المصرية ، وعنوانه «تحرير المرأة» وأحدث كتابه ضجة كبيرة فى مصر ، وانقسم المصريون بسببه شيعاً فى ذلك الوقت .

وأما (ثالثة المقدمات) التى مهدت لظهور القصة الاجتماعية فهى ظهور طبقة المترجمين إلى جانب الأدباء والصحفيين ، ومن هؤلاء على سبيل التمثيل (أحمد فتحى زغلول) — وقد ترجم كتاباً مشهوراً للكاتب الفرنسى (أدمون ديمولاند) بعنوان : « بم تقوم أفضلية الإنجليز السكسونيين » ترجمة فتحى زغلول عام ١٨٩٩ أعنى فى نفس السنة التى نشر فيها كتاب

قاسم أمين ونشر فتحى زغلول ترجمته فصولا وعلى هيئة مقالات ظهرت تباعاً فى صحيفة المؤيد ، وذلك على نحو ما نشر قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) .

ونظر المصريون إلى الكتاب الذى ترجمه فتحى زغلول على أنه يمسهم ، ويصور حالهم ، ويصف أدواءهم . وقد جعل المترجم عنوان الكتاب الذى ترجمه هكذا «سر تقدم الانجليز السكسونيين». وكتب فتحى زغلول لهذه الترجمة مقدمة كانت أشهر من الكتاب نفسه ، وأعظم منه تأثيراً فى نفوس المصريين خاصة . جاء فيها قوله :

« نحن ضعاف أمام الغرب : ضعاف فى الزراعة ، ضعاف فى الصناعة ، ضعاف فى التجارة ، ضعاف فى العلم ، ضعاف فى العزيمة ، ضعاف فى الألفة والمودة ، ضعاف فى النخوة والشعور الملى (يريد الدينى) ، ضعاف فى الجامعة القومية ، ضعاف فى الخيرات ، ضعاف فى طلب الحقوق وأداء الواجبات ، ضعاف فى حفظ ما ترك الآباء ، ضعاف فى التحصيل ، ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة » إلخ .

ثم ختم كلامه بقوله :

ودواؤنا فى التربية ، وسلامتنا فى نشر العلوم والمعارف .

وهكذا كانت الترجمة طريقاً من الطرق المؤدية إلى ظهور القصة التى تعنى عناية خاصة بالمجتمع .

(ورابعة المقدمات) التى أدت إلى ظهور القصة الاجتماعية هى التقارير التى صدرت عن الوكالة البريطانية . ونخص بالذكر منها تقارير اللورد كرومر — ذلك الرجل الذى عاش فى مصر وحكمها حكماً فعلياً زهاء خمس وعشرين سنة استطاع فى أثنائها أن يدرس المجتمع المصرى من جميع الوجوه ، وأن يضع يده على الدمل الذى يشكو منه المصريون على اختلافهم — وهذا الدمل هو الجهل . وعلى الرغم مما اشتملت عليه هذه

التقارير من التهم البعيدة عن العدل ، والمنافية للحق ، وعلى الرغم من التعصب السياسى والتعصب الدينى الذى بدأ من جانب اللورد فى كل وقت، فان هذه التقارير حركت همم المصريين ، وحفزتهم إلى العمل على دحض هذه التهم بطريق الكتب حيناً — كما يفعل الأدباء المؤلفون ، أو طريق المقالات الصحفية أحياناً — كما فعل كتاب الصحف محترفين وغير محترفين .

* * *

تلك إذن هى المقدمات الأربع التى سبقت ظهور القصة المصرية، ورسمت لها الطريق الذى سارت فيه ، والصبغة التى اصطبغت بها ، وهى الصبغة الاجتماعية .

ونريد قبل أن نعرض (لحديث عيسى بن هشام) للمويلحى — وهى أولى القصص المصرية الاجتماعية — أن نسوق دليلا على اتجاه التأليف المصرى فى ذلك الوقت ناحية العناية بالمجتمع . وهذا الدليل الجديد هو كتاب «حاضر المصريين وسر تأخرهم» . ألفه أديب مصرى يقال له « محمد عمر » . وظاهر من عنوان كتابه هذا أنه مطابق كل المطابقة لعنوان الكتاب الذى أشرنا إليه من قبل، وهو «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» وذلك الكتاب الذى ترجمه أحمد فتحى زغلول — كما قلنا — والذى لاشك فيه أن (محمد عمر) قرأ الكتاب الأخير قراءة جيدة ، وأنه كان يفكر فيه تفكيراً جيداً، وذلك عندما شرع يؤلف كتابه هذا .

ظهر كتاب « حاضر المصريين وسر تأخرهم » عام ١٩٠٢ فى نحو ثلثمائة صفحة، صور فيها الكاتب وجوه الضعف الذى يشكو منه المجتمع المصرى. والعجيب أن الذى كتب مقدمة الكتاب هو ذلك الأديب المشهور والعالم القانونى الكبير أحمد فتحى زغلول .

والقارىء للكتاب الذى ألفه محمد عمر يرى أنه عمد فيه إلى تقسيم المجتمع

المصرى إلى طبقات ثلاث : الطبقة الغنية ، والطبقة المتوسطة، والطبقة الفقيرة وذهب إلى أن لكل واحدة منها عيوبا تختص بها ، وراح يذكر ما يراه علاجا حاسما لكل عيب منها على حدة .

* * *

والقصة قديمة فى الأدب العربى كانت تحيا بحياته وتموت بموته ، وحين جمد الأدب العربى فترة من الزمان جمدت معه القصة بل زالت من الميدان الأدبى ، ثم بعثت بعثاً جديداً مع النهضة المصرية الحديثة ، وشاء القدر أن يكون هذا البعث على يد المويلحيين : الكبير والصغير ، وكانا يعملان معاً فى هذه الجريدة الأدبية العظيمة التى نتحدث عنها وهى جريدة « مصباح الشرق »

وقد استطاعت هذه الجريدة أن تقدم لقرائها قصتين كبيرتين من أروع القصص العربية الحديثة من حيث الموضوع ، أما القصة الأولى « فحديث عيسى بن هشام » لمؤلفها محمد المويلحى وأما القصة الثانية « فحديث موسى ابن عصام ، لابنه إبرهيم .

وإن التاريخ الأدبى لينظر إلى هاتين القصتين على أنهما يمثلان الطور الأول من الأطوار التى خضعت لها القصة المصرية الحديثة ، كما ينظر إلى المويلحيين على أنهما رائدان كبيران من رواد النهضة الحديثة فى ميدان عظيم من ميادينها وهو ميدان « القصة » .

وقد ظهر حديث عيسى بن هشام على صفحات مصباح الشرق قبل ظهور حديث موسى بن عصام على صفحات هذه الجريدة بسنة على الأقل، ومن أجل ذلك ظن كثير من القراء فى عصر المويلحى أن حديث « عيسى ابن هشام ، لا يمكن أن يكون من تأليف « محمد» ولا بد أن يكون من تأليف «إبراهيم» . وروج لهذا الرأى أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة ، ومازلت أسمع من بعض المعمرين إلى يومنا هذا أنهم أميل إلى هذا الرأى .

ولكنى حين قرأت بنفسى حديث عيسى بن هشام ، ثم قرأت بنفسى ما بقى لنا من «حديث موسى بن عصام» تبينت فروقاً كثيرة بين الحديثين ، ونفيت أن يكونا معاً لإبراهيم دون ولده محمد ، ولايتسع المجال هنا لعرض هذين الحديثين أو لعرض بعضهما ، ومن ثم نكتفى بعرض جزء فقط من حديث موسى بن عصام لإبراهيم المويلحى ، ونشفع ذلك بنقد لهذا الجزء وحده أولا ، ثم بالموازنة بينه وبين حديث «عيسى بن هشام» من حيث الأسلوب ومن حيث الفكرة .

وكثيراً ما يقرأ القارىء فى جريدة مصباح الشرق ، وتحت عنوان «الحوادث الداخلية» قول المحرر على سبيل الإعلان : «جاء موسى بن عصام يحدث الناس بتلميحه ولا يغيب عنهم عيسى بن هشام بتصريحه» ، وربما كان ذلك أول مايلاحظه القارىء أى أن حديث عيسى بن هشام قائم على التصريح لأنه نقد ظاهر للمجتمع المصرى لامواربة فيه ولا خفاء ، ولارمز فيه ولاتعمية ، أما حديث «موسى بن عصام» فنقد للنفس الإنسانية على أساس الرمز ، والتلميح والكناية ، والتعريض ، ونحو ذلك . فهما إذن متفقان فى الغاية ومختلفان فى الوسيلة ، وهذا أول فرق من الفروق التى يلاحظها القارىء وثم فروق أخرى سنعرض لها كذلك ، ولكن بعد أن نعرض على القارىء قطعة من حديث «موسى بن عصام» ثم قطعة من حديث «عيسى ابن هشام» لتسهيل الموازنة بينهما . ونحن نعلم أن كتاب المويلحى الصغير مشهور منشور على الناس سهل تناوله بينهم فى أيامنا هذه . أما حديث المويلحى الكبير فلم تبق لنا منه إلا قطع قليلة ، لايعرفها الناس فى الوقت الحاضر ، وربما لم يسمع بها منهم إلا قليلون . ومن أولى هذه القطع ما كتب إبراهيم بعنوان «مرآة العالم» أو حديث موسى بن عصام»[١]

---

(١) انظر جريدة مصباح الشرق العدد ٦٠ من السنة الثانية بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٩٩

مرآة العالم[1]

حديث موسى بن عصام

حديث موسى بن عصام قال :

نشأت وما انحنت منى الأضلاع على أشد من حب الاطلاع ، فكنت أستقطر الأخبار من أفواه الناس ، وأستقرىء الآثار من كل الأجناس ، وأستطلع الأنباء ، وأستقصى الأشياء ، وأستبطن الأحوال ، وأستظهر ضمائر الرجال . فما تركت من أترابى . ولا غادرت من أصحابى من تخطئنى سيرته ، أو تخفى علىّ سريرته . وماسمعت بشىء إلا علمته ، ولا عثرت على أثر إلا ترسمته :

وعلمت حتى ما أسائل واحدا عن علم واحدة لكى أزدادها

ومما زادنى شغفى ، وضاعف من كلفى ، لمتابعة الارتحال . ومزاولة الانتقال ، حباً فى الاطلاع ، على كل البقاع قوله تعالى « قل سيروا فى الأرض » . فاتحد الأمر بالرغبة ، فحلت لى الغربة ، والسير فى الأرض يجعل العمر أعماراً ، ويمد فى الأيام فيجعلها أدهاراً ، وإذا غبت عن بلدك شهراً ثم عدت إليه أدركت اتساعاً فى ذلك الظرف لامتلائه بما مررت عليه . والأرض للمرء دار . ومن العجز ألا يعرف المرء داره ، وأن ينزوى فى زاوية منها فيجعلها مستكنه وقراره . وأهلها أهله فإن نأى عنهم بجانبه ، فقد عق فى مقاطعة أقاربه :

إنما الأرض والفضاء كتاب فاقرأوه ونقبوا فى الكتاب

وبهذا التنقيب فتح أولو الهمم والأقدار ، خزائن الطبيعة وكنوز الآثار والحياة نسيج ساذج توشيه الأسفار ، والعمر صحيفة ملساء تنقشها الأخطار ،

---

(١) انظر جريدة مصباح الشرق العدد ٦٦٠ - السنة الثانية بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٩٩

والمرء كالدينار منفعته فى تداوله واغترابه، وضياعه فى اكتنازه واحتجابه.

فاستخرت الله وعليه توكلت ، وأخذت أهبتى ورحلت . فسرت عامة الليلة وسراة اليوم . حتى انتهيت إلى سوق تعرض فيه الركائب للسّوم فاشتريت ظهراً أركبه ، واستأجرت دليلا أصحبه ، وجعلت أجوب القفر بعد القفر ، ينشرنى حره، ويطوينى قره، وأركب البحر بعد البحر، يتوارى عنى بره ، ويتراءى لى شره . أخوض الغمرة بعد الغمرة ، ولا أقوم من العثرة إلا إلى العثرة :

ذرعت الفلا شرقاً وغرباً لحاجتى ... وصيّرت أخفاف المطى ذراعه
فلا بر إلا قد طويت بساطه ... ولا بحر إلا قد نشرت شراعه

وبينما نسير فى عرض اليم ، ونخوض عباب ذلك الخضم ، إذا بالأعاصير قد هبت من رقادها ، وصيرت الأمواج من أجنادها ، فحمى بينهما وبين السفينة وطيس الهيجاء ، ولم ينفع استئماننا بالراية البيضاء .

وملتطم الأمواج يرمى عبابه ... بجرجرة الأذى[١] للعبر فالعبر[٢]
مطعمة حيتانه ، ما يغبها[٣] ... مآكل زاد من غريق ومن كسر
إذا اعتنقت[٤] فيه الجنوب تكفأت ... جواريه أو قامت مع الريح لاتجرى

فشت القلوب فى الصدور ، وانفتحت بين الأمواج القبور ، واشتغل كل بنفسه ، ينظر بعينيه إلى رمسه ، وانقطعت خيوط الآمال ، بمقراض الآجال ، وحانت ساعة ساوى الموت فيها بين العباد ، ولم يعبأ باختلافهم فى ساعة الميلاد .

وحدقنا فى وجه الموت تحديق النسر فى عين الشمس . ووقفنا وقفة المقتول بين السيف والرمس. وقد تغلبت جيوش العواصف وقضى الأمر، وانكفأت السفينة فالتقمها البحر ، وإذا بيد قذفتنى إلى جزيرة قفراء ،

---

(١) الأذى هو الموج (٢) والعبر هو الشاطىء (٣) مايغبها أى لاينقطع عنها
(٤) اعتنقت تشابكت . والأبيات للشاعر العباسى مسلم بن الوليد

ليس بها يابسة ولا خضراء وبعد أن سكن رَوْعى حمدت الله على النجاة، واقتنعت من رحلتى بسلامة الحياة ، ثم مشيت ولا أدرى أين أسير ، وقد متع[١] النهار واشتد الهجير، فرأيت شيخاً قد مله الدهر ومل من الدهر ، فأصبحت الأرض وتراً لقوس ذلك الظهر ، ينبعث نور الهداية من أسرّته ، وتلوح سيما التقوى على جبهته. وبعد أن سلمت ورد السلام، قال : ماخطبك يا ابن عصام . لقد كتب الله لك السلامة ، ونجاك من الغرق وأدركتك العناية .
قال موسى بن عصام: فاستروحت منه ريح الولاية حين نادانى باسمى ، وعلم علمى . واستبشرت بتقريب البعيد . وتيسير ما أريد .

وقلت : مولاى — إن الله جلت قدرته قد علمك من لدنه علماً ، وكشف لك من حجب أسراره حجاباً . وأمدك من قدرته ما سخر لك به الكائنات ، وأظهرك بسره من غوامض الممكنات . وجعل لك من فضله نصيباً من التصرف فى الكون . فلا يستعصى عليك شىء . ولا يعجزك أمر ، ولى إليك حاجة ، وأنت بقضائها حقيق. فقد علمت مما كشف لك من أمرى أن حب الاطلاع هو الذى فصّلنى عن أهلى. وأخرجنى من بيتى. وأبعدنى عن وطنى. وكلفنى مشاق الأسفار. واحتمال الأخطار. وجوْبَ القفار، وقطع البحار وسُرى الليل وسير النهار، وحاجتى إليك أن تفصلنى عن جو الأرض إلى جو السماء . فأرى هذه الكرة فى حركتها حول الشمس وعلى نفسها وأرى من عليها فى أحوالهم وأعمالهم لأتعظ وأعظ . وأستيقظ وأوقظ . وأذكر المسىء بإساءته . والمحسن بإحسانه، فتكون سفينة الغرق بك سفينة النجاة . وأكون قد اجتنيت بك من تعب الحياة راحة الحياة .

(الشيخ)— واغوثاه — لقد طلبت عظيما وسألت أمراً خطيراً . وهبنى بلغت بك طلبتك: وأمكنتك من الإشراف على هذه الأرض تنظر ارتماءها فى الفضاء ، وتقلبها بين الظلمة والضياء . فكيف لى أن أشذ منك فتقوى

---

(١) متع النهار كمنع متوعا ارتفع قبل الزوال والضحى وبلغ آخر غايته وهو عند الضحى الأكبر .

على رؤية هذا المنظر المدهش . والمشهد المزهل. وأنى لذلك أن يقوى على مشاهدة جرم الأرض وهى ترتمى فى الفضاء فتقطع فى الثانية الواحدة سبعة فراسخ . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ... » .

واعلم أن الصانع الحكيم جلت قدرته « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ثم جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » ليتدرج الإنسان فى مشاهدة هذا العالم المدهش ؛ فيقوى على رؤيته بالترقى ؛ ولو خرج الإنسان من بطن أمه وهو مدرك ؛ ثم رأى الشمس فى طلوعها لمات لجأة ، وكذلك الإنسان إذا انفصل عن وجه الأرض ورأى مالم يتدرج إلى رؤيته ، من عجيب صنع الله وعظيم قدرته ، قضى دهشة . وعلى أنك لو سلمت من هذا لما أغنى عنك النظر شيئاً لسرعة دورتها ، فاعدل إلى أقرب من هذا إمكانا وأبعد منه خطراً . واطلب لنفسك طريقاً وسطاً لا تضل فيه ولا تخشى (موسى بن عصام) .

ليس لى خيرة فاختر ، فمنك الإرشاد ، وعليك العمل ، فأخذ بيدى فرأيت نفسى معه على مكان عال ، وسألنى : ماذا ترى ؟ قلت : لا أرى شيئاً . فمسح بيده على عينى فأبصرت ، وعلى أذنى فسمعت ، وعلى صدرى فشف لى كل شىء . وقال : انظر « فبصرك اليوم حديد » .

فنظرت ويا هول ما نظرت ! نظرت قوماً حانين بزوال عليه ثوب كطيف الشمس يلمع لمعان الآل[1]. وقد قبض كل واحد منهم على شعاع من ذلك الطيف ، فراقنى منظره ، فسألت الشيخ فقال : هذا هو الأمل . ثم أعدت النظر فإذا أنا أرى شخصاً ضخما عظيم القامة ، تتبعه الناس من جميع الطبقات ، وهم متكاتفون على لثم حذائه ، ولمس طرف من ردائه ، فسألت الشيخ من هذا العظيم ؟ فقال هذا هو الباطل .

(١) الآل السراب .

ثم تحولت بنظرى فإذا أنا أرى شخصاً ضئيلا منزويا تتحامى طريقه الناس ، وتتحاشى النظر إليه ، وهو حاسر الرأس ، عارى الجسد ، لا سَمَل ولا طِمْر[١] .

فسألت الشيخ : من هذا المسكين ؟ فقال هذا هو الحق .

(الشيخ) : انظر إلى هذين الشخصين من زبانية الدنيا يعذبان الناس أشد العذاب .

قال موسى بن عصام : فنظرت فوجدت أحدهما آخذاً بخناق الفقراء ، والآخر ممسكا بأطواق الأغنياء والكبراء .

وكلاهما يمزق فى فريسته ، وشد ما يمزق !

فقلت فى نفسى : ما أبشع هذا الوجود ، لا راحة فيه لغنى ولا لفقير ولا سَلْم فيه لعظيم ولا لحقير . ثم التفت فسألته عنهما .

(الشيخ) هذان هما الألم والسأم . فلا يفتأ الفقير يألم ، والغنى يسأم ، هذا لحاجاته ، وهذا لفراغه . فإن زاد أحدهما نقص الآخر .

يجنى تزايد هذا من تناقص ذا واليوم إن طال غال[٢] الليل بالقصر

فالفقير يكد ويجهد فى تحصيل حاجاته ، فيؤلمه الكد والجهد ، ولا سلطان للسأم عليه إلا إذا زايله ذلك الكد والجهد . والغنى بما يجده من حاجاته حاضراً يسئمه الفراغ فيكاد يقتل نفسه ، إن لم يكن لهذا الفراغ شاغل من العلم . وقد اخترع الناس أنواع الألعاب من نرد وشطرنج وغيرهما ليشغل ذلك الفراغ . بتقلب الإرادة .

وإن السأم ليورد كثيراً من الأغنياء مورد الانتحار ، فتجد أحدهم يهرب من قصره إلى المدينة ، ثم يعقب راجعاً إلى قصره ، ثم يفر إلى بستانه ،

---

(١) السمل الخلق من الثياب والطمر بالكسر الثوب الخلق .

(٢) غاله : أخذ منه من حيث لا يدرى .

ثم يذهب لزيارة صاحبه، فلا يلبث معه إلاريثما يراه ، ثم ينقلب إلى ضيعته ، ثم يرجع إلى قصره ، فيضرب جواره ويشتم طواهيه على غير ذنب إلا للسأم الذى يهرب منه وهو فى صدره اهـ .

* * *

ثم فى العدد الذى يلى ذلك ، وهو العدد الواحد والستون من أعداد الجريدة يرى الكاتب يمضى فى قصته على هذا النحو من الحوار البليغ بين موسى بن عصام والشيخ :

الشيخ : دع عنك هذا الأصفر الرنان ، وإن رنّ وران ، وإن أصبح كالأقحوال ، وأمسى كالأفعوان . وارجع البصر ثم ارجع البصر ، إلى هذه العظات وهذه العبر ، وتأمل فيها تأمل المنجم فى اصطرلابه ، والمدقق فى حسابه . وخليقٌ بمن فى هذا الموقف أن يرى عجائب هذا الورى، فقد دفعت بك على صرح الحكمة ومنار الاعتبار ، وكشفت عنك غطاءك ، فكلك اليوم بصائر وأبصار .

قال موسى بن عصام : فجلت بنظرى فرأيت رهطاً يقرعون باب غنى ، قد أوصده قبل دخول العشىّ الخ .

ثم مضى المويلحى فى إيراد حادثة أخرى لرجل غنى شديد البخل ، وقد دخل عليه رهط من الزائرين يلتمسون منه أن يكتتب لهم مبلغاً من المال على سبيل التبرع ، ليستعينوا به فى مشروع من مشروعات البر . وطفقوا يحتالون عليه ليظفروا منه بهذا المال ولكن بدون جدوى . وخرج الزائرون من بيته محنقين ساخطين ، وهم يرددون قول الشاعر :

لو عبر البحرَ بأمواجه فى ليلة مظلمة باردة
وكفه مملوءة خردلا ما سقطت من كفه واحدة

أما البخيل فقد خلا إلى نفسه ، وأخذ يناجى ديناره قائلا : ارجع إلى صرّتك لتحفظ فيها وتخزن ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولاتحزن .

وفى هـذه العبارة الأخيرة من التضمين ما لا يخفى على قارئه . ثم تخيل الكاتب مناظرة دارت بين هذا الغنى البخيل وبين رجل حكيم قال لصاحبه البخيل :

« ولذلك فأنا أغنى منك ومن كل غنى لأنى تخلصت من عقال الإرادة ، فأصبحت لا أريد ، وعبارة : لا أريد : تزيد على : ملك كل شىء » اﻫ .

* * *

ثم فى الجزء الثالث من هذا الحديث ، وهو ما نشر بالعدد الثانى والستين يجد القارىء موضوعاً ثالثاً من الموضوعات التى عالجها المويلحى ، هو موضوع النفاق والملق والرياء ، وفيه يتهكم الكاتب تهكما مراً بالحكم الثنائى فى السودان :

قال موسى بن عصام « فلمحت رايتين تخفقان على أطلال أم درمان ، فقلت للشيخ :

موسى بن عصام : أتشترك يامولاى دولتان فى الحكم على بلد واحد ؟ وهل يجتمع فى غمد سيفان ؟ ويطلع فى أفق قمران ؟

(الشيخ) : نعم فقد اشتركت الحكومتان فى الحرب فاشتركتا فى الحكم .

(موسى بن عصام) وأين جيشهما المحارب ؟

(الشيخ) : انظر إلى هذه الجموع .

قال موسى بن عصام : فنظرت فرأيت قوماً من السمر يعملون فى الأرض ، وآخرين فى الجسور ، وغيرهم فى قطع الصخور ، وسواهم فى بناء القصور . ومنهم الحاملون لقضبان الحديد ، ومنهم الغواصون لبناء القناطر . . . وقد عددت خمسين منهم يتناوبون فى حمل مريض من عامة الجند الأحمر يقطعون به عشرين ميلا ! . ورأيت قوما من البيض يتفيأون ظلال النعيم ، ويأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان . . . الخ

فأما أولئك السمر الذين يعملون الأعمال ، ويرفعون الأثقال ،

وينقلون الجبال ، فى وهَج الهجير ، فوق حصى الرمضاء وشوك القتاد فهم المصريون أصحاب الراية الثانية ، وهم المحكومون وذلك نصيبهم ، والمسخرون وتلك عاداتهم .

وهكذا يمضى المويلحى فى سخرية متصلة بالإنجليز وبالمصريين على السواء ، بل هكذا يمضى المويلحى فى موازنة مؤلمة ، ومفارقة محزنة بين هؤلاء وهؤلاء : وليس كالمويلحى رجلٌ يحسن الإتيان بهذه الموازنات ، ولا أديبٌ يحسن العرض لهذه المفارقات ، بحيث يخرج القارىء من هذا كله بصورة دقيقة لكل طرف من طرفى هذه الموازنة أو المقايسة .

والعجيب أننا رأينا (مصباح الشرق) تسكت بعد ذلك سكوناً تاماً عن (حديث موسى بن عصام) ولا تقدم للقراء جزءاً جديداً من هذه القصة التى نحا بها المؤلف آخر الأمر — ناحية النقد اللاذع والتهكم المر بهذه الحقبة السوداء فى تاريخ مصر الحديث ، ونعنى بها حقبة الاحتلال الإنجليزى والحكم الثنائى فى السودان .

فهل يجوز لنا أن نفهم من هذا أن المويلحى حيل بينه وبين هذا الحديث بقوة من المحتل لاقبل له بها ، أو بحيلة من تلك الحيل التى جازت عليه فى الماضى ، ومن أجلها كان يعطل جريدة كجريدة (الخلافة) وأخرى كجريدة (الاتحاد) وثالثة كجريدة (الأنباء) وهكذا ؟

وأعود إلى القصة نفسها أو حديث موسى بن عصام نفسه لأعلق عليه من الناحيتين الأدبية والتاريخية فأقول :

لست أدرى أولا أكانت هذه القصة متأثرة من حيث الفكرة بالقصص القرآنى ، أم بالقصص العربى غير القرآنى ، أم بالقصص الشعبى الذى منه قصة السندباد البحرى أم بكل هذه الأشياء مجتمعة ؟ أم كانت الفكرة من وحى خاطره فقط ، لأنها فكرة بسيطة فى ذاتها ترد لكل ذهن يحب صاحبه أن يكتب قصة من هذا النوع .

أما القصة فى أسلوبها فعندى أن الكاتب متأثر فيه بأسلوب المقامة العربية لا محالة . فالعناية فى هذه القصة بالسجع من جهة ، والاهتمام فيها بالأسلوب أكثر من الاهتمام بالموضوع من جهة ثانية . كل أولئك من خصائص المقامة المعروفة فى الأدب العربى .

وكنا قد أشرنا فى الجزأين السابقين من أجزاء هذا الكتاب إلى تأثر الأدب المصرى فى أولى مراحله بالمقامة العربية فى أسلوبها . وكان من الطبيعى أن يخف هذا التأثر بالتدريج ، حتى إذا كانت المرحلة التى من رجالها المويلحى الكبير والمويلحى الصغير لم يصبح لأسلوب المقامة العربية هذا السلطان العظيم على الأساليب . غير أن كل لون على حدته من ألوان الأدب يظهر أنه كان يخضع أولا لتأثير المقامة العربية ، ثم يستقل بشخصيته بعد ذلك . وقد رأينا الصحافة المصرية تمر بدور التقليد والاحتذاء ، ثم تدخل فى دور الإصالة والابتكار . وكذلك شأن القصة المصرية ، كان لابد لها من أن تمر بهذه الأدوار . فإذا صح أن المويلحيين الصغير والكبير هما رائداً القصة المصرية الحديثة فى مصر ، فمعنى ذلك أنه لابد من أن يخضعا أولا السلطان المقامة من حيث الأسلوب ، ثم يخلفهما فى ميدان القصة خلف يتحرر من هذه الأساليب ، وذلك ماقد حدث للقصة فى مصر .

والآن علينا أن ندع هذا الاستطراد ، وأن نلخص الملاحظات التى نلاحظها علي هذه القطعة الأدبية السابقة فيما يلى :

أولا — شيوع السجع الذى يصل أحياناً إلى أن يكون سجعاً مجنحاً كما فى قوله :

« نشأت وماانحنت منى الأضلاع على أشد من حب الاطلاع ، فكنت أستقطر الأخبار من أفواه الناس ، وأستقرىء الآثار من كل الأجناس ، وأستطلع الأنباء ، وأستقصى الأشياء ، ... الخ .

ثانياً — الاحتفال بالتشبيه والعناية بالصورة إلى درجة كبيرة والأمثلة على هذه العناية كثيرة منها قوله :

فرأيت شبحاً قد مله الدهر ومل من الدهر ، فأصبحت الأرض وتراً لقوس ذلك الظهر .

والحق أنني لم أجد نظيراً لهذه العناية بالصورة إلا عند رجل كالقاضي الفاضل .

ثالثاً — صوغ بعض الجمل على طريقة صوغ الحكم كما فى قوله « والحياة نسيج ساذج توشيه الأسفار ، والعمر صحيفة ملساء تنقشها الأخطار . والمرء كالدينار منفعته فى تداوله واغترابه ، وضياعه فى اكتنازه واحتجابه » .

رابعاً — استخدام ألفاظ القرآن فضلا عن الاستشهاد به .

أما الاستشهاد فمن قوله تعالى: « وترى الجبال تحسبها جامدة.. » الخ وقوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ... الخ .

وأما ألفاظ القرآن فكثيرة ، ومنها قوله : إن الله جلت قدرته قد علمك من لدنه علماً الخ. وقوله: واطلب لنفسك طريقاً وسطاً لا تضل فيه ولا تخشى. وقوله : فسح بيده على عيني .. وقال انظر فبصرك اليوم حديد . وقوله : وقد تغلبت جيوش العواصف وقضى الأمر . وقوله : وهذه وجوههم مصفرة وأفئدتهم هواء ... الخ .

خامساً — وهى الأهم — اعتماد الكاتب على تشخيص المعانى المجردة بطريقة لم يألفها الأدب العربى من قبل إلا فى أوقات قليلة نادرة ، وقد يسمى بعض الأدباء هذه الطريقة رمزاً . وقد يسمونه تشخيصاً . والرمز والتشخيص كلاهما من طرق الأداء بالجملة التى لا يقوى عليها غير الأدباء الموهوبين القادرين على رسم الصورة ، ومراعاة الجو المحيط بها أو الإطار الذى ترسم فيه .

وانظر إلى المويلحى حين يصور الأمل فيقول :

« فنظرت ويا هول مانظرت — نظرت قوما حافين بزوال عليه ثوب كطيف الشمس، يلمع لمعان الآل ، وقد قبض كل واحد منهم على شعاع من ذلك الطيف ، فراقنى منظره ، فسألت الشيخ فقال : هذا هو الأمل !

ثم صور الكاتب الباطل بنفس هذه الطريقة حيث قال :

ثم أعدت النظر فإذا أنا أرى شخصاً ضخماً عظيم الفاقة يتبعه الناس من جميع الطبقات ، وهم متكاتفون على لثم حذائه ، ولمس طرف من ردائه . فسألت الشيخ : من هذا العظيم ؟

فقال : هذا هو الباطل » .

ثم صور الكاتب الحق بنفس الطريقة السابقة أيضاً فقال :

ثم تحولت بنظرى فإذا أنا أرى شخصاً ضئيلا منزوياً تتحامى طريقه الناس ، وتتحاشى النظر إليه ، وهو حاسر الرأس ، عارى الجسد ، لا سمل ولا طمر . فسألت الشيخ من هذا المسكين ؟ فقال : هذا هو الحق .

وبنفس هذه الطريقة أيضاً صور لنا الكاتب معنى الألم ومعنى السأم ، وحصر الأول بالفقراء ، وألصق الثانى بالأغنياء ، وتكشفت له الدنيا عن حقيقتها فى معاملة الأحياء . وصاح الرجل فى نفسه : ما أبشع هذا الوجود الذى لا راحة فيه لغنى ولا لفقير ... الخ .

الحق أن قارىء هذه القصة ينتقل فيها من لذة إلى لذة ، ومن فائدة إلى فائدة ، ولا ينفك يعجب إعجاباً مستمراً بكاتبها ، وينظر إليه أيضاً على أنه فتح على الكتاب باباً كان موصداً عليهم أزماناً طويلة ، وهذا الباب الموصد هو القصة .

* * *

وإلى القارىء قطعة من (حديث عيسى بن هشام) لمحمد المويلحى رأينا أن نثبتها فى هذا الفصل لتسهل الموازنة بينها وبين القطعة التى نقلناها

من (حديث موسى بن عصام) . ولعل القارىء — بعد أن يغوص إلى روح هذه القطعة التى تنقلها ويمعن النظر فى أسلوبها أن يوافقنا على الرأى الذى ذهبنا إليه من أن المويلحى الكبير هو صاحب (موسى بن عصام) وأن المويلحى الصغير هو صاحب (عيسى بن هشام) وأنه لا محل للمنازعة فى ذلك.

وكما توخينا أن تنقل للقارىء أول جزء من أجزاء القصة التى كتبها الوالد أو الأستاذ فكذلك نتوخى أن ننقل له أول جزء من أجزاء القصة التى كتبها الابن أو التلميذ ، وهى كما يلى :

العـــبرة

حدثنا عيسى بن هشام قال : رأيت فى المنام كأنى فى صحراء الإمام ، أمشى بين القبور والرجام ، ليلة زهراء قمراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، فيكاد فى سنا نورها ينظم الدر ثاقبه ، ويرقب الذر راقبه ، وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور ، وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكبره ، وشموخه بمجده وفخره ، وإغراقه فى دعواه ، وإسرافه فى هواه ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لرمسه . فقد شمخ المغرور بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكباراً لما جمع ، واستعلاء بما ملك فأرغمه الموت ، فسد بذلك الأنف شقاً فى لحده ، بعد أن وارى تحت صفائحه صحائف عزه ومجده ، وما زلت أسير وأتفكر ، وأجول وأتدبر ، حتى تذكرت فى خطاى فوق رمال الصحراء قول الشاعر الحكيم أبى العلا :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد
سر إن استطعت فى الهواء رويداً لا اختيالا على رفات العباد

فقرعت سن الندم ، وخففت وطء القدم . وأن فى دهماء أولئك الأموات ، وغمار تلك الرمم والرفات ، لمباسم طالما خول العاشق قبلته لقبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بغبار الغبراء ، واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء . وتذكرت أن تلك الخدود التى كان يغار منها الورد فيبكى بدموع الندى ، ويشتمل الفؤاد منها بنار الجوى ، ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران ، أو ابن ماء السماء فى شقائق النعمان ، ويترقرق فيها ماء الحياة وماء الشباب ، قد طوى الدهر حسنها على الكتاب ، وصار بحكم القضاء أديما لوجه القضاء . وأن تلك العيون التى صادت بأهدابها الملوك الصيد ، فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد ، وسحرت ببابل هاروت وماروت ، وأوقفت موقف الاستكانة رب الجلال والجبروت ، يلتمس — والتاج فوق يمينه ، وعرق الحياء فوق جبينه — من خلال لحظاتها قبولا ، كسائل يمد لالتماس الإحسان كشكولا ، قد أمست تراباً تحت الرمس ، كأن لم تغن بالأمس .

وأن ذلك الفاحم الأثيث من الشعر ، الخاطف ببريقه سواد القلب والبصر ، قد حصدته من منابته يد الزمن ، فنسج الأجل منه ثوب الكفن ، وأن تلك النهود التى كأنها حقائق من لجين ، تزينت بحب من المرجان ، أو كرات من جليد انبثق فيها زهر من الرمان ، قد أصبحت كالمخلاة على الصدر ، تحمل الزاد لدود القبر .

كم صائن عن قبلة خده   سلطت الأرض على حده
وحامل ثقل الثرى جيده   وكان يشكو الضعف من عقده

وأن تلك الرفات والعظام ، من بقايا الملوك العظام ، الذين كانوا يستصغرون الأرض داراً ، ويحاولون عند النجوم جواراً . وتلك الضلوع التى انحنت على البطش والحلم ، والشفاه التى طالما لفظت أمر الحرب والسلم ، وتلك الأنامل التى كانت تبرى القلم للكتاب ، وتبرى بالسيوف الرقاب ،

وتلك الوجوه والرءوس ، التى استعبدت الأبدان والنفوس ، ووصفت تارة بالبدور وتارة بالشموس ، قد تساوى الرئيس فيها بالمرءوس فلا تفريق اليوم ولا تمييز ؟ بين الذليل منها والعزيز :

هو الموت مثر عنده مثل مقتر وقاصد نهج مثل آخر ناكب
ودرع الفتى فى حكمه درع غادة وأبيات كسرى من بيوت العناكب
ترجل فى غبراء والخطب فارس ومازال فى الأهلين أشرف راكب
وما النعش إلا كالسفينة راميا بغرقاه فى بحر الردى المتراكب

وبينا أنا فى هذه المواعظ والعبر ، وتلك الخواطر والفكر ، أتأمل فى عجائب الحدثان ، وأعجب من تقلب الأزمان ، مستغرقا فى بدائع المقدور ، مستهديا للبحث فى أسرار البعث والنشور ، إذ برجة عنيفة من خلفى ، كادت تقضى بحتفى ، فالتفت التفاتة الخائف المذعور ، فرأيت قبراً انشق من بين تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ، عليه بها المهابة والجلالة ، ورواء الشرف والنبالة ، فصعقت من هول الوهل والوجل ، ضعقة موسى يوم دك الجبل . ولما أفقت من غشيتى ، وانتهيت من دهشتى ، أخذت أسرع فى مشيتى ، فسمعته ينادينى ، وأبصرته يدانينى . فوقفت امتثالا لأمره ، واتقاء لشره ، ثم دار الحديث بيننا وجرى ، على نحو ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) : ما اسمك أيها الرجل وما عملك وما الذى جاء بك ؟

فقلت فى نفسى . حقا إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين ، فهو يسأل على أسلوبهما . فاللهم أنقذنى من الضيق ، وأوسع لى فى الطريق . لأخلص من مناقشة الحساب ، وأكتفى شر هذا العذاب ، ثم التفت إليه فأجبته .

(عيسى بن هشام) : اسمى عيسى بن هشام ، وعملى صناعة الأقلام .

وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر ، فهى عندى أوعظ من خطب المنابر .

(الدفين) : وأين دواتك — يامعلم عيسى — ودفترك ؟ .

(عيسى بن هشام) : أنا لست من كتاب الحساب والديوان ، ولكنى من كتاب الإنشاء والبيان .

(الدفين) : لا بأس بك فاذهب أيها الكاتب المنشىء فاطلب لى ثيابى ، وليأتونى بفرسى (دحمان) .

(عيسى بن هشام) : وأين ياسيدى بيتكم فإنى لا أعرفه ؟

(الدفين) مشمئزاً — قل بالله من أى الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لى أنك لست من أهل مصر . إذ ليس فى القطر كله من أحد يجهل بيت (أحمد باشا المنيكلى) ناظر الجهادية المصرية ! !

(عيسى بن هشام) أعلم أيها الباشا أننى رجل من صميم أهل مصر ، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت فى مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها . فإذا تفضلت وأوضحت لى شارع بيتكم ، وزقاقه ورقمه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه .

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلا . فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها ؟ وهل هى (أفادات أحكام) ؟ أو (غسا كرنظام)؟ والأولى أن تناولينى رداءك أستتر به ، وتصاحبنى حتى أصل بيتى .. الخ .

وقارىء هذه القصة يشهد أولا بأن بينها وبين القصص القرآنى . ومنه قصة أهل الكهف — شبها من ناحية الفكرة . كما يشهد بأن بينها وبين المقامة العربية شبهاً قوياً من ناحية الأسلوب .

ثم إن قارىء هذه القصة إذ يأخذ فى قراءة (حديث عيسى بن هشام) ليجد بينه وبين (حديث موسى بن عصام) من أوجه الشبه ما قد يحمل على

الظن بأن مؤلف الحديثين واحد : وقد سمعت بنفسى بعض الشيوخ فى وقتنا هذا يذهبون إلى هذا الرأى ، ويظنون فى المويلحى الكبير أنه صاحب الحديثين ، وأنه ليس لولده محمد من فضل فى هذه القصة غير التوقيع .

غير أنه على الرغم من وجوه الشبه بين الحديثين فإن الذوق يشهد كذلك باختلافهما اختلافا يقوى عندى الظن بأن أحد الحديثين لإبراهيم ، وأن الآخر لولده محمد .

وإليك بعض وجوه الاختلاف :

أولا — تتلاحق الصور البيانية تلاحقاً كبيراً ، وعلى مدى فسيح فى حديث تلاحقاً (عيسى بن هشام) بينما تقل إلى حد الاعتدال فى حديث (موسى بن عصام) وهذا اختلاف بينهما من حيث الكم .

ثانياً — ليس الفرق بين هذه الصور البيانية فى الحديثين فرقاً فقط من حيث الكم ، بل هو فرق من حيث الكيف فى نفس الوقت . ومن ثم جاءت صور المويلحى الصغير على تلاحقها وكثرتها صارخة إن صح هذا التعبير . وجاءت صور المويلحى الكبير أدنى إلى الوقار والهدوء . وإذا جاز أن نعبر عن ذلك بطريق الألوان والأصباغ قلنا أن المويلحى الصغير كان يحب منها اللون الزاهى البراق ، فى حين أن أباه كان يؤثر عليه اللون الهادىء قليل اللمعان .

ونستطيع أن نلخص هذه الملاحظة التى نلاحظها على أسلوب هذين الرجلين بقولنا أن أسلوب أحدهما — وهو المويلحى الصغير — يمتاز بالجمال وأن أسلوب الثانى — وهو المويلحى الكبير — يمتاز بالجلال .

والنقاد المحدثون يعرفون كيف يفرقون تفرقة واضحة بين هاتين الصفتين من صفات الأسلوب . ونستطيع نحن — على أساس هذه التفرقة أيضاً — أن نفرق بين هذين الكاتبين .

ثالثاً — على أن بينهما فرقاً آخر من حيث الأداء. فقد نحى إبراهيم منحى التشخيص المادى للمعانى المجردة . ونجح نجاحاً كبيراً فى هذا التشخيص وكان ذلك عنصراً من عناصر (الجلال) فى الأسلوب الذى كتب به هذا الحديث.

أما ولده محمد فلم يسلك هذه السبيل من سبل التعبير ، بل حصر همه فى تأليف الصور البيانية التى أشرنا إليها على النحو الذى أشرنا إليه. فكان صنيعه هذا صنيع رجل فنان يتعشق الجمال، ويجرى وراء الزينة اللفظية جرى كتاب المقامات وراء هذه الأشياء . حتى لكأنها الغاية الأولى والأخيرة من كتابة القصة .

والكاتبان الكبيران يشتركان بعد فى أكثر الخصائص الأدبية التى أشرنا إليها ، ومنها الاستشهاد بالأشعار، والتضمين من القرآن ، والسجع ، والطباق، والترادف الصوتى للعبارة ، أو التقسيم الموسيقى للألفاظ ، مع المبالغة الواضحة من جانب الكاتبين معاً فى تلك الخصال .

ومهما يكن الأمر فإن قارىء الحديثين أو القصتين يشعر شعوراً واضحاً بأن (حديث موسى بن عصام) من إنشاء كاتب طال عهده بصناعة الكتابة، كما طال عهده بمعرفة الناس والأيام ، وأن (حديث عيسى بن هشام) من إنشاء كاتب حديث العهد بالكتابة بالقياس إلى الكاتب الأول. وأكبر الظن أنهما كان يشتركان — إلى حد ما — فى هذا النتاج الأدبى الممتاز ، وأن أحدهما كان يقف من الآخر موقف التلميذ من الأستاذ .

خامساً — وآخر ما يقال فى الموازنة بين هذين الكاتبين هو نزوع أحدهما — وهو المويلحى الكبير — فى قصته منزع الفلسفة ومحاولة الغوص إلى أعماق النفس البشرية دائماً، ونزوع الثانى — وهو المويلحى الصغير — فى قصته منزع الناقد للمجتمع . أى أن الفرق بينهما كالفرق بين رجل

يشرف على الحياة من أعلى الجبل،ورجل يضطرب فى الحياة نفسها ، ويخالط الناس أنفسهم عند السفح. وهكذا كان إبراهيم محلقاً فى السماء ، بينما كان ابنه محمد ماشيا على الأرض .

كم كنا نود من أعماق نفوسنا أن نجد إبراهيم قد أتم قصته ، وأخرجها كتاباً يقرؤه الناس فى عصره وبعد عصره .

وإننا لنأسف كل الأسف حين لم نجد إبراهيم قد مضى فى كتابة قصته. ونظر التاريخ الأدبى إلى كتابه « حديث عيسى بن هشام » على أنه أول قصة مصرية فى تاريخ الأدب المصرى الحديث ، كما نظر إلى مؤلفه محمد المويلحى على أنه رائد من رواد النهضة الأدبية إلى هذا اللون الطريف من ألوان الأدب وهو القصص .

* * *

وهكذا ظهرت القصة المؤلفة أول ماظهرت فى مصر الحديثة على صفحات « مصباح الشرق » . أما القصة المترجمة فقد سبقتها إلى الظهور على صفحات جريدة « وادى النيل » . والعجيب أن تلك القصة المترجمة كانت متأثرة فى أسلوبها بالمقامة العربيـة كما ذكرنا ذلك فى الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب وبقى أسلوب المقامة يحتذى فى القصة المصرية على يد ذينك الكاتبين الكبيرين .

ثم لم يدل الحال على ذلك إلا ريثما ولى كتابة القصة المصرية رعيل جديد من الأدباء الذين تأثروا من جديد أيضاً بأوروبا . فطفقوا يكتبون القصة بأسلوب مطلق من قيود السجع ، ومن قيود الزينة ، ومن قيود المـاضى القديم للأدب العربى .

الفصل الخامس

إبراهيم المويلحى

فى مقالات « ما هنالك »

كان السلطان عبد الحميد كلما سمع بعالم أو أديب أو فيلسوف أو سياسى ذاع صيته وطارت شهرته فى آفاق مملكته يحرص على أن يدعو إليه هذا الرجل ليعيش على مقربة منه ومسمع بعاصمة الخلافة. وهنالك كان عبد الحميد يوفر له أسباب العيش الرغيد فى قصر من قصور هذه المدينة الكبيرة ، حيث يعيش هذا الكاتب أو العالم أو السياسى أو الأديب فى قفص من ذهب ، كهذا الذى حبس فيه السلطان يوما ما السيد جمال الدين الأفغانى مرة ، والسيد النديم مرة أخرى ، ثم السيد إبراهيم المويلحى آخر الأمر .

وسافر المويلحى إلى الأستانة بدعوة من السلطان . وبعد تردد قصير لم يدم إلا ريثما ضمأنه ابنه على حسن نية السلطان ، بادر إبراهيم المويلحى إلى الذهاب إلى الأستانة ، وإذ ذاك حظى بمقابلة السلطان الذى غمره بعطفه وإكرامه منذ اللحظة الأولى من قدومه. وكان خليقاً بإبراهيم أن ينعم بهذه الحياة الجديدة التى فتحت له أبوابها فى عاصمة الخلافة ، ولكن الزمن الذى يعكر الصفو على الناس لم يشأ أن يتيح لإبراهيم هذه الحياة الهادئة الناعمة . وكيف تهدأ الحياة فى هذه المدينة التى تموج بالكائدين والدساسين، وأصحاب الشهوات والمطامع الرفيعة والخسيسة ؟ بل كيف تهدأ الحياة فى هذه المدينة التى يدرك المقيم فيها بعد زمن قصير أن كل إنسان فيها عين على بقية الناس، وأذن صاغية لأصواتهم وحركاتهم وهمساتهم ونجواهم؛ ولعل فيها شيئا يصح أن يعلم به السلطان .

هنالك — فى الآستانة — فتح المويلحى عينه على حياة غريبة كل الغرابة. ومع أنه كان لهذا الأديب عهد بحياة الملوك ، وكانت له معرفة بأخلاقهم وأخلاق حاشيتهم ومن يلوذ بهم فإن نظره وقع فى الآستانة على حياة أشد تعقيداً وأكثر ظلاماً وأدنى إلى الرياء والنفاق ، وأقرب إلى الفخامة الكاذبة والفخامة الباطلة من الحياة التى رآها فى مصر . هنالك رأى ملكا يقوم على الجهل، وسلطاناً يقوم على الذعر، وحكومة لاعمل لها إلا الدس أو الكيد، وشعباً غارقاً فى نومه وجهالته ، تاركا أمر دينه ودنياه لرجل لا يعرف من الدين والدنيا غير نفسه وما يجب لها من الرعاية والصون . بل هنالك رأى دولة توشك أن تنتفض لا يكاد يمسكها عماد من علم ، أو رباط من عدل ، تلك هى الدولة العثمانية فى شيخوختها وقرب نهايتها ، أى فى الوقت الذى كانت فيه آيلة إلى سقوط ، مائلة إلى انحدار ، هاوية إلى حضيض الشيخوخة تمثل (الرجل المريض) ، وقد أخذته ساعات الاحتضار ، والناس من حوله ينتظرون أن يلفظ النفس الأخير ليخلى بينهم وبين ما ترك من مال وثروة.

شهد إبراهيم المويلحى الدولة العثمانية وهى فى هذه الحال من الضعف والهرم والفساد والانحلال . وكان من حظ التاريخ أن يشهد المويلحى هذه الدولة وهى بهذه الحال التى ذكرنا . وذلك لأن التاريخ يعنى أولا بتسجيل الأحداث الكبار . وأى حدث أكبر من حادث انهيار الدولة العثمانية أو جنوحها إلى الانهيار . . بل كان من حظ الأدب نفسه أن وجد إبراهيم المويلحى فى الآستانة فى تلك الفترة من حياة الخلافة . وذلك أن الأدب فن التعبير والجمال . وأى كاتب كان أقوى إذ ذاك من إبراهيم فى الإنشاء ، وأقدر منه على تصوير هذه الدولة وهى فى طريقها إلى الفناء؟ غير أن إبراهيم إنما كان يصف فى مقالاته الدولة ورجالها وصفاً لا مبالغة فيه من جهة ، ولا مقصد من ورائه غير النصيحة للمسلمين فى مصر وتركيا ليتداركوا الأمر قبل فواته ويقيموا من بناء الدولة ما أوشك أن ينقض على بناته ، من جهة ثانية .

ولقد كتب إبراهيم المويلحى بعد هذه المقالات وهو فى الآستانة . وكان يبعث بها سراً إلى جريدة المقطم بمصر لنشرها هناك . واستمر إبراهيم فى نشر هذه المقالات حتى علم بها رجال السلطان فخفوا عن فورهم للقبض عليه ، ولكنه نجا منهم بحيلة عجيبة أشرنا من قبل إليها فى ترجمة حياته ، وإذ ذاك عاد السلطان فقرب إليه إبراهيم وغمره بفيضه ونعمه .

ولم تطل مدة إقامة المويلحى فى الآستانة أكثر من عشر سنوات ، اضطر بعدها إلى العودة إلى مصر تاركا وراءه تلك المدينة العاصفة أو البحر الهائج، بحر السياسة المضطرب فى مدينة الخلافة[1] . والعجب حقاً من أن ينجو رجل كإبراهيم المويلحى من تلك العواصف الهوج ويستطيع أن يصل بسفينته إلى بر السلامة .

وفى مصر عاد المويلحى إلى كتابة ما بقى من هذه المقالات التى وصف فيها القصر السلطانى ، وكشف للناس عن خفايا الحياة التى يحياها السلطان ورجاله فى ذلك القصر ، بل عن تلك المآسى التى يمثلها التاريخ على مسرح (يلدز) . ثم بدا للمويلحى بعد ذلك أن يجمع هذه المقالات فى كتاب سماه « ما هنالك » ونشره غفلا من الإمضاء . ولكن السلطان ما كاد يعلم بأمر هذا الكتاب حتى أمر بنسخه أن تجمع ، ويبعث بها إليه . فجمع المويلحى بنفسه هذه النسخ وأرسلها إلى السلطان . وبذلك أمن على نفسه بطش ذلك الجبار ! غير أن بعض نسخ من هذا الكتاب كانت قد تسربت إلى بعض أصدقاء المؤلف ولعل منها هذه النسخة التى بأيدينا الآن[2].

---

(١) زعم العثمانيون لأنفسهم أنهم استحقوا لقب الخلافة منذ انتصروا على المماليك وأخذوا منهم مصر سنة ١٥١٧ م . والتاريخ يحدث أن هؤلاء المماليك نقلوا الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة .

(٢) وهى النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٨٥ ، أدب .

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وثلاث عشرة مقالة ، وكلمة ختامية ذكر فيها الغرض الذى من أجله كتب هذه المقالات :

أما المقدمة فعنوانها « الدين والنصيحة » وفى أولها يذكر الكاتب «أن منا من يتظاهر بأن تنبيه الدولة إلى ما هى عليه من سوء الحال مروق وضلال . وليته مع ذلك يكتفى من هداه بالإمساك عن التنبيه بل يتطرف إلى تحسين القبيح وتزيين السوء وإطراء النميم إلى مثل ذلك مما يزيد الدولة تورطا فى المزالق وتوغلا فى الخلل وتخبطا فى الفساد وشططا عن السداد ويتبجح بأن هذا هو الحب والإخلاص والولاء . فياليت شعرى ما عسى أن يكون البغض والغش والتلبيس لديه بعد هذا . وقد لا يبلغ العدو من عدوه بالحرب والقتال ما يبلغ منه بهذا التوريط والتضليل » .

وتأتى بعد ذلك (المقالة الأولى) وعنوانها « أحوال السلطة العثمانية » وفيها يصف الكاتب بعض الظروف التى اعتلى فيها عبد الحميد عرش السلطنة ثم يقول :

« وكان من سوء حظ العثمانيين أن طاف حول العرش الحميدى زمرة مختلفة الأجناس والأنواع من نزاع الآفاق . ولما تمكنوا بحيلتهم ودهائهم من الثقة بهم والركون إليهم رأوا أن أغراضهم لا تنال، ومراكزهم لا تحفظ ، وراحتهم لا تدوم ، إلا بإشغال جلالته بمضاعفة إيجاس الخيفة من كل شىء واختلاس أوقاته التى تحتاج إليها مصالح الدولة فتدرجوا إلى ما ابتغوا — والتدريج قائد الإفراط — حتى وصلوا إلى ما لا تصدق ناقله إلا قاسمك الإيمان المغلظة عليه . . . ولما رأى الناشئون أن الرتب والوظائف لا تنال إلا بالتجسس وإظهار الجبن أخذوا يتسابقون حتى وصلوا إلى غايات يمجها السمع وينفر منها الطبع ويبكى لها العثمانى الحر ، بل ربما انتقل من البكاء إلى الضحك طفرة » .

وتأتى بعد ذلك (المقالة الثانية) وعنوانها «المـابين»[١] وفيها يبدأ المويلحى فى وصف قصر السلطان ويقول: «وفى السراى دوائر منها دائرة الجيب الهمايونى. ودائرة الباشكاتب ودائرة المابنجية، ودائرة الباش أغا. وكان بها دائرة مخصوصة لرئيس الخفيات (أى الجواسيس) ولكن لما عم التجسس بطل ذلك الاختصاص» وانتقل الكاتب إلى الكلام عن أهل السراى، ممهداً لذلك ببعض الكلمات التى أثرت عن الأوروبيين فى وصف «رجل البلاط» Courtisan (ليس فى جميع اللغات كلمة تجمع بمفردها من الرذائل ماتجمعه كلمة «كورتيزان» أى أهل البلاط والبطانة والحاشية) ونحو (إن للكورتيزان ثلاث خواص من خواص المرمر فهو ثقيل بارد أملس كغطاء القبر فلا يعدمه الملوك فى الحيـــاة ولا فى الممات). ثم أخذ المويلحى يصف الدائرة الأولى من دوائر المـابين وهى «دائرة الجيب الهمايونى» وانتهى بذلك المقال.

وفى المقالة الثالثة وعنوانها (دائرة الباشكاتب فى المابين) مضى المويلحى فى وصفه لهذه الدائرة وقال «وعلى الباشكاتب ترد جميع الأوراق الرسمية من الباب العالى ومن المشيخة الإسلامية ومن سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنه إلى الباب العالى وجميع الجهات وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية فيتلقى عنها الإرادات بتبليغ المابنجية أو من يأمره جلالة السلطان بالتبليغ من الذين فى الحضرة الشاهانية. والباشكاتب يبعث بالإرادات السنية بإمضائه فى أوراق صغيرة إلى الصدر الأعظم أو إلى من تخصهم من الوكلاء والوزراء» ثم قال المويلحى.

---

(١) يقول المويلحى فى تفسير كلمة المابين:
هذه الكلمة تطلق فى اللغة التركية على الحجرة التى لها بابان باب إلى جهة الحرم وباب إلى الخدم ثم اختصت بالسراى السلطانية، ولفظ السراى لايطلق فى الأستانة إلا على بيت السلطنة بخلاف ما نراه فى مصر انظر «ما هنالك» ص ٢٤.

وأغوثاه . لقدكانت ورقة من هذه الأوراق تنشر القانون الأساسى وتجمع مجلس المبعوثان وتدفع عن الدولة غوائل التدخل الأجنبى وترفع شأن العثمانيين . ولكن واحسرتاه يصدر اليوم عشرات منها فى النهار لتفتيش بيت زيد أو استنطاق عمرو أو إبعاد خالد أو سجن بكر . . . الخ » .

ثم فى (المقالة الرابعة) وعنوانها « دائرة المابينجية فى المابين » يبادر الكاتب إلى قوله : « وما سار رمى به الليل وحيداً فى غابة التفت أشجارها ، وتكاثفت ظلماؤها ، وتجاوبت رياحها ، وعزفت جنانها ، وزأرت أسودها ، وترامت على أقدامه أفاعيها وسودها ، لا يهتدى لطريق يسلكه ، ولا يجد موتاً وحياً يهلكه بأخوف ممن يطأ هذه الدائرة لشرهم المطلق فى الناس ، وخيرهم المقيد لأنفسهم . بوقوفهم على باب فيه النعم والنقم ، والعز والذل ، والحرية والاستعباد ، والشورى والاستبداد ، والسعادة والشقاء ، والحياة والفناء لدى خليفة عظم وسلطان كبير :

له لحظات فى حفافى سريره　　إذا كرها فيها عقاب ونائل

إلى أن يقول : « وهم ستة وسابعهم رئيسهم الحاج على (بك) » .

وأشار المويلحى فى ثنايا الحديث عن هؤلاء الأمناء أو « المابينجية » إلى أن أمرهم قد اختلط فى أذهان الناس بالمشايخ الذين كانوا ينازعون هؤلاء الأمناء سلطانهم فى قصر الخلافة : « وكان أحدهم — وهو راغب (بك) — يونانى الأصل وله وظيفة أخرى غير المابينجية ، وهى استنطاق المأمورين كما أن من وظائف الشيخ أبى الهدى (الصيادى) استنطاق العلماء ، وهما يتعاوران ملاءة الفخر فى الوقوف على الأسرار السلطانية » . ثم يعمد المويلحى إلى السخرية بهذا الشيخ فيقول (إلا أن الشيخ أبا الهدى ترفع عن كسب المال لطلب المجد المؤثل كما قال رصيفه أمرؤ القيس :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة　　كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل　　وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وراغب (بك) قدسبق الجميع فى شهرة الاستنطاق على ثور « فالاريس »[١] كما أن الشيخ أبا الهدى وضع الجميع فى تنور ابن الزيات[٢] بمهارته وتدقيقه.

ثم تأتى (المقالة الخامسة) وعنوانها « دائرة الباشى أغا أو قزلر أغاسى[٣] فى المابين »، وفيها يتحدث الكاتب عما آلت إليه حالة الدولة العثمانية من الضعف والهزال ويصور انسلاخ الممالك العثمانية عن جسم السلطنة جزءاً بعد جزء بقوله — (لو قام من القبر راشد (باشا) الصدر الأعظم وصاحباه على (باشا) وفؤاد (باشا) وسألوا رجلا فى طريقهم عما جرى على الدولة بعدهم وقال لهم: قد انفصلت رومانيا، واستقل الصرب، وزال الجبل الأسود، وذهب الروم إيلى الشرقى، وانفصمت البلغار، وضاعت قبرص، وبانت تونس، وانسلخت بوسنة وهرسك، وانقطعت باطوم، وخرجت قارص وأردهان، وانحلت تساليا، ووقعت زيلع، وطاحت مصوع، وترك السودان، وهذه مصر فى أيدى الإنكليز — هذا قسم ضاع وانتهى فيه النزاع — وسورية ترصدها فرنسا، وطرابلس الغرب ترمقها إيطاليا، ومقدونية تشير إليها البلغار، وقوصوه ترقبها الصرب، ويانيا وكريدومنستر وساموس تكاد تخطفها اليونان، وولايات أرمينيا تطلب الاستقلال أو الإصلاح — هذا القسم فى النزع — والبصرة وبغداد تشيع أهلهما بسعى حكومة إيران، واليمن فى العصيان، والمسلمون فى خوف على الحجاز، ولم

---

(١) فالاريس طاغية حكم فى صقلية قبل الميلاد بنحو ستمائة سنة ويضرب به المثل فى الظلم والقسوة حتى لقبه شيشرون بطاغية الطغاة ورجمته رعيته بالأحجار فقتلته كفاً لشره وتخلصاً من قسوته. ويرى أن صانعاً ماهراً اسمه بارلس صنع ثوراً له من نحاس يحمى بالنار ويعذب الناس فى جوفهم حتى يموتوا وهو يطرب بسماع أنينهم فكان أول من جرب الثور فيه بارلس نفسه.

(٢) ابن الزيات وزير المعتصم روى أنه اتخذ فى أيام وزارته تنوراً من حديد وأطراف مساميره ممدودة إلى الداخل وهى قائمة مثل رؤوس المسال. وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال. فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه فيجدون لذلك أشد الألم. انظر « ما هنالك » ص٤١.

(٣) قزلر أغاسى لفظ تركى معناه أغا الحريم.

يبق إلا حلب وأدرنة وأزمير وبروسة خالصة لجـــلالة السلطان ، وسفن الدولة قد أكلها الصدأ فى قرن الذهب بعناية حسن (باشا) وأسراره العميقة ، وسفن الإنكليز على شواطى البلاد العثمانية ، والناس يشتكون من اغتصاب المأمورين لأراضيهم ، وإدخالها فى الأراضى السنية والجفالك السلطانية ، ولا ميزانية للمالية ، ولا نظام للعدلية ، ولا شغل فى الباب العالى بحسن السكوت عليه ، وصار مجلس الوكلاء بعدكم تتلاكم فيه الوزراء ، والعساكر فى الولايات قد عجز القلم عند وصفهم ووصف أسمالهم وأطمارهم البالية ، وسلم القلم الأمر فى وصفهم إلى الفوتوغرافيا .

وأصبح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وقالوا له بعد أن اغرورقت عيونهم بالدمع — هذه كفة الخسران فهل فى كفة الربح شىء يذكر ؟

فإذا قال لهم بناء سبعين تكية وتصليح عشرين مسجداً وزيارة إمبراطور ألمانيا للآستانة وإحياء اسم الخلافة بعد أن كانت مهملة لا يتقلب بها سلاطين آل عثمان ، وزيادة الألقاب المقدسة ومضاعفة عدد النياشين لقالوا : سلمنا بأن هذه محسنات لا تنكر ولكن لا يوزن الجندل بالخردل ، ولعادوا مهرولين إلى قبورهم ينشدون :

يا ويلنا أفما لنا من صارخ إلا بثغر ضاع أو دين عفا
فمدينة من بعد أخرى تستبى وطريقة فى إثر أخرى تعتفى
ها مصر قد أودت وأودى أهلها إلا قليلا والحجـــاز على شفا
... إلخ .

ثم أخذ الكاتب يصف أخلاق الباش أغا وغروره وجهله وحماقته وماجره على الدولة من خسران . وساق لذلك طائفة من الأمثلة منها قوله :

(أتريد أيها القارىء أن تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة ؟ أرادت الدولة أن تقبض على مدحت (باشا) وهو وال على أزمير فهرب إلى قنصل فرنسا فطلبته الدولة فتوقفت فرنسا فى تسليمه .

وانتهت المسألة بين الدولتين بعد المخابرات على أن فرنسا تسلمه بالشمال وتستلم تونس باليمين . وتم الأمر واشترت الدولة رجلا واحداً بمملكة !!! فما أغلى قيمة الرجال عندها !!!

ويمضى الكاتب فى سخريته بهذا الباشأغا إلى أن يقول (ومازال بهرام له النظر الأعلى فى طوالع النفوس ، والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس ، ولا معقب لحكمه ، ويأمر ولا راد لأمره ، ويشمخ بأنفه على الفحول أصحاب السيف والعلم والكتاب والقلم ويكبر على عترة الرسول وأولاد البتول فيمد رجله فى وجوه كرمها الله — لتقبيلها — ولا يردعه رادع الإيمان ولا يزعه وازع القرآن أن يقف عند حده مع أهل بيت نزل الكتاب عليهم وفيهم) .

ومما جاء فى هذا الفصل قوله فى معرض التهكم بالسلطان فى اختياره الحجاز الذى هو قبلة المسلمين منفى للمجرمين والسفاكين :

(يستغيث القلم أن يكتب هذا الفصل وهو أن العادة جرت من زمن قريب أن المجرمين والقاتلين والمتهمين ينفون إلى الحرمين الشريفين فيبعث بهم ثبا ثبا وفرادى مغضوباً عليهم من بيت السلطان إلى بيت الرحمن) .

ثم تأتى (المقالة السادسة) وعنوانها « دائرة الياوران فى المابين » وفيها يذكر الكاتب أن هذه الدائرة تتألف من ثلاثة أقسام ياور — وياور أكرم — وياور فخرى — وسرياور (أى رئيس الياوران) . فالياوران الأكارم ينيفون على عشرين كلهم من أعاظم المشيرين . والياوران مائة وعشرون — والياوران الفخريون فوق مائة وثلاثين ورتبهم مختلفة من رتبة الملازم إلى رتبة المشير) .

قال المؤلف (ولم يجتمع على باب سلطان من السلاطين . ولا ملك من الملوك المتقدمين والمتأخرين ما اجتمع اليوم منهم على الباب الرفيع والسدة السنية ، كما أنه لم يبلغ بعظمة دولة وقوة سلطنة وجلال إمبراطورية وسعة

مملكة فى عهدنا أن يكون فى قوادها عشرة من المشيرين — وللدولة العثمانية المجد الأثيل بأن لها قوادها ستين مشيراً . . . أما الدولة البريطانية فليس فى وسعها ولا فى سعتها إلا تعيين ستة مشيرين أحدهم ولى عهد الملكة والآخر عمها والأربعة الباقون اشتهروا فى حروبها) .

وقد سخر المويلحى من كبار رجال الدولة العليـــة فى نظرهم إلى رتبة الياور الأكرم فى المابين على أنها فوق كل المراتب قدراً ، لا لشىء إلا أنها تدل على معنى الخدمة الخصوصية لذات جلالة السلطان — ثم قال (من هذا وغيره يظهر أن هؤلاء الأفاضل اعتبروا أن السلطنة والدولة والخلافة والأمة والإسلام والمسلمين أشياء خلقهـا البارى عز وجل لخدمة الذات السلطانية — لا أن جلالة السلطان الذى رفعه الله إلى مقام الخلافة هو المسئول المكلف أن يحفظها بنفسه . ونحن ننزه إيمان جلالة السلطان أن يصغى إلى زخرفهم فإن الأمر فى القيام بشأن الخلافة عند الله عظيم) .

ثم تأتى بعد ذلك (المقالة السابعة) وعنوانها (الجواسيس - ولعلها من أهم ما جاء فى هذا الكتاب من مقالات ، وانظر إلى الكاتب القدير كيف بدأها بقوله :

« يهجر الإنسان لذاته ، ويرفض راحة حياته لطلب العلم . ويضرب فى الأرض ويجمع من قوته لنوال الإثراء ، وينازل الأبطال ، ويصارع الأهوال لبلوغ العلياء . حتى إذا مضى العمر إلا الأقل قيل له : طالب علم أو غنى ، أو عظيم القدر .

أما إنسان الآستانة فله طريق إلى العلياء مختصر . ينال الإثراء ، والعلياء وشهرة العلم فى يوم واحد . وليس عليه فى الوصول إلى مطلبه إلا أن يكتب تقريراً ملفقاً يتهم فيه الأبرياء الأمناء ، والصادقين الغافلين ، فتنهال عليه الدنانير ويطلع فى صدره قمر الوسام بازغا وتخاطبه الدولة بالفضيلة والسعادة » .

ثم انظر كيف يصف الكاتب تهافت السلطان على الجواسيس وافتقاره إليهم، وثقته فيهم، وتقربه منهم بقوله على لسان يوسف (باشا) رضا الصديق له:

« إن جلالة السلطان قد تعود أن يسمع من جواسيسه كل يوم خبراً مقلقاً على نفسه، فإذا مر يوم لم يأته فيه مايقلق خاطره على نفسه بقيام فتنة وتشكيل جمعية ظن أنه قد وقع ما يخشاه، وما أتاه خبره، فيبقى متكدراً حتى يكتب له الجواسيس بشيء من هذا القبيل، فيشتغل بتحقيقه. فإذا ظهر له كذبه كغيره من الأخبار السابقة سرى عنه واستراح خاطره ... وقال جلالته يوماً لأحد المقربين إلى السدة السلطانية شاكياً من كثرة الأشغال لديه: إنه وصل لمقامه الأسنى ثلاثة تقارير فى مسافة نقض وضوئه ».

وانظر إلى المويلحى معقباً على هذا بقوله:

ماذا يبقى من الزمن بعد ذلك للدولة وتشييدها، والشريعة وتأييدها والجنود وترتيبها، والأحكام وتقويمها، والمالية وتنظيمها، والمعارف وتعميمها، وعلائق الدول وتوثيقها، والسياسة وتنسيقها، والسفن وتعميرها والمنافع العامة وتكثيرها. لا يبقى من الزمن إلا ما يكفى لسماع تقارير السادة المشايخ، ودس بعضهم على بعض، ليأخذ زيد مكان عمرو، وينال بكر منزلة خالد ».

بل انظر إلى المويلحى كيف يسخر أيضاً من أولئك المشايخ الذين استولوا على عقل السلطان، ويا طول ماسخر هذا الكاتب منهم فى مقالاته من أولها إلى آخرها:

ولو اشتغل الأساتذة الجهابذة فى إقامة الحجة على الأوربيين فى هذه الأيام بأن دين الإسلام ليس كما يزعمون بعيداً عن التمدن والإصلاح، بل هو عدل وإنصاف، وحكمة وهدى، لكان ذلك أولى بقوم تكتب ألقاب أحدهم فى ثلاثة أسطر، فلا يصل القارىء للاسم إلا بعد صفوف من الألقاب! ».

ثم انساق الكاتب بمهارة متفرقة وأساوب أخاذ فى سوق الأمثلة المتعددة من سعايات الجواسيس ، وعناية السلطان بأمر هذه السعايات التى يلفقونها والمؤامرات التى يتخيلونها ، والأخبار التى يزيفونها للناس . حتى لقد أصبح الأب جاسوساً على ولده ، وأصبح الولد جاسوساً على أبيه ، وخيل أن الدولة كلها لم تسخر إلا لهذه الغاية وحدها ، وإن رجال الدولة لا يأخذون رواتبهم إلا لهذا العمل .

ويطول بنا القول لو أردنا أن ننقل طرفاً بسيطاً مما ساقه الكاتب من أمر أولئك الجواسيس ، ويكاد لا يصدقنا القارىء أو يصدق المؤلف إذا أتينا له بأمثلة قليلة من ذلك .

وانظر إلى هذا الكاتب — بعد إذ سرد الكثير من حكايات الجواسيس — كيف يعلق عليها بقوله فى لهجة خطابية واضحة :

« يا كساد العلم ، ورواج الجهل ، ويا شقاء الحق ، وسعادة الباطل ، ويا خيبة الصادق ، ونجاح المنافق . ويا بكاء الأمين ، وضحك الخائن ، أصبحت دار السلطنة التى كانت عريناً للأسود خلايا تطل فيها زنابير الجواسيس وأصبح العالم من شر الجهلاء يوبخ على قواعد العلم يكتبها فى تأليفه ، وأصبح الجاسوس يظلم العلماء يمشى مرحا ويختال تكبراً الخ » .

ثم تأتى بعد ذلك (المقالة الثامنة) ، وعنوانها :

عيد الجلوس السلطانى ، وفيها يقول :

« فى مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٦ جلس على سرير السلطنة وعرش الخلافة جلالة السلطان الغازى عبد الحميد خان الثانى بارثه الشرعى عن آبائه وأجداده غياث الأمم ، وغيوث الديم . أعاد الله هذا اليوم الجليل على الأمة العثمانية وعليه بالعادة والإقبال ، والعز والإجلال الخ » .

وأكبر الظن أن الكاتب إنما كتب هذه المقالة وهو بالآستانة ، وبعث بها يومئذ إلى محرر جريدة « الحقائق » وقد تعرف به — كما قلنا — فى مدينة

الخلافة ، وأظهر له استعداده لوصف المواكب السلطانية بهذه الصحيفة .
وأكبر الظن أيضاً أن المويلحى تناول هذه المقالات التى كتبها بالآستانة بالتهذيب وبالتنقيح ، والحذف والإضافة ، وذلك بعد عودته إلى القاهرة ، واشتغاله بجمع هذه المقالات فى كتابه « ما هنالك » . يدلنا على ذلك ما نقرؤه فى ثنايا هذه المقالات التى وصفت بها أعياد السلطان من عبارات الحزن على مصير الدولة العلية . وإظهار الأسى على ما ضاع من أملاكها فى أوروبا وآسيا ، ثم تاريخ هذه المأساة الكبيرة التى فقدت فيها الخلافة هذه الأملاك ، ثم تدرجه من ذلك إلى ذكر الإصلاحات التى طالب بها مدحت (باشا) ، ثم نفى هذا الرجل إلى أوروبا ، ثم دخول تركيا فى حرب مع روسيا ، ثم استيلاء المشايخ على ذهن السلطان وقلبه فى أثناء هذه الحرب ، وإيهامهم إياه — بطريق الدجل والخداع — أنه سيأسر إمبراطور روسيا ، وأنهم يبشرونه بذلك ، كل ذلك (ومجلس المبعوثان) لا يدعى للاجتماع إلا حين تريد السراى أن تحمله وزر خطأ من الأخطاء أو عاقبة سيئة من العواقب . !

« ولما عظم الخطب ، وفدح الأمر ، وقرب الروس من دار السلطنة ، طلبت الدولة من الدول التوسط لصدهم ، فلم يجبن ، إلا انجلترا ، فإنها لبت الدعوة ، وأرسلت أسطولها فى الحال إلى الدردنيل » .

لست أدرى ماذا أراد الكاتب بهذا المقال ؟ هل أراد به وصف عيد الجلوس السلطانى ، أم رثاء الدولة التى ختم فيها مقاله بهذا البيت من الشعر :

أعرضـــوا عن مدائح وتهـان فالمراثى أولى بنا والتعازى !

ثم أتت (المقالة التاسعة) وعنوانها الجواسيس ، وفيها عاد الكاتب مرة أخرى إلى وصف الجاسوسية فى البلاد ، وأتى بطائفة من نوادرها هناك . وانظر إلى الكاتب كيف بدأ مقاله التاسع بقوله :

« ومن نوادر الوقائع أن رجلا من طرابلس الشام اسمه (عبد الحميد) حضر إلى الآستانة ليحصل على وظيفة من وظائف العدلية فى بلاد الدولة ،

وكان لمنيف (باشا) معرفة به فجاء إليه لعرض العبودية (على اصطلاح أهل الآستانة) فقال له (الباشا) :

متى جئت وفى أى مكان نزلت ؟ قال الرجل : جئت اليوم ونزلت فى يلدز . قال له (الباشا) : كيف ذلك ؟ وقد ظن أنه نزل فى السراى السلطانية،

قال : فى نزل بقرب السركجى اسمه يلدز .

فوقف منيف (باشا) على رجله وقال له :

قم ولا تجلس هنا حتى تنتقل من هذا النزول إلى آخر .

فوقف الرجل مبهوتا لا يدرى سبب هذا الأمر الحتم .

فقال له (الباشا) :

أنسيت أن اسمك عبد الحميد ، واسم هذا النزل يلدز ؟ فأى قارعة من قوارع الدهر ، وأى بائقة من بوائق الزمان تريد أن تنصب على رأسك ورأسنا ؟ .

فكاد الرجل يصعق من هذا الاتفاق الذى لم يرزق التحرز منه ، وخرج يشتم أباه وأمه ! .

ولما وصل إلى النزل وجد نفراً من البوليس ينتظرونه ؛ ولو كان هذا الإرصاد والإسراع فى مصالح الجمهور لسبقنا غيرنا بمراحل ! فأخذوه إلى الاستنطاق ، وما خلص من مضيق الخناق حتى خف عقله وجيبه معاً . وبقى فى الآستانة مدة ببركة هذا الاتفاق لا ينال وظيفة ولا يجد مساعداً » .

أرأيت أيها القارىء سخرية أبلغ ، أو تهكما أشد ، أو ازدراء أنكى من كل ذلك ؟ وهذه حكاية من عشرات الحكايات التى أوردها المويلحى فى كتابه . ولعلها أخفها سخرية ، وأقلها مرارة ، وأدناها إلى الرفق بالسلطان ورجال السلطان .

ومن ثم فنحن نترك هذه الحكايات على كره منا ، ونصل بالقارىء إلى (المقالة العاشرة) . وعنوانها : جلال الخلافة وجمال السلطنة . وانظر إلى

روح التندر السائدة على كتابة الرجل . وقد شاء أن يمهد لوصف المواكب السلطانية بقوله فى بداية هذه المقالة العاشرة :

« إن الممالك تختلف فى تشييد عظمتها اختلافا كبيراً ، فمنها ماتختار له الحديد الذى قال الله تعالى فيه « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . ومنها ما تختار الذهب ، له ترى فيه طريقاً مختصراً لبلوغ الغاية .

ولما كانت السلطنة العثمانية قد فاقت جميع الدول الأوروبية فى الأبهة والفخار بأعظم مقتنيات الزينة رأينا أن نبين مظاهر الجلال ، ومواسم الاحتفال ، ومواكب الأبهة واحداً واحداً ... الخ » .

وبعد أن فرغ الكاتب من وصف بعض هذه المواكب قال «وهنا نذكر حكاية . مر على الآستانة من أقصى المغرب رجل من العامة ، فيه خشونة البادية . ولما رأى الموكب السلطانى ، ووقوف آلاف من العساكر المسلمين لايصلون فى وقت الصلاة سأل أحد مشايخ الحضرة السلطانية بعجرفة لاتليق بأدب الخطاب مع قاضى عسكر (روم ايلى) بقوله :

ياشيخ الآستانة أيجوز فى الشريعة أن يقف عشرة آلاف من المسلمين حول المسجد الجامع ، وقد سمعوا آذان الجمعة ، وشهدوا الناس يصلونها ، ولايجسر أحد منهم أن يصليها للحكم القاهر عليهم ، سبحان الله ياشيخ الآستانة . قد أصبح حكم العبد فوق حكم الرب . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكر الله كثيراً لعلكم تفلحون» وقال الضابط للعساكر : قفوا هنا ولا تصلوا . فأطاع العبد ، وعصى العبدان الرب .

أتريدون نصراً من الله بعد هذا والله يقول : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وإن خذلاننا لدليل عصياننا . إن الله لم يبح للمسلمين ترك الصلاة فى حال من الأحوال . وقد عرفنا الله كيف نصلي صلاة الخوف .

قال تعالى يخاطب الرسول «وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» (الآية) وإن الأئمة نواب رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فى كل عصر، قوام بما كان يقوم به ... الخ، فقال له شيخ الآستانة:

هذه سياسة فيها إرهاب العدو. ألا ترى الأجانب قد احمرت وجوههم عند رؤية هذا الموكب السلطانى؟.. وتغير وجه شيخ الآستانة وقال للفقيه المغربى: إن بقيت فى الآستانة إلى الغد يافضولى أكلتك الأسماك ... ثم أحاطت بالرجل مكايد الجواسيس، وحفت به دسائسهم، فطلب النجاة من دار الخلافة، وخرج مع البازى عليه سواد.

ثم أتت المقالة (الحادية عشرة) وعنوانها «تقليد المناصب العثمانية» وفيها يصف الكاتب كيف يرقى المناصب العالية فى الدولة بطريق الرشوة والخضوع والمذلة والرياء والتملق لمن فى دار السلطنة من الكبراء وأصحاب الكلمة «فيدخلون وعيابهم مملوءة بالمال، ورءوسهم بالآمال، فيطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكتاب والحجاب، ويقدمون الهدايا والتحف للناظر والوكيل والكاتب والحاجب والنديم والصاحب ويباشرون وظيفة الوقوف صباح مساء فيصطفون صفوف القائمين للصلاة على أبواب النظارات، فيركعون لإشارة بالكف، أو نظرة بالطرف فمن يمر عليهم من ولاة الأمور ... الخ».

ويقيم أولئك المأمورون فى الآستانة سنوات على هذه الحال، حتى إذا ظفروا بما أرادوا خرجوا من الآستانة «وقد وقفوا على القصد الحقيقى من السلطنة والدولة والخلافة والإمامة والجيوش والمعاقل والحصون والرتب والنياشين، وهو حفظ ذات مولانا السلطان حفظه الله، وجعل الأمة والدولة فداه.

هذا حال المأمورين، وهذه نياتهم وعزائمهم ... أما الولاة فكثيراً

ما يعزلون وينقلون من ولاياتهم بذنب أنهم محبوبون من الأهالى كما حصل لعثمان (باشا) والى الحجاز .. إلخ » .

ثم أخذ الكاتب يسوق الأمثلة الكثيرة على نفاق دوى المناصب، وتنافسهم فى الرذائل ، وتهالكهم على الرشى كل ذلك والشعب منطو على نفسه، مغلوب على أمره ، ومن ورائه (قلم المطبوعات) الذى يمحو من الجرائد « لفظة . حرقة . ملة أمة . خطبة . سيف . قوة . سلاح . جمهورية . مجلس نواب . مجلس ملة . مجلس أمة . ولى عهد . جمعية . تجمع . اجتماع ، ومايشتق منه .

وتأتى بعد ذلك المقالة (الثانية عشرة) وعنوانها : الدعاوى فى الآستانة وانظر كيف بدأ الكاتب هذه المقالة بقوله : «قدم على الوليد رجل من عبس، ضرير محطوم الوجه ، فسأله عن سبب ذلك فقال : بت ليلة فى بطن واد ، ولا أعلم فى الأرض عبسياً يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيل ، فذهب بما كان لى من أهل ومال وولد . إلا صبياً وبعيراً . فند البعير والصبى معى ، فوضعته واتبعت البعير، فما جاوزت ابنى قليلا إلا ورأس الذئب فى بطنه يفترسه فتركته واتبعت البعير . فرمحنى رمحة حطم بها وجهى . وأذهب عينى . فأصبحت لا ذا مال . ولا ولد ولا ذا بصر . فقال الوليد بن عبد الملك أدخلوا بها إلى عروة بن الزبير وكان قد أصابه بلاء متتابع — ليعلم أن فى الناس من هو أعظم بلاء منه . وصاحب دعوى فى الآستانة أعظم والله بلاء . وأكبر مصيبة منهما . ؟

ولقد كان يجب على الآباء والأمهات أن يدخلوا فى جمل الدعاء لأبنائهم ألا يحكم الله عليهم بدعوى فى الآستانة ، فإن الدعوى فيها قصامة الظهور ، لإبطاء الحكم . وإهمال الفصل فيها، أو لمصيبة الحفظ لأوراقها . وربما ورث الإبن دعوى أبيه وجده» الخ ثم اتبع الكاتب ذلك بإيراد الشواهد العديدة على صدق دعواه .

وأخيراً يصل المويلحى فى كتابه «ماهنالك» إلى (المقالة الثالثة عشرة)

وهى الأخيرة فى هذا الكتاب ، بل هى المقصودة بالكتاب كله من أوله إلى آخره ، والحديث فيها عن «المشايخ» وهنا تبلغ السخرية نهايتها . ويصل التهكم إلى منتهاه . ويخيل إلى القارىء أن الكاتب الفرنسى (فولتير) لم يبلغ فى سخريته برجال الدين فى فرنسا بعض ما بلغه المويلحى من ذلك فى تركيا على أن ازدراء هذا الكاتب القدير لينصب انصباباً على السلطان عبدالحميد ، وهو ذلك المخلوق العجيب الذى قضى العمر كله فى الوساوس والهواجس ، وأضاع من حياة الدولة العثمانية ثلاثين سنة كاملة فى الجرى وراء ذلك المدعى الزرى ، بل ذلك الدجال المحتال ونعنى به (أبا الهدى الصيادى) وأشباهه من أهل الدجل والدخل . وهم — فيما ذكر المويلحى — أربعة :

السيد أبو الهدى الحلبى، والسيد أحمد أسعد المدنى، والسيد فضل (باشا) المكى ، والشيخ محمد ظافر المغربى. «وما وضع عربى مهما كان حسبه ونسبه منذ تأسست السلطنة العثمانية حيث تطأ الآن أقدامهم » .

وطفق الكاتب بعد ذلك يوضح الأسباب التى من أجلها قرب السلطان إليه أولئك الأربعة . «فمن الناس من يقول : إن هذا القرب وهذه الزلفى ميل جلالة السلطان إلى استطلاع المغيبات منهن ، لأن لهم مزاعم واسعة ، ودعاوى عريضة فى هذا الباب . ومنهم من يقول : إن سبب قربهم لهذا الحد من مقام الخلافة هو ما رتبوه فى فكر جلالة السلطان . بمقدمات قدموها من أن سكون الأمة العربية وحركتها فى أيديهم فإذا شاء وا قامت وإن شاءوا سكنت . ومن قدماء الأتراك جماعة يقولون إن الدولة لما ذهب منها لكها ما ذهب فى الحرب الروسية . وصارت الأمة العربية أعظم قسم تحكم عليه من أجناس رعيتها جنحت إلى تجديد اسم الخلافة . . فاختارت أولئك المشايخ رؤساء وسادات . . الخ » .

ثم مضى الكاتب يعرض هؤلاء المشايخ الأربعة للقارىء واحداً واحداً ، ثم ذكر ما يقول بعضهم فى بعض . وما يقول خصومهم عليهم . وما يقول

أحباؤهم لهم ، وما ينسبونه إلى أنفسهم وآبائهم وأجدادهم من الكرامات وخوارق العادات .

وبدأ (بالشيخ أبي المهدى) — وقد ذكرنا نحن من قبل رأى السيدة الألمانية التى قالت أنه كان متسولا فى حلب — فقال أنه وفد على الآستانة فى آخر حكم السلطان عبد العزيز فى زى أهل الطريق . وكان حسن الصوت، فصيح اللسان ، صبيح الوجه ، ذكى القلب . ثم رجع الشيخ إلى حلب نقيباً للأشراف بها . ثم عاد إلى الآستانة بعد جلوس السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة بشهرين فقط .

« فى ذلك الوقت رأى جلالة السلطان رؤيا فقصها على أحد الباشوات ـ وكان من أصحاب الشيخ . فقال لجلالة السلطان : إنى أعرف شيخاً واسع المعرفة ، له جانب مع الله ، ولو أمر جلالة مولانا أن نقص عليه الرؤيا لوجدنا عنده تفسيراً لها مطابقاً للواقع . فأمر جلالة السلطان بإحضاره ، ولما قص عليه الرؤيا فسرها تفسيراً أعجب به جلالة السلطان ، فأحسن إليه . وبعد ذلك بأيام صعد الشيخ إلى المابين وقال : قد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أمس فى الرؤيا فأمرنى أن أبلغ عنه جلالة الخليفة كلاماً ، وأمرنى أن يكون ذلك منى إليه من غير واسطة . فاهتزت السراى السلطانية لهذا الخبر ، واستعظموا الأمر ، واستشعروا بالفتح . وكانت الدولة تستعد لقبول إعلان الحرب الروسية ، وزاد جلالة السلطان فى عيونهم قدراً للاتصال بالحضرة النبوية ! ووجد جلالته فى ذلك الوقت المفعم بالمشاكل والاضطرابات بهذا الخبر مفرجاً لكربه ، وحافظاً لنفسه . ففرح وأمر الشيخ أبا الهدى أن يبلغه بالواسطة ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فامتنع وقال : إنما أمرت أن أبلغه ذلك مشافهة ، ولا يكون أحد بيننا . فقيل له : إن جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربية ، وأنت لا تعرف التركية ، فكيف يمكن أن تخاطبه بلا واسطة ؟ فأصر على ذلك ، وذهب

من السراى ، وقد اشتدت الرغبة فى معرفة ما قاله (صلى الله عليه وسلم)
وفى الغد أرسلوا بطلبه ، ولما حضر قالوا : إن جلالة مولانا السلطان أمر
أن يكون المترجم (بهرام أغا) فأبى وقال لا أفعل إلا ما أمرنى به النبى
صلى الله عليه وسلم وتركهم ، فحاروا فى الأمر كثيراً ، وبعد يومين صعد
الشيخ ووجهه مشرق بالبشر وقال : قد جئت لأبلغ جلالة مولانا السلطان
بنفسى من غير واسطة ، فأنا الآن أتكلم باللغة التركية وشرع يكلمهم بها
بلسان فصيح . فسألوه : كيف ذلك ؟ فقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم
جاءنى فى الرؤيا وتفل فى فمى ، فتكلمت باللغة التركية كما ترون ، وقد انحل
المشكل . فلما سمع جلالة السلطان بهذا أمر أن يبحثوا إن كان الشيخ يعرف
التركية من قبل ، فجاءوا بشهود . منهم حافظ (باشا) — من نظارة الضبطية —
وغيره يشهدون أن الشيخ لم يكن يعرف كلمة تركية قبل ذلك اليوم . فدخل
على جلالة السلطان ، وأبلغه الرسالة النبوية ، ولا يعلم أحد ما هى ؟ ومن
ذلك الوقت نال حظوة لدى جلالة مولانا السلطان لم ينلها أحد من قبله » .

أما (الشيخ أحمد أسعد المدنى) فهو تركى الأصل ، قد هاجر أحد
أجداده إلى المدينة المنورة واستوطن بها ، وكان من الذين يطوفون على
الأمراء فى البلاد للنيابة عمن له حصة منهم للفراشة النبوية . فيقوم مقامه
فى خدمة الروضة الشريفة ، فوفد السيد أحمد أسعد إلى الآستانة مراراً .
وكان له منزلة لدى جلالة السلطان عبد العزيز من أجل ذلك . ولما تولى
السلطان عبد الحميد نال السيد أسعد لديه حظوة الخادم الصادق ، وهو من
الذين يدخلون على جلالة السلطان بلا استئذان . وإذا قيل « فى السراى
سيد افندى » فإياه يعنون » .

« وقد طعن أعداؤه فى انتسابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فاحتار
فى أمره ، ولم يقو على معارضتهم ، فتداركه السيد أبو الهدى وأخذ بيده .
فأخرجه من تلك الوهدة بأن وهب له نسبة رفاعية ، وجعله عمه فى النسب

فمحت هذه الهمة الصيادية ما كان بينهما من الموجدة القديمة ، وعرف السيد أسعد لابن أخيه هذه المأثرة التى حفظ بها شرفه بين رجال المابين ، لدى جلالة السلطان ، فاتفقا واتحدا وشدا من قاعدة التفريق فى السراى وهما فى الحرب القائمة بين المشايخ صف يقابل صف السيد فاضل (باشا) والشيخ ظافر » .

« وهو الذى أرسله جلالة السلطان إلى سفير انكلترا فى مأمورية سياسية . ولما قابل السفير خاف على نفسه أن يدخل فى أمر لا يستطيع أن يخطو فيه خطوة ، فأخذ يسعل سعالا مسترسلا للتخلص ، حتى أشفق عليه السفير ، ورده باللطف والاحتفاء والتأسف على ما قد جاءه من المرض ! » .

وأما (الشيخ فضل باشا المكى) فهو شهير النسب بالعلوى ، وقد اختاره أهل ظفار أميراً عليهم فتولى أمرهم ، ولما أراد أن يعاملهم بالاستبداد قاموا عليه ، وأعانهم الإنجليز على إخراجه من ظفار ، فجاء إلى الآستانة يستصرخ الدولة لإعطائه قوة حربية يدخل بها ظفار . وكان قدومه فى زمن السلطان عبد العزيز ، فلم تصغ الدولة إلى طلبه ... ولما جلس السلطان عبد الحميد على التخت العثمانى أحسن عليه برتبة الوزارة ، فأحضر أولاده من مكة واستقر فى الآستانة ... وكان المشايخ يقبلون يده لشيخوخته وشهرة نسبه وحسبه ... وهو عامى ولكنه من المؤلفين ! وله كتب عديدة منسوبة إليه ، وهى مشحونة بكرامات أبيه وأجداده ... وهو يبشر جلالة السلطان بسلطنه الهند ، وبإسلام أهل أمريكا ! وإذا وردت عليه رسائل من بعض أصحابه فى الهند ، بنى عليها تحقيق الأمل فيما بشر به ، وعرضها على جلالة السلطان . فاذا سمع السيد أبو الهدى أنه قدم له مكتوباً جاء له من الهند أبطل مفعوله » .

وأما (الشيخ محمد ظافر المدنى المغربى) فهو من جهة طرابلس الغرب ، وقد سكن المدينة المنورة ، فانتسب إليها . وله طريقة انتزعها من الطريقة .

الشاذلية ، وهو يدعو إليها .. وهو رجل متواضع لين الأخلاق ، معترف بعاميته ، متظاهر بالخمول . وسبب اتصاله بجلالة السلطان أن أخاه الشيخ حمزة كان فى الآستانة ، وكان يتردد على بعض الحشم فى سراى جلالة السلطان فى زمن المرحوم السلطان عبد العزيز ، فدار حديثهم مع الشيخ حمزة على الذين لهم علم بظهر الغيب ، ومعرفة باكتشاف المستقبل ، فقال : إن أخى الشيخ محمد ظافر له اليد الطولى والقدم الراسخة فى هذه الأشياء . ولما اتصل الخبر بجلالة السلطان أمره أن يدعو أخاه من المدينة إلى الآستانة . فحضر إليها وبشر جلالة السلطان أنه يجلس على تخت السلطنة فى سنة ثلاث وتسعين هجرية . ولم يكن جلالته يصدق هذا الخبر لقرب الميعاد ووجود السلطان مراد قبله فى نظام السلطنة . ولما صدق قوله ، وجلس جلالة السلطان على التخت العثمانى فى تلك السنة عظم قدر الشيخ لهذا الاتفاق العجيب » .

« ولما رأى الشيخ ظافر أن الاعتقاد فيه قد رسخ فى السراى توسع فى الأمر . فمن ذلك أنه كان جالساً فى الحضرة السلطانية مع السيد أسعد والسيد أبى الهدى ، وفى أثناء الحديث قام من فوره وقال بهيئة الخشوع والخضوع على الخالى وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! » .

فسأله جلالة السلطان بعد أن قام وقام السيدان لهذه التحية العجيبة . فقال : إن الخضر عليه السلام قد مر وسلم علينا ، فرددت عليه السلام . ولما خرج وبخه صاحباه ، وتوعداه إن عاد إلى مثل ذلك . فقال لهما : اعذرانى فقد أخذنى الحال ... وقد أدخل جلالة السلطان فى طريقته وأعطاه عهداً » .

ثم أورد الكاتب بعد ذلك مطاعن هؤلاء المشايخ بعضهم فى بعض : وعند ذكره للسيد أبى الهدى الصيادى وما قيل فيه من مطاعن بدأ ذلك بقوله :

« وكان أحد حكام فرنسا يقول فى كل دعوى تعرض عليه « ابحثوا عن المرأة » فكانوا إذا بحثوا وجدوا أصل الدعوى امرأة كما قال . كذلك يقول أعداء السيد أبى الهدى فى كل ضر لحق بالدولة العثمانية ، أو لحق بأحد رعاياها « ابحثوا عن الشيخ » .

فإذا بحث الباحثون ، ونقب الناقبون وجدوا أن خدم كل مصيبة ، وسنخ كل بلية ؛ وأساس كل فادحة هو من الشيخ المشار إليه . حتى قال بعضهم : إنه للسلطان كالشيطان للرحمن .

« ويقولون إنه دخل على جلالة السلطان بتفسير الرؤيا والتنجيم ، ولما فرغت كنانته من السهام التى أصمى بها قلب الدين ، خرج إلى الساحة الواسعة — ساحة الدسائس والفتن — فإذا كان يقدم لجلالة السلطان مائة تقرير فى اليوم، فأكثرها بإيحائه وإغرائه ، وقد لعب كل الأدوار فى تعظيم نفسه أمام السلطان ، فقال إن تلاميذه بلغوا عشرة ملايين من الرفاعية ، وقال إن بلاد العرب فى قبضته ، وإن الأولياء فى خدمته . وإن النبى صلى الله عليه وسلم فى معونته . وإن الله سبحانه فى نصرته ، وإن الأقدار فى طاعته » .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نسرد مع الكاتب مطاعن الناس فى أبى الهدى . فلنكتف بهذا القدر ، وفى استطاعة القارىء أن يعود إلى الكتاب نفسه ويشفى به غلته .

* * *

لقد تكاتفت للقارىء تلخيص كتاب كامل من كتب المريلحى ، هو عبارة عن هذه المقالات الثلاث عشرة ؛ لا لشىء إلا لأنها قطعة كاملة من أدب المويلحى وصحافته من جهة ، ولأنها كتبت كلها فى موضوع واحد فقط ، هو نقد الحياة الواقعة فى الآستانة من جهة ثانية ، فإذا أضيف إلى ذلك أن الكتاب نفسه نادر الوجود فى هذه الآونة ، عرفت الأسباب التى من أجلها تجشمنا مشقة التلخيص السريع لهـــذا الكتاب العجيب ، بل هذه المهزلة المضحكة ، والمأساة المبكية التى مثلها التاريخ على مسرح (يلدز) فى فترة من الزمن .

* * *

إذا كانت المقالة الصحفية أنواعا ثلاثة : منها العرضى وفيها يعرض

الكاتب فكرة له على جمهور القراء ، ومنها النقدى وفيها ينقد الكاتب فكرة أو موضوعا ما ، ومنها النزالى وفيها ينازل الكاتب الصحفى خصما له فى الرأى فأى نوع من هذه الثلاثة يمكن أن نعتبر مقالات (ما هنالك ؟) . لا شك أنها من النوع الثانى ، وإن جنح فيها الكاتب إلى التجريح والإيذاء قصد الإصلاح . فأين ذلك كله من تلك الفصول التى كان يكتبها رجل كأديب إسحق أو محمد عبده أو عبد الله النديم وفيها يدعو كل واحد منهم إلى الإصلاح ، ويوجه الدعوة إلى السلطان ورجال الدولة العلية — ولكن فى رفق كبير وحذر شديد وأدب جم فى أكثر الأحيان — وذلك بالطبع فيما خلا المقالات القليلة التى كتبها — أديب إسحق فى شتم رياض — وإنا نحيل القارىء إلى الفصل الذى كتبه هذا الكاتب بعنوان « الإصلاح »[1] فثم يجد حديثا من هذا الضرب ، وإلى الفصول التى كتبها محمد عبده فى العروة الوثقى ، ففيها مقالات نقدية من نوع آخر وهكذا .

الحق أن شخصية السلطان عبد الحميد ، أو شخصية آخر طاغية من أكبر الطغاة الشرقيين لهى من الشخصيات التى جذبت اهتمام الكثيرين من الأدباء والمؤرخين ، فمؤرخ يصف حال الدولة التركية الشلاء التى كان يتربع على عرشها هذا السلطان الكبير ، وآخر يصف الأحوال السياسية التى كانت تحيط به — وأديب يلذ له أن يصف لنا القصور التى عاش فيها ذلك الحاكم المستبد . وآخر يحب أن يكشف لنا عن نفسية ذلك الجبار الذى قل أن يوجد له ولآبائه نظراء فى التاريخ .

وقد تولت هذا الجانب النفسى من حياة عبد الحميد ، باحثة ألمانية ، هى الدكتورة « ألما وتلن » فى كتاب لها ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (عبد الحميد ظل الله على الأرض) وهو كتاب تعرضت فيه الباحثة النفسية

---

(١) الدرر ص ٣٢١ — ٣٢٨

عبد الحميد فوصفتها وصفاً دقيقاً ، وكشفت لنا عما اشتملت عليه هذه النفس العميقة المضطربة من ظلمات ، وعما كان يجرى فى أعماقها من تيارات ، وعما كانت تدور فيها من حروب طاحنة ودامية !

والفضل لهذا الكتاب أولا فى أنه أمدنا بمفتاح لشخصية عبد الحميد نفتح به كل ما استغلق من جوانبها . وفيه — أى فى هذا الكتاب « أن الخوف والذكاء يختلطان اختلاطاً قوياً فى ذهن هذا الرجل » . والحق أن كل ما صدر من عبد الحميد كان يدل دلالة صريحة على حدة ذكائه من جهـــة وعلى شدة خوفه فى نفس الوقت من جهة أخرى . ولكن ما مصدر هذا الخوف الذى إعترى السلطان ؟

هنا تأخذ هذه السيرة فى شرح طائفة من العقد النفسية المظلمة التى تكونت لعبد الحميد ، وسببت له كل هذا الهلع الذى أصيب فى حياته كلها ، ولا تعدو هذه العقد النفسية أربعاً [١] :

أولاها : طفولة قاسية كان يعانيها عبد الحميد مع أمه التى حملت به .

والثانية : سقوط ثلاثة من سلاطين آل عثمان على مرأى منه ومسمع .

والثالثة : توليه العرش على شكل مغتصب له من أخيه السلطان مراد .

والرابعة : ورقة تحايل مدحت (باشا) حتى كتب عبد الحميد توقيعه عليها . وفيها أن عبد الحميد يتعهد بترك العرش فى اللحظة التى يتم فيها شفاء أخيه مراد الذى أقصى عن الملك بسبب نوبة عصبية شديدة ، زلزلت عقله وأتلفت صحته .

فأما الطفولة القاسية فقد أتت من أن عبد الحميد ولد فى الثانى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٢ من أم شركسية ولم يشأ أبوه السلطان عبد المجيد

---

(١) إننا نسمى هذه الأحداث التى مرت بالسلطان عقداً نفسية من باب التجوز فى القول ، ونحن نعلم أن هذه الحوادث تسبب عقداً نفسية متى انحدرت إلى منطقة اللاشعور ونسيها صاحبها ولكن عبد الحميد لم ينس هذه الأحداث التى أثرت على حياته تأثير العقد النفسية .

أن يعترف به إلا فى اليوم الثامن من ولادته ، وفى طول هذه المدة بقى والده يجهد ذاكرته فى تذكر الأم التى حملت به من بين عدد كبير من الجوارى يربو فى القصر على ثلاثمائة . وفى أثناء هذه المدة أيضاً كثرت الشائعات بين الحريم حول السيدة حاجى أم عبد الحميد أنها حملت به لامن السلطان ولكن من أب أرمنى . وهكذا أحيط ميلاد هذا الطفل بالشكوك التى أقضت مضجع أمه وحرمتها الراحة وزادت عن أجفانها النوم. غير أن هذه الأم المسكينة صبرت على الإيذاء حتى نما الغلام وكبر ، فألقت إليه بسرها ، وغذته بلبان البغض لأترابها من الحريم ، والحقد على والده الذى تلكأ فى الاعتراف به ، ولم يشأ أن يبدى لوالدته بعد ذلك أى نوع من العطف . (وهكذا بينما كان الأطفال الآخرون فى القصر يتعلمون حروف الهجاء كان عبد الحميد الطفل يتعلم حبك الدسائس والرياء والمداهنة — سلاح أولئك الذين قضت عليهم الطبيعة والظروف بأن يكونوا ضعفاء)[١] . وماتت هذه الأم فى السادسة والعشرين من عمرها ، وكان عبد الحميد فى السابعة من عمره ، فبقى أميناً لذكرى والدته ، ولم ينس قط أنه لم ينجح فى التوفيق بين أبويه (فانقلب يأسه المرير إلى بغض لكل ما يحيط به) . وأسدل هذا اليأس على حياته ظلاما كثيفاً من الوحدة . وبقى عبد الحميد فى عزلته هذه إلى أن أخرجته منها والدة عمه عبد العزيز ، واسمها الأميرة بورتفال Portevale . وقد شاركها عبد الحميد يومئذ هوايتين عجيبتين : هما هواية الفلك من ناحية ، وهواية السحر الأسود من ناحية ثانية ، وأصبحا منذ ذلك الحين يشتركان تارة فى النظر إلى النجوم ، وأخرى فى صنع الدمى التى تمثل شخصيات مكروهة لديهما ، فحينا يعبثان بها ، وحينا ينفذان فيها حكم الإعدام وهكذا .

---

(١) الترجمة العربية لكتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) . وقد قام بهذه الترجمة الأستاذ راسم رشدى ، وطبعت فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ — انظر ص ١٧

وأما العقدة النفسية الثانية ، فقد كانت أشد فى نفس الفتى تأثيراً وأكثر تعمقاً . وكان منشؤها سقوط ثلاثة من سلاطين آل عثمان أمامه ، وهو يسمع ويرى . أولهم عبد المجيد والده ، والثانى عبد العزيز عمه وابن صديقته ، والثالث مراد أخوه . ولقد كان عبدالحميد يبادل هؤلاء الثلاثة بغضا ببغض وحقداً بحقد . وكان يتمنى لهم جميعاً هذا المصير الذى صاروا إليه . ولكن كان سقوط كل واحد منهم فى الوقت نفسه يزرع فى قلبه الخوف والهلع، وينمى فيه الشك والريب ، ويغرس فيه قلقاً يزداد مع الأيام ، إلى أن بلغ أقصاه يوم توليه العرش بعد أولئك الثلاثة الذين ذاقوا ألم الذل بعد العز ، ووخز الحرمان بعد السلطان . ولا يتسع المجال هنا لوصف المسرح الذى مثلت عليه هذه المآسى الثلاث ، وهى مأساة السلطان عبد المجيد حين عزله الجند وشيخ الإسلام ، ومأساة السلطان عبد العزيز الذى مات بعد عزله بثلاثة أيام ، ثم مأساة مراد الذى أصابته نوبة عصبية شديدة عندما سمع بموت عمه على هذا النحو .

وإذ ذاك أى فى الوقت الذى كان يطلب فيه العرش أميراً يجلس عليه ذهب مدحت (باشا) إلى عبد الحميد ليعرض عليه السلطنة ، فأبى أول الأمر (لأنه تعلم من طفولته الصبر والاحتمال وانتظار الفرص المواتية) وآوى إلى منزله فى انتظار هذه الفرص ، وهناك اشتغل بالفلك ، كما اشتغل بالسحر الأسود الذى أغرم به منذ طفولته .

وبعد أشهر قليلة من هذا الصمت قبل أن يكون عبد الحميد سلطاناً على تركيا ، وخرج إلى جامع بايزيد لتقام له مراسيم السلطنة . وهناك فى غمرة هذا الهدوء الشامل الذى خيم على الجامع ، وفى غمرة هذا السرور العميق الذى ملأ قلب الأمير الشاب تسلل إليه مدحت (باشا) وحمله على التوقيع على هذه الورقة التى سببت له آخر العقد النفسية وأخطرها على حياته ، لأنها أشعرته بأنه مهدد فى كل وقت بشفاء مراد من المرض ورجوعه إلى عرش السلطنة .

ولكن عبد الحميد ليس بالرجل الغبى ؛ فقد قلنا إن الذكاء والخوف يختلطان فى نفسه اختلاطاً عجيباً ، وعنهما كان يصدر فى كل عمل من أعماله دائماً . فقد جلس عبد الحميد على العرش ، ولم يكد يمضى عليه أربعة أشهر كاملة حتى انعقد فى عاصمة ملكه مؤتمر من ساسة أوربا ، وزعموا أنهم إنما اجتمعوا فى الآستانة للنظر فى إصلاح تركيا . ولكن هؤلاء المجتمعين سرعان ما انصرفوا من اجتماعهم هذا عندما سمعوا دوى المدافع التى أطلقت يومئذ إعلاناً للدستور الذى منحه السلطان عبد الحميد لتركيا . فانظر إلى هذا السلطان الذكى كيف أصاب بهذا الدستور الذى منحه للشعب التركى هدفين . وضرب بهذا الحجر عصفورين .

أما الأول فانصراف هؤلاء الساسة فى كثير من الخجل وكثير من الثقة بدهاء هذا الرجل .

وأما الثانى فمادة وضعها السلطان فى الدستور الذى منحه يومئذ ، هى المادة الثالثة عشرة بعد المائة . وفيها أن للسلطان الحق فى أن ينفى من أراد نفيه من رعيته ممن يرى أنه خطر على النظام القائم . وقد انتفع عبد الحميد يومئذ بهذه المادة فى نفى مدحت (باشا) ورشدى (باشا) وغيرهما ممن زعم للشعب أنهم من دعاة النظام الجمهورى .

وكان خليقاً بعبد الحميد بعد ذلك أن يهدأ باله ، ويطمئن قلبه ، ويركن إلى الراحة والسكون ، ولكنه لم يفعل . « فقد بلغ من شدة اهتمامه بشئون الدولة أنه كان معرضاً لأن يصاب بهزة عصبية فيما لو قيل له يوماً ما إنه ليس من جديد ، أو أنه لا توجد وثيقة ذات قيمة فى انتظاره على المائدة (١)

ولا يهولن القارىء قولنا (شئون الدولة) فليست هذه الشئون فى حقيقة الأمر غير هواجس عبد الحميد ، وشدة ذعره ، وخوفه على نفسه إلى درجة بالغة . وقد بلغ من أمر عبد الحميد فى هذه الناحية أنه كان يرتب

(١) المصدر السابق ص٧٩ .

له غرفة كبيرة فى القصر ، يضع فيها صناديق من الحديد ، ويجعل لكل صندوق عيوناً يضع فيها التقارير السرية التى يمده بها الجواسيس من حين لحين . وقد وكل بأمر هـذه الصناديق موظفاً واحداً جعله موضع سره وأهلا لثقته ، وكان يقضى معه ظلمة الليل وسحابة النهار فى قراءة هـذه التقارير وترتيبها على أدق وجه .

وذلك هو الجانب الذى استرعى نظر إبراهيم المويلحى حين سافر إلى الآستانة بدعوة من السلطان فذهب إليها ، ووقع نظره على هـذه الأمور التى جعلها موضوعا لمقالات جمعت فيما بعد فى كتاب له سماه « ما هنالك » .

على أن الآستـانة ورجال الآستانة كانوا يعرفون كيف يحرجون قلب كل قادم إليها وإليهم ، ويثيرون كوامن البغض فى نفس كل زائر لها ولهم . وهذا هو عبد الله النديم وقد سافر إلى هذه المدينة بأمر السلطان ، سرعان ما اصطدم فيها بداهية الآستانة إذ ذاك ؛ أبى الهدى الصيادى الذى مر ذكره ؛ وبلغ من غيظ النديم وضيقه بهذا الداهية أن ألف فيه كتاباً عنوانه (المسامير) بناه على سب هذا الرجل وهجوه والسخرية منه بأقذع الألفاظ . ثم حين نشر السيد على يوسف هذا الكتاب على صفحات جريدة (المؤيد) تعرض لأذى الحكام على النحو الذى ربما أشرنا إليه فى الجزء الخاص بصاحب المؤيد .

* * *

الآن وقد فرغنا من عرض جهود المويلحى فى ميدان الأدب والصحافة يجمل بنا أن نعود إلى أسلوبه الكتابى ، لتلخيص ما نعرفه من خصائص هذا الأسلوب ، ولنعرف المكانة التى يحتلها إبراهيم المويلحي فى أدبنا المصرى الحديث .

الفصل السادس

الخصائص الفنية لأسلوب إبراهيم المويلحى

مهما ذهبت تقرأ لهذا الأديب فى جريدته (مصباح الشرق) فلن تقول عنه إنه كان موهوباً فى السياسة ، ولكنه موهوب فى الأدب ، مع أنه كان على اتصال دائم بكثير من رجالات الحكم فى عصره . غير أن نفسه — فيما يظهر — كانت تعاف السياسة ، ولا يحب الانغماس فيها ، فلقد عاش الرجل فى عهد سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس الثانى ، ولكنه لم يألف ولم يصطف ولم يخدم غير رجل واحد من أفراد الأسرة المالكة ، هو إسماعيل . على أنه لم يمكث فى خدمته طويلا بل كان يطوف البلاد ، وقد وصل فى رحلته إلى الآستانة ، وكان له مع السلطان شأن وصفناه من قبل .

والعجب من أمر هذا الأديب الممتاز كيف يرى بعينه مصر فى عهد الاستقلال ثم مصر فى عهد الاحتلال ، وكيف يخلط نفسه بالملوك والأمراء المصريين العظام ، ويصل إلى باب السلطان ، ثم لا يكون لذلك صدى فى نفسه غير ما رأيناه من وصف الحياه السياسية المعقدة فى تصور آل عثمان ؟

العجب من هذا الأدب الممتاز كيف لا يكون للاحتلال البريطانى تأثير فى أعماق قلبه إلا فى هذه القصة التى كان ينوى كتابتها ، ثم حالت الظروف دون إتمامها إذ ذاك ، ونعنى بها قصة (موسى بن عصام) ، وذلك فضلا عن طائفة من المقالات القليلة فى مخاصمة الاحتلال هنا وهناك .

العجب من كاتبنا هذا كيف لا تترك الثورة العرابية ظلا [1] فى نفسه غير طائفة بسيطة من الرسائل القصيرة عفى عليها النسيان ؟

وأعجب من كل ما مضى فى رأينا تلك الأشعار التى نظمها هذا الأديب الكبير فى مدح فكتوريا ملكة الإنجليز ، وتهنئتها بيوبيلها فى شهر يونيو

---

(١) حدثنى عن موضوع هذه الرسالة حفيدة إبراهيم (أفندى) المويلحى ، ولكنى لم أعثر عليها حتى الآن .

سنة ١٨٩٧ ، حيث قال هذه القصيدة الكبيرة التي أفردت لها جريدة الأهرام صفحة خاصة . والقصيدة لطيفة النسج ، متخيرة اللفظ ، جليلة المعنى ، عذبة الموسيقى ، ولا غبار عليها من جميع هذه النواحي .

أجل كان إبراهيم المويلحي رجلا موهوبا في الأدب ، ما في ذلك موضع لشك أو لجدل . كانت اللغة التي يكتب بها هذا الرجل هي العربية . والعربية لغة القرآن ، وليست لغة « تجارية » محدودة الغنى في الأساليب والألفاظ . بل إنه إذا جاز أن توصف لغة ما بهذه الصفات فلا يجوز أن توصف بها اللغة العربية بالذات . ذلك أن العربية لا تصلح إلا لأن تكون لغة الأدب في أروع صوره وأعلى مراتبه . وربما أنه من أجل ذلك وجدنا المويلحي من كبار المدافعين عن العربية ضد العامية .

ثم إن إبراهيم المويلحي في رأينا من كبار المجددين المعتدلين ، وفي رأى المستشرقين من كبار المحافظين . والذي لا شك فيه أنه كان من أئمة هؤلاء حرصاً على اللغة والتقاليد والدين . وقد رأينا فيما مضى كيف كان الرجل شديد الغيرة والتعصب للشرق ضد الغرب ، وللإسلام ضد بقية الأديان ، ولمصر وحدها ضد غيرها من بلاد العالم — لا يعرف في هذا التعصب هوادة ولا ليناً ، ولا يقبل في هذه الأمور مخالفة ولا مجادلة . وليس معنى ذلك أن المويلحي كان يدعو إلى الوطنية الضيقة بالمعنى الذي نفهمه نحن في أيامنا الحاضرة ؛ بل كان المويلحي يدعو إلى الوطنية الواسعة التي تشمل جميع المسلمين ، وتدين بالخلافة للعثمانيين . أما ما زعمناه من تعصب المويلحي لمصر فهو ضرب من ضروب الحب والإيثار لهذا البلد الذي لمس فيه عيوباً كثيرة تستحق الإصلاح .

والرجل وإن كان كثير الأسفار إلى البلاد الأوروبية ، كثير الاختلاط بشتى الأوساط في مصر وغيرها من الأقطار التي سافر إليها . كان لا يزداد بهذه الأسفار وذلك الاختلاط إلا إيمانا بتلك الأشياء الأربعة وهي : الإسلام ، والشرق ، واللغة العربية ، ومصر .

نعم — كان المويلحى من المحافظين فى الأدب ، وإن كان من المجددين المعتدلين فى الاجتماع ، وإليه انتهت رياسة الكتابة الأدبية فى من مصر . ولا أقول الكتابة الصحفية . لأن للصحافة المصرية يومئذ زعيما غير هذا الرجل.

وسترى فى الجزء التالى من كتابنا (أدب المقالة الصحفية فى مصر) أن زعيم الصحافة المصرية فى ذلك الوقت هو السيد على يوسف . والفرق بين الرجلين كبير من نواح شتى سيتعرض لها البحث بمشيئة الله . وبحسبنا هنا أن نعرف أن المويلحى كان صاحب جريدة أسبوعية ، على حين كان السيد على يوسف صاحب جريدة يومية . ولا شك أن الأولى أدنى إلى (المجلة) بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وأما الثانية فصحيفة تطالع القارىء مرة فى كل يوم ، ولابد لصاحبها ومحررها فى أكثر الأيام من كتابة المقال الافتتاحى الذى يستغرق منه وقتا أقل بكثير من الوقت الذى ينفقه كاتب المقال فى إحدى المجلات . والحق أن المويلحى لو أراد أن يكون كاتب صحيفة يومية لما استطاع ، وإن الشيخ على يوسف لو قصر نفسه وقلمه على مجلة أسبوعية أو شهرية لما استطاع ، وأن كلا منهما كان لونا من ألوان الصحافة والأدب غير صاحبه .

وقد عرفنا أن المويلحى إنما تثقف بثقافة عربية شرقية خالصة ، قوامها القرآن ، والحديث ، والشعر ، والتاريخ ، والقصص ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب . ولا نستطيع أن نزعم أن ثقافته قـــد امتدت إلى أكثر من هذا الأفق . ومع هذا وذاك ففى هذا القدر كفاية لكاتب فى مثل موهبة المويلحى . ومتى كان الإنسان موهوباً فى الأدب فقد استطاع أن يحيل كل ما يعلمه إلى فن خالص لاريب فيه . وأن يجعل من كل علم يعلمه أدباً خالصاً لاريب فيه ، وأن يحسن الانتفاع بهذه الثقافة الشرقية التى أشرنا إلى بعض عناصرها .

على أن التثقف بثقافة واحدة ربما عاد على الكاتب بفائدة نبهنا إليها الجاحظ فى بعض كتبه المعروفة لنا . وخلاصة هذه الفائدة أن من عرف

لغة واحدة كان أكثر معرفة بألفاظ هذه اللغة ، وأوفر غنى بمادتها ممن عرف أكثر من هذه اللغة . وأما من حيث المعانى والأفكار فإن الذى يحدث هو عكس ذلك . ومعنى هذا أن اللغة الأجنبية ـ على حد تعبير الجاحظ ـ إنما تدخل الضيم على اللغة الأصلية فى ناحية الألفاظ ، وإن أورثتها السعة والغنى فى ناحية الأفكار . .

فإذا صحت نظرية الجاحظ المتقدمة ــ وهى لا شك صحيحة ومشاهدة ــ كان المويلحى رجلا موفور الغنى بالألفاظ ، ضخم الثروة بالأشعار ، عظيم القدرة على الانتفاع بالقرآن والحديث ، وبالثقافة الشرقية كلها فى صياغة الأسلوب الأدبى الذى عرف به .

وقد عرفنا لإبراهيم بصراً كبيراً بالحياة التى انغمس فيها بمصر وغيرها من البلاد الأجنبية التى سافر إليها ، كما عرفنا له بصيرة نافذة فى معرفة الرجال الذين خالطهم مخالطة قوية متصلة كان لها أكبر الأثر فى أدبه وخلقه . فإذا أضفنا الموهبة الأدبية من ناحية ، إلى الثقافة الشرقية الخالصة من ناحية ثانية ، إلى الخبرة العظيمة بالنفس البشرية من ناحية ثالثة ، إلى ما ركب فى طبيعة هذا الرجل من القدرة على التهكم والسخرية من ناحية رابعة ــ خرج لنا من كل ذلك أديب من أدباء الصف الأول فى مصر والشرق ، وصحفى ممتاز من صحفيي ذلك العصر ، ولم يكن هذا الأديب الصحفى غير إبراهيم المويلحى .

ونريد أن نشخص أسلوب هذا الكاتب ، ونبحث عن الخصائص الفنية لهذا الأسلوب ، فنبادر أولا إلى القول بأننا لم نر النثر المصرى الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر إلى عهدنا بهذا الكاتب قد أصبحت له هذه المرونة العظيمة ، والطواعية الكبيرة ، والانطلاق الواسع المدى الذى نراه لأسلوب المويلحى . لا نكاد نستثنى من كتاب النهضة جميعاً فى كل ذلك غير كاتب واحد فقط ، هو السيد عبد الله النديم ، وإنك لتحس عند قراءة هذين الكاتبين أنهما لا يبذلان جهداً فى الكتابة ، وأن أحدهما لا يكاد يشعرك

بأى نوع من أنواع الجهد فى الكتابة ، فكأنهما كما يقول القدماء — يغرفان من بحر ، بينما ينحت غيرهما فى صخر .

والعجيب أن نرى لأسلوب المويلحى كل هذه المرونة ، ونلمس فيه كل هذه الطواعية على الرغم من مثل هذا الكاتب أحياناً إلى استخدام الزينة اللفظية ، وقصده أحياناً إلى اصطناع البديع . ومن شأن البديع والزينة أنهما يعطلان الكاتب ، ويكلفانه جهداً ومشقة فى الكتابة ، وكثيراً مايشعر القارىء بكل ذلك . ولكنك حين تقرأ للمويلحى تلمح فيه ذلك البديع ، وتشعر معه فى نفس الوقت بمزية التطويع ، وتلمس الزينة ، وتحس معها بمزية المرونة ، وفى ذلك أقوى دليل على الموهبة الأدبية التى منحها الله ذلك الكاتب القدير .

ونريد بعد ذلك أن يضع القارىء يده على بعض ميزات هذا الكاتب ، أو بعض خصائص أسلوبه فى الكتابة . ولعل من أهم هذه الخصائص الفنية مايلى :

أولا : الانطـــلاق وطول النفس فى الكتابة والاتساع فى العبارة . وكثيراً مانجد المويلحى يطيل الجملة الواحدة إطالة لاتشعر فيها بملل ولاسأم . على حين أن الجملة إذا بلغت هـذا الطول عند غيره بعثت فى نفس قارئها الضجر . وهنا نحيل القارىء على بعض مقالات المويلحى فى كتابه «ماهنالك» وقد نقلنا من عباراته ما يكفى للدلالة على مانقول ، ومن ذلك العبارة الطويلة التى اقتبسناها من المقالة الخامسة ، فليلتمسها القارىء هناك .

ومعنى هذا أن المويلحى كان رجلا يحب الإسهاب والإطناب . وقد امتازت كتابته بهذه الميزة التى انفرد بها عمن سواه : غنى فى الألفاظ ، وغنى فى الأساليب . وهو فى كل ذلك أشبه ما يكون برجل ورث عن أبيه ثروة ضخمة ، وكنوزاً عظيمة ، فهو ينفق منها بسخاء ، ويظهر بها أمام الناس ، ويأخذ منها بغير حساب ، علماً منه بأن خزائن والده العديدة لاسبيل إلى نفاذها يوماً ما .

ثانياً : ميل المويلحى مع ذلك إلى الجزالة فى الألفاظ والغالب عند

الكتاب الذين يؤثرون الإسهاب والإطناب أنهم يميلون إلى الألفاظ الرخوة، والتراكيب فيها شيء من الابتذال . وقليل جداً من الكتاب من يستطيعون الجمع بين الجزالة واتساع العبارة . وحقيقة كان المويلحي واحداً من أولئك القليلين الذين حافظوا على جزالة اللفظ وصانه ، وعلى قوة الجرس وفخامته. ومعنى ذلك أن النثر المصرى تقدم كثيراً على يد هذا الكاتب الذى احتفظ بالطابع القديم والنسج العربى المتين . ومن ثم لا نرى فى أسلوب المويلحى هلهلة ولا إسفافاً ، ولا نرى أسلوبه يرتضخ عامية شوهاء ، بل يزدان أسلوبه بكثير من أساليب العربية فى أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة .

ولقد سقنا لك أمثلة على ذلك فى كل ما كتب المويلحى بجريدة مصباح الشرق ومقالات « ما هنالك » فلا حاجة بنا إلى هذه الأمثلة مرة ثانية .

ثالثاً : طابع السخرية والتهكم والاستخفاف والتندر ، وهذه الأشياء التى طبع عليها المويلحى ، وكانت جزءاً من حياته وصفة من صفاته . وقد أكثرنا القول فى هذه الميزة ، وضربنا عليها الأمثال . فلسنا بحاجة كذلك إلى أن نعيد فيها الكلام . وسنرى فى الفقرة التالية كيف أن السخرية عند المويلحى أن تقوم على هذه الخاصة الرابعة من خصائص الأسلوب وهى :

رابعاً : الموازنة أو الطباق بين الألفاظ فى تارة وبين الأفكار تارة أخرى. والحق أن للمويلحى ولعاً كبيراً بهذه الموازنات يأتى بها فى كل مقال. ولا يكاد يخلو منها كلام منسوب إليه . وكثيراً ما يأتى بهذه الموازنات فى جملة تبدأ بما التى بمعنى ليس ، ويكون خبرها مجروراً بالباء ، كما فى قوله « ماسار به الليل وحيداً فى غاية التفت أشجارها، وتكاثفت ظلماؤها ، وتجاوبت رياحها ، وعزفت جنانها وزأرت أسودها ، وترامت على أقدامه أفاعيها وأسودها ، لا يهتدى لطريق يسلكه ، ولا يجد موتاً وحيّاً يهلكه — بأخوف ممن يطأ هذه الدوائر لشرهم المطلق فى الناس ، وخيرهم المقيد لأنفسهم ، بوقوفهم على باب فيه النعم والنقم، والعز والذل . والحرية والاستعباد. والشورى والاستبداد والسعادة والشقاء والحياة والفناء لدى خليفة عظيم وسلطان كبير » .

ومن الطباق بين الألفاظ قوله فى فصل الغازى عثمان (باشا) إنه أسد « بلفنا » و نعامة « يلدز » وقوله « فتسمن صرورهم بعجافة ذممهم» وقوله : والله يعلم أن كل ساكن فى الآستانة مهما بلغ به القدر لايدرى أتدخل عليه الشمس صباحا من نافذه البيت أم من نافذة السجن » وقوله فى المقالة السابعة عن الجواسيس «.. وتعود صبيان القهاوى أن يقدموا للداخل الجمرة والمحبرة ؛ فيحرقوا بالأولى الدخان ، ويحرقوا بالثانية أعراض الإنسان » .

والحق أن السخر عندالمويلحى إنما كان يعتمد اعتماداً كبيراً على هذه الموازنات التى يحدثها فى أسلوبه ، ويملأ بها كلامه ، ليلفت إليه أذهان القراء ، وليبعث فيهم كل ما يستطيع أن يبعثه من الضحك والازدراء ، أو الأسف والرثاء . وليس للسخريه — فى ذاتها — غاية وراء ذلك .

خامساً : الإكثار من ضرب الأمثلة من التاريخ ، ومن الواقع الملموس فعلى المحدث اللبق ، والقصصى البارع ، والكاتب الغزير المادة الواسع الاطلاع . وكثيراً ماتبنى هذه الأمثلة على قاعدة التبكيت الذى يتوجه به الكاتب إلى فئة من الناس ، والتنكيت عليهم ، كما كان يفعل النديم فى بعض فنونه الصحفية التى نعرفها . وربما كان للمصريين عامة ، والقاهريين منهم خاصة ولع بهذا النوع من الحديث . وأكبر الظن أن المويلحى كان قاهرياً ممتازاً فى هذه الناحية . فمن الواقع الملموس تلك الحكاية التى أشرنا إليها من قبل ، وخلاصتها أن الشيخ ظافراً كان جالساً فى الحضرة السلطانية مع السيد أسعد والسيد أبى الهدى . وفى أثناء الحديث قام من فوره وقال بهيئة الخشوع والخضوع : على النجالى وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فسأله جلالة السلطان بعد أن قام وقام السيدان لهذه التحية العجيبة . فأجاب بأن الخضر عليه السلام قد مر فسلم علينا فرددت عليه السلام . ! »

ومن النوادر التاريخية التى من هذا القبيل ما حكاه الكاتب من أن أبا الحسين الجزار الشاعر دعاه أصحابه يوماً ليخرج معهم للنزهة لخارج

المدينة ، فوقفوا فى طريقهم على جزار ليشتروا لحماً ، ورجوه أن يقطعه لأنه أدرى بأطايبه ؛ فقطع لهم لحماً رديئاً ، فلاموه فقال لهم :

« اعذرونى ولا تؤاخذونى لأنى لما وقفت وراء القرمة أدركنى لؤم الجزارين » !

أما الأمثلة التاريخية فكثيرة فى مقالاته التى كتبها فى مصباح الشرق وفى غيرها من الصحف فى ذلك الوقت . ولسنا بحاجة إلى الرجوع إليها ، بعد إذ أشرنا إلى الكثير منها فى تضاعيف الكتاب .

سادساً : اللهجة الخطابية وكثيراً ما يجنح إليها الكاتب ، وبخاصة حين تعلو درجة انفعاله فى الكتابة . وهنا يكثر من النداء ، والندبة ، والاستغاثة والإشارة ، والتنويع فى الضمائر ، بمعنى الانتقال فيها من ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب أو العكس . وكثيراً ما يعتمد الكاتب أيضاً على تنوع الأساليب من خبرية إلى إنشائية بقصد إحداث الحركة وإشاعة الحياة فى الأسلوب ، وكثيراً ما يولع الكاتب أيضاً بإطالة المقومات التى يستهوى بها القارىء ويجره إلى جانبه . بل كثيراً ما يستطرد الكاتب إلى الشرح أحيانا ، والتعليق أحياناً أخرى ، كما يفعل الأساتذة المحاضرون . وكل هذه الخصائص المتقدمة هى من خصائص الخطابة قبل الكتابة ، وانظر إلى قوله « أتريد أيها القارى أن تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة ؟ أرادت الدولة أن تقبض على مدحت (باشا) ... الخ وفى قوله « واغوثاه — لقد كانت ورقة من هذه الأوراق تنشر القانون الأساسى ، وتجمع مجلس المبعوثان ... الخ . ولكن واحسرتاه يصدر اليوم عشرات منها فى النهار لتفتيش بيت زيد أو استنطاق عمرو الخ » .

وإلى قوله « يا كساد العلم ، ورواج الجهل ، ويا شقاء الحق ، وسعادة الباطل ، ويا خيبة الصادق ، ونجح المنافق ، ويا بكاء الأمين ، وضحك الخائن . أصبحت دار السلطنة التى كانت عريناً للأسود خلايا تطن فيها زنابير الجواسيس .

سابعا : الزينة اللفظية . وهنا نبادر إلى القول بأن هذه الزينة اللفظية كانت مظهراً من مظاهر ضعف الأسلوب عند الطبقة الأولى من الصحفيين ،

من لدن رفاعة الطهطاوى إلى عبد الله أبى السعود ، إلى محمد أنسى ، إلى ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن إلى ، وغيرهم من أصحاب الصحف المصرية الأولى . ولكن هذه الزينة اللفظية مظهر من مظاهر قوة الأسلوب عند المويلحى ؛ وهو الكاتب الوحيد الذى استطاع أن يحتفظ بهذه الزينة فى الكتابة الصحفية الخالصة احتفاظه بها فى الكتابة الأدبية الخالصة .

ألم نقل فى بعض فصول هذا الكتاب إن البديع ليس عيباً فى ذاته ، ولكن العيب عيب الكتاب الذين يصطنعونه فى أساليبهم من غير أن يعدو أنفسهم له إعداداً صحيحاً من حيث العلم والثقافة ؟ ألم نقل إن الفرق بين الكتاب الذين يجيدون ممارسة البديع والكتاب الذين لا يستطيعون الإجادة فى ممارسة هذا البديع هو فرق واحد من حيث الثقافة لا أكثر ولا أقل ؟ ومعنى ذلك أن العصور الفقيرة من الثقافة لا تستطيع مطلقاً أن تخرج لنا أدباً غنياً بالبديع ، وأن العصور الغنية بهذه الثقافة التى تخرج لنا أدباً جميل الصورة من حسن الرواء من حيث البديع . وذلك ما نستطيع تطبيقه على المويلحى ، فقد كان مثقفاً بثقافة شرقية لا بأس بها ، واستطاع أن ينتفع بهذه الثقافة فيما اختاره لنفسه من طريقه فى الكتابة امتازت فى بعض نواحيها بهذا البديع . ومن مظاهره — أى من مظاهر هذا البديع — فى أسلوب المويلحى أمور منها :

الترادف الصوتى أو التقسيم الموسيقى للألفاظ ، والسجع أحياناً ومراعاة النظير ، ثم الاستعارة ، والتشبيه ، ثم الاستشهاد بالشعر وبالقرآن وبالحديث ، ثم التضمين من الشعر ومن القرآن والحديث . وكل ذلك بطريقة عجيبة تشهد بمهارته فى الكتابة ، وسيطرته على فن الإنشاء . ولسنا نريد أن نضرب الأمثال الكثيرة على الترادف الصوتى أو السجع أو التشبيه أو الاستعارة أو الاستشهاد بالشعر ونحو ذلك . ولكننا نحرص هنا على ضرب الأمثلة على تضمين المويلحى للقرآن فى كلامه فكأنه جزء من هذا الكلام . مثال ذلك « وأشربوا فى قلوبهم التجسس » . ونحن نعلم أن فى الآية الكريمة قوله تعالى « وأشربوا فى قلوبهم العجل » . وقوله على لسان حكيم فى حديث موسى بن

عصام: واعلم أن الصانع الحكيم أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا». وقوله فى بعض مقالات «ما هنالك»، وما زال بهرام له النظر الأعلى فى طوالع النفوس، والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس، يحكم ولا معقب لحكمه، ويأمر ولا راد لأمره إلخ» وقوله فى وصف موكب من مواكب السلطان «... فإذا دخل يلدز أطمأنت القلوب، وسكنت الخواطر، واستوت سفينة النجاة على الجودى الخ».

أما تضمينه الشعر فمنه قوله «وخرج مع البازى عليه سواد» وقوله: وأما رجل الآستانة «فله طريق إلى العلياء مختصر». والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى. ومن السهل على القارىء أن يلاحظها متى قصد إلى ذلك فى أثناء قراءته شيئاً من هذا الكاتب.

تاسعاً: يجب أن نضيف إلى كل ما تقدم معرفة الكاتب الذى نترجم له معرفة تامة «بإيحاءات الألفاظ». والناقد الأدبى كالأديب يعرف أن للألفاظ نوعا من الإيحاء يختلف فى بيئة ما عنه فى بيئة أخرى، وذلك باختلاف الثقافة الشائعة فى كل بيئة على حدة. والكاتب البليغ يستطيع أن يعتمد كثيراً على معرفته بوحى الألفاظ فى إثارة المعانى التى يريد أن يثيرها فى أذهان القراء. ذلك أن للفظ القرآنى إيحاء، وللفظ المتداول فى شعر رجل كالمتنبى إيحاء، وللفظ المتداول فى شعر المعرى، إيحاء وللألفاظ التى تسمع كثيراً فى شعر شوقى أو حافظ إيحاء، وللألفاظ التى تسمع كثيراً من فلان وفلان من الكتاب إيحاء، وللألفاظ التى ترد فى تضاعيف حكاية أو نادرة تاريخية إيحاء وهكذا [1]، وليس شك فى أن كل لفظ من تلك الألفاظ يوحى إلى

---

(١) من كلام المويلحى فى وصف بعض مشايخ الآستانة «ومد رجله فى عين الزمان غير مبال» وهو تعبير يوحى بما حكى عن الإمام أبى حنيفة وكان برجله أذى يضطره إلى مدها أمام الطلبة فى أثناء الدرس، فدخل عليه شيخ ذو هيبة ووقار فشق أبو حنيفة على نفسه وطوى رجله احتشاما وتوقيرا لهذا الشيخ الذى أخذ بعد ذلك يلقى أسئلة بلهاء على الامام ويطلب منه الجواب. فقال الامام جوابا عن أحدها: «الجواب يامولاى أن يمد أبو حنيفة رجله غير مبال» وبسط أبو حنيفة رجله على راحته ولم يأبه للرجل.

المثقف بالثقافة القرآنية وحدها بشكل ما ، كما يوحى إلى المثقفين بالثقافة الشعرية وحدها بشكل آخر، وإلى المثقفين بالثقافة التاريخية الإسلامية بشكل ثالث ، وإلى المثقفين بالثقافة الأجنبية بشكل رابع وهكذا .

وعندنا أن إبراهيم المويلحى كان من أولئك الكتاب القليلين الذين أعتمدوا كثيراً على موهبتهم فى هذ الناحية ، وقد أثبت لنا هذا الكاتب أن الثقافة الشرقية الخالصة كافية لأن تخلق الأديب العصرى الممتاز ، والصحفى المقتدر النادر المثال .

لكن لا أحب أن يفهم من ذلك أن المويلحى تخلى فى كتابته الصحفية عن بعض الطرق الأدبية التى ورثها أدباء العربية عمن سبقهم من أصحاب الأقلام ، لا بل الواقع أن براعة المويلحى إنما ظهرت فى قدرته على تطويع الطريقة الكتابية القديمة « classique » تطويعاً يكفى للقيام بمهمة الصحافة .

ومهما يكن من شىء فإن إبراهيم المويلحى هو الممثل الأخير لهذه الطريقة القديمة فى أدبنا المصرى فى القرن التاسع عشر . وسنرى أن هذه الطريقة القديمة بدأت تختفى قليلا لتظهر مكانها طريقة أخرى أكثر ملاءمة للصحافة ؛ وهى الطريقة التى سلكها صحفى ممتاز فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ ونعنى السيد على يوسف . وسيأتى الحديث عن هذا الأخير فى جزء خاص به .

* * *

(وبعد) فلست أدرى كيف يكون أمر هذا الكاتب العظيم لو أنه تثقف بثقافة أجنبية عميقة ؟ إننى أستطيع أن أقول إن المويلحى لو أصاب قدراً عظيما وعميقاً من هذه الثقافة الأوربية من جهة ، ومن الفلسفة القديمة أو الحديثة من جهة ثانية لظهر أثر ذلك واضحاً فى كل ما كتب من فصول قيمة فى الأدب ، ومقالات جيدة فى الصحف .

أجل — لست أنكر على المويلحى أنه كان يعرف الفرنسية والتركية . وربما كانت له معرفة كذلك بالإنجليزية . ولكن الذى أستطيع أن أجزم به

أن معرفته لجميع هذه اللغات كانت سطحية فى جملتها ، أو على الأقل كانت معرفة لا تعين صاحبها على تعمق و أضح فى هذه الثقافات الأجنبية تعمقاً يترك ظلا واضحاً فى الأدب .

لقد رأيت هذا الكاتب يرد أحياناً — فى جريدته مصباح الشرق — على بعض كتاب صحيفة الفيجارو الفرنسية . ولكن هذا الرد كان يتخذ لنفسه فى الجريدة صفة العموم لا الخصوص ، وكنت تلمح فيه صفة العارف بفحوى المقال لا الدارس لتفصيلاته ودقائقه .

من أجل ذلك نقرأ مقالات المويلحى فنفتقد فيها عنصر التحليل النفسى للأحداث والأشخاص على السواء ولنضرب ذلك مثلا واحداً : « مقالات ما هنالك » فقد كان فى استطاعة المويلحى أن يتخذ منها وسيلة لشرح نفسية السلطان ، أو لشرح العقد النفسية الكثيرة التى تكونت عند هذا السلطان أو العقد النفسية التى يصدر عنها الكثيرون من الرجال الذين كانوا على صلة دائمة به .

ولكن أنى للمويلحى أن يفعل شيئا من ذلك ، ولا علم له بالفلسفة أو علم النفس ، أو هذه الثقافات الحديثة التى تعين الكتاب والأدباء وأصحاب القصص الرائعة ومن إليهم ؟

الحق أن كتابة المويلحى لاحظ لها من العمق وإن كانت موفورة الحظ من الجمال أو الحسن . ولو قد تنوعت ثقافة الرجل ، وازدادت مادته من العلم الأجنبى كما ازدادت أسفاره إلى البلاد الأجنبية لربحنا به كاتبا لايشق له غبار ، ومصوراً لا تعجز ريشته عن تصوير النفس الإنسانية فى أعمق أغوارها ، بل فى أعقد حالاتها ، وفى الرجل استعداد كبير لبلوغ هذه المكانة الرفيعة كما رأينا .

ومع هذا وذاك فربما كنا نتجنى على الرجل بعض الشىء فى هذا المأخذ الذى نأخذه به ؛ لأنه لاينبغى للناقد أن يقيس الكتاب والشعراء بمقياس العصر الذى يعيش فيه ، وإنما بمقياس العصور التى عاشوا هم فيها . وعلم النفس

كغيره من العلوم الحديثة — وليد القرن العشرين . والفلسفة الشرقية العميقة لم تصل كاملة أو كالكاملة إلى عصر المويلحى . ومن ثم كان له العذر كل العذر فيما رميناه به من العجز عن تحليل الحوادث والأشخاص على النحو الذى لا يقوى عليه غير أديب حذق هذه العلوم الحديثة . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

* * *

رحم الله السيد رشيد رضا ، فقد جمع لنا كل مقالات الأستاذ الإمام محمد عبده من بطون الصحف ، ووفر علينا وعلى الباحثين جهداً كبيراً فى البحث عن هذه المقالات . واستطعنا بفضل ذلك أن نتتبع الإمام فى مراحله الأدبية المختلفة ، وأن نكون لأنفسنا صورة من أسلوبه الكتابى ؛ كيف نشأ ، وكيف نمى وارتقى ، وما مراحل هذا النمو والارتقاء ؟

أما المويلحى فلم يرزق بمن يجمع له هذه الفصول التى كتبها فى شتى الصحف ، ولا رزق حتى بمن يجمع له هذه الصحف . ومن ثم لم نلتق بهذا الصحفى الكبير إلا فى آخر مرحلة من مراحله . وفيها — أى فى تلك المرحلة — كان المويلحى قد تم نضجه من ناحية الأسلوب . فلم نفعل أكثر من أن نصف هذه المرحلة الأخيرة التى تمثلها جريدة (مصباح الشرق) من جهة ، ومقالات (ما هنالك) من جهة ثانية .

أما المراحل السابقة لهذه المرحلة فلم يرق إليها علمنا بعدُ كما بينت . ولعل من الباحثين بعدنا من يظفر بالصحف الكثيرة التى نشرها المويلحى فى مصر وأوربا ، بل لعل من الباحثين من يعثر على جهود المويلحى الأدبية قبل عهده بتلك الصحف . وإذ ذاك يستطيع هؤلاء الباحثون أن يصفوا لنا التطور الأدبى لهذا الكاتب البليغ ، من حيث عجزنا نحن عن أن نكوّن لأنفسنا رأياً فى هذه المسألة .

النمـــــــــاذج

النموذج الأول :

وعنوانه هكذا :

رأينا من الإصلاح فى مصر نوعه　　وسوف نرى سودانها مثل ما نرى

فما هبطت حمر الثيـــاب بلدة　　وكان لذر الأرض قوت من الثرى[1]

نعم هذا السودان الذى تنقل و تقلب بين أيدى ملوك المصريين جيلا بجيلا ، من فراعنتهم ، وعجمهم ، وعربهم مازال منذ فرغت منه يد الطبيعة على حالة واحدة إلى اليوم . فأقام كالسبخة لا يجف ماؤها ، ولا يرجى نباتها . وقد تغيرت البلاد ومن عليها على مر العصور وكر الدهور ، وهو باق على عهده لا يتغير . وحتى تغيرت تلك الجزيرة جزيرة القوم بعد أن كانت تقتسم معه سهمه من جفوة الطبيعة وقسوة الإقليم : هــذا يذيب أواره دماغ الضب وتتوارى فيه الحرباء عن قرص الغزالة ، فترغب عن عاداتها ، وترتد عن عباءتها . وتلك لقرها وشدة بردها يصطلى فيه القوس ربها ، وينتصر فيهـا المجوسى لعبادة النار ، فينبعث متغنياً بقول بشار :

الأرض مظلمة والنـار مشرقة　　والنار معبودة مذ كانت النـار

فانتقلت بنعمة الجد والاجتهاد وفضل السعى ، والإقدام درة البحر وغرة العصر ، واستعان أهلها عليها بكثرة الدأب وشدة الطلب وكد القريحة ، وكدح الفكر ، فخرجوا من ظلمة الانعزال والانكماش إلى الانتشار والانبعاث ، ومن ضعف الأيد وقلة الحول إلى بسطة الحكم وعرض الجاه ومن ضيق الرزق وشدة الحرمان وضعف الجناح إلى سعة الغنى وغبطة الحال وصعود الجد وخفض العيش .

وما زالوا منذ فرغوا من استصلاح بلادهم ، واستثمار أرضهم يرتادون بلاد العالم يصلحونها لأنفسهم ويفلحونها لمنفعتهم ، حتى انتهى بهم الدور اليوم فى مجاهل أفريقيا إلى هذه البقعة التى طالما ذاقوا معها مرارة البأساء

---

(١) انظر العدد ٥٦ من جريدة مصباح الشرق .

وغضاضة الضراء ، فبدأوا بنصب مصائد الإصلاح وحبائل التمدن وفخاخ الترقى الإنسانى . وكأننا بالسودان إذا انبسط فيه بساط هذه المدنية الغربية ، فما شئت من طرق حديدية وأسلاك برقية وتخطيط للرى وتشييد للمصانع وتأسيس للمعامل وإنشاء للمدارس وتكوين للشركات ، وقد خلعت عنه تلك الأيادى البيضاء لباس السواد ، ونزعت عنه ثوب الحداد ، فأنبت فيه الصخر ، ولفظ رغامه التبر ، وانسابت جداول الماء على وجه الدهماء ، وغدت العظاة فى غرص القطاة فى قفرها كالسمكة فى نهرها لا تنشد مواقع السماء ، وأورقت عمد الأطناب وأعشبت شعب الأقتاب ، وارتقى الظليم بعد الجلاميد ، وأنبات العناقيد ، وجرى سليل البخار جرى الأيام فى الأعمار والآجال فى الآمال . فألقت الآبال عصا الترحال ، والتفت ظمأ العشر فى هجير الفقر ، ودجن فيه الأخدرى ، وأنس البقر الوحشى ، فذلك للركوب . وتلك للسواقى والغروب ، واكتنست الغزلات حدائق القصور ، وهجرت تلك الربى وتلك الصخور ، وأصبح الفيل مركباً للزينة فى الخرطوم يخطر محطم الناب موسوم الخرطوم . وغدا العبد القن حبراً فى كل علم وفن ، وترقى ذو الجلدة السوداء إلى البحث فى غوامض الكيمياء والكهرباء . وسما الزنجى من مبارك الأنعام إلى مراصد الأجرام وانقلبت يده من خريطة الزاد إلى ريطة البلاد واعتاض من زئير الليوث فى الغابات بحفيف الألحان فى حافظة الأصوات ومن رؤية الوحوش فى المسارح بمشاهدة الصور المتحركة فى المراسح ، ومن الدخن والأعشاب بالفالوذج والكباب ، وطبق ريح الإصلاح آفاق السودان ، وسخر كل ما فيه للمصلح ؛ يقتطف ثمرته ويلتقف منفعته فيحمل ما يحمله إلى خزائن الأرض فى بلاده ويجلس فوقها منشداً :

وأرض بت أقرى الوحش زادى بها ليثوب لى منهن زاد
فأطعمها لأجعلها طعامى ورب قطيعة جلب الوداد

ومايدريك بعد ذلك أن يكون هذا الانقلاب من داعيات الخراب ،

وأن يكون الخروج من باب الشقاء دخولا فى باب المحنة والبلاء ، والانسلاخ من المعيشة الفطرية إلى المعيشة المدنية اندماجاً فى ثنايا الأسواء والأرزاء .

فإن صدق الطير وقضى الأمر فلا أحب إلا أن يأتى يوم يتمنى فيه العبد عيش الأب والجد، ونشتهى لو تنقلب به الأيام إلى مراعى الأنعام ، ويؤثر ظاليم أكل المرد والهبير على معسول تلك العناقيد ؛ وتود تلك الدواجن من الماشية لو عادت طعاما للأسود الضاربة .

فإن فطن السودانيون — ولما يقع القنيص فى الشرك — إلى مجاراة القوم ومباراتهم فى جدهم ونشاطهم ، وحسن تقليدهم فضائل المدنية ، مع التحرص مما يدخلونه عليهم من فضولها ، ثم الانتفاع بعلومهم والتغلب عليهم بفضائل تلك العلوم ، وإن لم يجلس فى صدورهم داء التـــدابر والتقاطع والتشاحن والتضاغن والتحاسد وحب الإثرة ، ولم يحتدم فيهم ضرم الفتن ولهيب الشغب « ولشد ما لقينا من هذه الأدواء » أفلتوا من تلك المصائد ، وأوشكوا أن يعتدوا إلى الشرق رونقه الأسنى ، ويمحوا من صفاته كلمة التوحش التى ليس للمؤلف الغربى محيد عنها عند وصف الأمم الشرقية .

وإن كانت الأخرى ونام السودانيون نومة المصريين فى ظلال الاحتلال ؛ يتفيأونها وأغفلوا الحزم ، وأخطأوا منافع الرأى ، وضلوا موارد التدبير ، واغتروا من المدنية بالظاهر المموه دون النظر إلى الباطن المشوه ، وأجالوا النظر فى أمورهم على الغد ، وتعلقوا بحبال المحال فى التسويف بالاستقبال ، فما أشبه الحال بالحال ، وما أعجل أن تقوم بينهم نوادب الجرائد تستصرخ وتستنجد وتستغيث وتستعدى ، ولا سامع للشكوى . ولا كاشف للبلوى ، وقد حلم الأديم وبلى الرديم . هذا إذا لم ينسلخ من أرضه الجلد الأسود كما انقرض من أمريكا الجلد الأحمر . هنالك يبكى الهندى للمصرى ، ويبكى المصرى للزنجى ، والقوم رابضون فى أرضهم ربوض الآساد فى آجامها محلقين فوق رءوسهم تحليق الأجادل والنسور فى سمائها .

وأعجب العجب أن الانكليزى يسقط من منطقة الجليد إلى تلك المنطقة المحترقة ، ويخرج مما كان فيه من رفاهية المدنية ورفاهية العيش ، ويهبط من أفق النعيم إلى درك الجحيم ، تلفحه الرمضاء ، وتلوحه الشمس ، ويرنحه التعب ، وينهكه الأين والكلال لينتفع بما قضى به لنفسه من حق الاشتراك فى السودان . وترى شريكه المصرى منزوياً فى بلاده فاقداً للقوت ، محروماً من الرزق ، قد أضناه العسر والبؤس ، وأذابه الفقر والعدم ، وبات يتململ من آلام المعيشة تململ السليم من لدغ الحية، فلا ينشط أبداً ولا يهتز للخروج من هذا الضيق، وسلوك ما يتسع أمامه من مسالك الأرزاق. وهذا السودان قد صار منه على رمية سهم ، وفواق ناقة ، وهو أقرب الناس إلى الانتفاع منه ، وأدناهم إلى أهله لوحدة الدين ، ووحدة اللغة ، وتناسب الطباع ، وتآلف العادات وتوافق الإقليم ، فينام عنه بملء جفونه ، ويفضل التسلى بالأنين والشكوى عما هو محيط به من الآلام والمحن .

فإذا كان مارسخ فى النفوس من الفزع والجزع عند ذكر السودان أيام كان مهبطاً للنفى ، وسجناً للتعذيب ، وما كان يهول المصرى من بعد الشقة ومشقة السفر ، ومخاوف البيداء قد بعد به عن قصد تلك البلاد، والانتفاع منها طول تلك الأزمنة الماضية ، فما عذره اليوم وقد كادت الحرب تشتعل والقتال يستعر بين دولتين من أكبر دول العالم، فيهدم ما شيده العلم، وأنشأه التمدن قرونا عديدة فى لحظة واحدة للتنافس بينهما على تلك البلدة التى كانت معدة عندنا لنفى المجرمين فى أقصى بلاد السودان. وبماذا يقنع المصرى نفسه فى هذا القعود وقد أصبح السفر إلى السودان أيسر طريقاً ، وأقرب مسافة وأخف مؤونة من السفر إلى مثل البرلس أو الواحات .

أفلا ينظر المصرى نظرة واحدة إلى اليونان الذى سبقه إلى الانتفاع والارتزاق فى أنحاء السودان ، فيراه يسير وراء الجيوش ، حتى إذا حطت رحالها، وانتشب القتال ، وعلا القتام، وتزلزلت الأقدام، واشتبكت الأسنة

واشتجرت الرماح ، وسالت الدماء حط اليونانى أيضاً رحله ، وعرض بضاعته لمن يشتريها فى هول هذا الموقف ، وحر ذلك الموقع ، ثم يعود بعد ذلك إلينا فيعيش بيننا بما جمعه من مال عيشة تغبطه عليها الخاصة ، وتحسده العامة . ومع هذا كله فالإنكليزى بحكم الطبيعة إنسان واليونانى إنسان والمصرى إنسان .

* * *

لعل هذا المثال الأول من الأمثلة التى نسوقها لكتابة المويلحى الكبير يعتبر نموذجاً كاملا لفن الكتابة عنده . فهو رجل تغلب فيه نزعة الآداب نزعة الصحافة ، ويرتفع بالمقال الصحفى إلى الدرجة التى لا يطمع المقال الأدبى نفسه فى أبعد منها .

فمن تقطيع موسيقى للعبارات ، إلى إيثار لجزالة الألفاظ ، بل حرص شديد على هذه الجزالة ، إلى إتيان بالموازنات اللفظية والمعنوية إلى سمو فى العبارة ، إلى مهارة عظيمة فى تبكيت المصريين لتكاسلهم عن مسابقة الإنجليز فى عمارة السودان ، وعن منافسة اليونان فى استجلاب الرزق . وهو تبكيت قوى انتهى منه الكاتب بهذه العبارة اللطيفة وهى قوله :

« ومع هذا كله فالإنكليزى بحكم الطبيعة إنسان ، واليونانى إنسان ، والمصرى إنسان » .

النموذج الثانى :

الترك والعرب[1]

لم يكن فضل الترك فى حفظ السلام ، وتشييد دعامته ، ونشر دعوته ، وتأييد صولته، والدفع عن حرمته وحومته ، بالشيء الحديث والأمر الجديد، ولا هو مبدوء فيه ببدء الدولة العثمانية ، ولا نشأ فى نفوسهم بنشأتها . فهم الحماة له ، والكفاة فيه ، والذادة عنه والأنصار لدين الله منذ العهد البعيد والدهر القديم . دخلوا فى خدمته، وقاموا بنصرته فى صدره وشباب عصره. أدخلهم المعتصم بالله ثامن الخلفاء العباسيين، فجعلهم جنده وأعوانه ووزراءه وقادته . وأخذ الخلفاء من بعده بمأخذه فيهم ، فكانوا لديهم العدة فى الشدة، والعمدة فى فتوحاتهم وغزواتهم؛ ينتصرون بهم ويدفعون عن الدين بجمعهم. وصفحات التاريخ بين أيدينا تشد لهم بأنهم ما زالوا ينفعون بخدمتهم نفع اليد للفم والدم للجسم منذ الأعصر الأولى إلى اليوم ، فلهم الفضل الظاهر فى الأول والآخر .

وكأنما الدهر لا يدور، والزمان لا يحول ، والأشياء فيه تتجدد ، والنظائر تتعدد ، والحوادث فيها يبديها وبعيدها ، والكتاب كلما نفذت نسخة تجدد طبعه . فقد عثرنا على رسالة كتبها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى الفتح ابن خاقان وزير المتوكل فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة يقول فى صدرها:

« فإن السلطان لا ينفك مُتَنَاوِلَ نَاقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معزول عن الحكم زار ، ومن متعالٍ متصفح، ومن معجب برأيه ذى خطل فى بيانه مولع بتهجين الصواب وبالاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان جميع المملكة ، يضع نفسه فى مواضع الرقباء

---

(1) نشر بالعدد السادس من مجلة « مصباح الشرق » بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٧٩٨ .

وفى مواضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يحذر ، وإن كان مجاز ولا يقف فيما يكون للشك محتملا ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ومستديره من لم يعرف مستقبله » .

إلى آخر ما تراه مسطوراً من هذه الرسالة فى الصفحة الثالثة من هذا العدد. فتعجب معنا ويحق لك العجب كيف أن ما كان يكتب ويقال فى القرن الثانى أصبح ينطبق على حال القرن الرابع عشر فى اعتراض المعترضين وانتقاد المنتقدين ، وفى الرد عليهم، وفى بيان الرابطة التى تربط العربى بالتركى والتركى بالعربى ، حتى كأن الجاحظ وهو يملى أقواله فى المسجد يكتب معنا اليوم فى الجريدة بعد مرور القرون وكرور العصور .

فما الرأى الأحزم لجماعة المعترضين والمنتقدين على ما لا يوجب الاعتراض والانتقاد فى أعمال الدولة إلا أن يكفوا ويرتدوا عن أمر قد سجل بذمه وعدم جدواه من عهد القرون السالفة ، وأن يتعاونوا على ماهو الأنفع والأصلح للأمة الإسلامية والدولة العثمانية،وذلك أن يتركوا الأمر لصاحبه ومن يضع الهناء مواضع الجرب فهو بالنافع أدرى وبالصالح أخبر . وقد قال على بن أبى طالب لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما وقد أشار عليه فى شىء لم يوافق رأيه « لك أن تشير على بالرأى ، فإذا عصيتك فأطعنى » . وقالوا الإمام أفضل من الرعية رأياً وتدبيراً . فالواجب على من يشير عليه بأمر ولا يقبله أن يطيع ويسلم ويعلم أن الإمام قد عرف من المصلحة مالم يعرف. وقال أبو إسحق الصابى فى بعض فصوله : ولولا فضل الرعاة على الرعايا فى بعد مطرح النظرة،واستشفاف عيب العاقبة لتساوت الأقدام ، وتقاربت الأفهام ، واستغنى المأموم عن الإمام .

اللهم اجمع قلوبنا على الحق الأبلج والصراط الأقوم ، وقنا عواقب التفرق والتشتت والتحزب والتشعب، واسلك بنا طريق الهداية فى كل حال،

النموذج الثالث :

مصر وحدها

كيف يتداخل المحتلون[1]

ذكرنا فيما مضى للقراء الكرام فى كلامنا عن الشرق وحده أن الشرقى واسع الخيال ، حديد الذهن ، مشتعل الذكاء ، لطبيعة الأقاليم الشرقية ، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة ، ويعجل بمصادر الأمر قبل بوادره. والمصرى من بين جمهور الشرقيين أوسعهم خيالا ، وأحدهم ذهناً ، وأوقدهم ذكاء ، وهو أكثرهم تشعباً فى الفكر ، وأطوعهم انقياداً للوهم ، وأسهاهم عن المقدمات ، وأسبقهم إلى النتائج ، وأسرعهم فى الحكم . فلو تكلمت مع مصرى مثلا على عمل يعمله لربح يربحه لاخترق بفكره الثاقب جميع مقدمات العمل ، واحدة إثر أخرى ، ولنفذ فكره منها كما تنفذ الكهرباء إلى الأجسام، لشغفه بالوصول إلى النتيجة ، فيأخذ فى تعداد وجوه الإنفاق من ذلك الربح الموهوم ، قبل الشروع فى العمل ، ويفوته حينئذ التأمل فيما عسى أن تحتوى عليه المقدمات من الأغراض التى تعكس عليه النتيجة بتمامها ، كالناسك الذى كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر فى كل يوم رزق من السمن والعسل ، وكان يأخذ منه حاجته ، ويرفع الباقى فى جرة ، فيعلقها فى وتد من ناحية البيت حتى امتلأت . فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره ، والعكاز فى يده ، والجرة معلقة على رأسه ، تفكر فى غلاء السمن والعسل فقال : سأبيع ما فى هذه الجرة بدينار وأشترى به عشرة أعنز ، فيحبلن ويلدن فى كل خمسة أشهر بطناً ، ولا تلبث إلا قليلا حتى تصير غنما كثيرة . ثم حرر على هذا النحو بضع سنين ، فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز فقال : أنا أشترى مائة من البقر بكل أربعة أعنز ، ثوراً أو بقرة ، وأشترى أرضاً وبذراً ، وأستأجر

---

[1] مصباح الشرق — عدد ١٩ السنة الأولى بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٨٩٨ .

أكرة ، وأزرع على الثيران ، وأنتفع بألبان الإناث ونتاجها ، فلا يأتى على خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالا كثيراً ، فأبنى بيتاً فاخراً ، وأشترى إماء وعبيداً ، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن وأدخل بها فتحمل ، ثم تأتى بغلام سرى نجيب ، فأختار له أحسن الأسماء . فاذا ترعرع أدبته وأحسنت تأديبه ، وأشدد عليه فى ذلك ، فإن يقبل منى وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها ، فسال ما كان فيها على وجهه .

فقد رأيت أن الناسك مر على ما ترى من المقدمات فلم يقف عند واحدة منها ، بل جعل همه كله فى الانصراف إلى النتائج . وهذا معنى قلة التبصر ثم إن المصرى لتوزع فكره ، وتشعبه وتوجهه بكليته إلى النتيجة لا يتمكن من الوقوف هنيهة على علاقات الأعمال ببعضها[1] ، فتبقى أعماله منفصلة غير مرتبطة ، ويتعذر عليه ترتيبها على نسق مخصوص ، وتوجيهها إلى غرض مقصود . وهذا معنى قلة التروى .

والإنكليزى بما لم تهبه الطبيعة من قوة الذكاء واتساع الخيال تراه بطىء التصور بطىء القياس قادراً بذلك على التأمل ، والتثبت ، والتروى ، والإمعان فان عمد إلى أمر انصرف بجميعه أولا إلى النظر فى المقدمات ، وأخذ يقلبها بطناً لظهر ، فلا ينثنى حتى يقتلها علماً ، ثم ينبرى للقياس فلا يخطىء إلا بمعاكسة الحدثان ، وصروف الزمان التى لم تكن فى قدرته أن يحيط بها . وله من تلك الأناة وذلك الإمعان ما يسهل عليه الوقوف على علاقات الأعمال بعضها ببعض على قدر الطاقة البشرية . ولما كان النجاح فى الأعمال يتوقف على العلم بارتباطها ببعضها اجتهد الإنكليزى فى ممارسة هذا الباب حتى صار عنده فى منزلة الدرس يتلقاه ويحفظه . ومن أمثلة ذلك تلك القاعدة التى تجرى عليها وزارة الخارجية الإنكليزية ، فان كل سفير لها فى الخارج يرسل

---

(١) هذا خطأ فى استعمال بعض ، والصواب أن يقول : علاقات الأعمال بعضها ببعض . وهو خطأ شائع فى كتاب القرن الماضى بوجه عام .

إليها فى ختام كل شهر تقريراً يحتوى على جميع مايراه فى الدولة المقيم بها ؛ فتجمع الوزارة هذه التقارير ، وتبعث بنسخها إلى جميع سفرائها : فسفيرها فى الصين يعلم ما يعلمه سفيرها فى مراكش ، وسفيرها فى العجم يعلم ما يعلمه سفيرها فى أمريكا ، والكل يعلمون ما عند الكل ، فلا ترد على سفير منهم حادثة إلا وهو مطلع على متعلقاتها من جميع الجوانب والأطراف . وهذا سر تغلب الإنكليز على الممالك الشرقية بالرأى لا بالقوة .

فإذا اجتمع مصرى مع إنكليزى على عمل خاب المصرى لاضطرابه وعجلته ، ونجح الإنكليزى لسكونه ولتؤدته . ولايزال هذا نصيبهما إن لم يتعود المصرى على التثبت والتأمل ليرى ما وضع له فى طريقه من الحبائل والإشراك . ولايكن المصرى مع الإنكليزى كالمسافرين يؤمان منزلا واحداً ، أحدهما راكب متعجل ، والآخر راجل متمهل . فإن وصلا فقد فات المتعجل ما اطلع عليه المتمهل من معالم السفر ومواقف النظر . وربما وصل الراجل وضل الراكب ، فانقطع به طريقه . وقد قال عليه الصلاة والسلام « إن المنبت(١) لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » .

وتاريخ الاحتلال يشهد لنا بكل ما تقدم . فانك ترى المصرى يتسرع عند كل حادثة إلى التمسك بكل سبب ، والتعلق بكل طرف ، فيضطرب فى الأمر ، ويختلط فى الرأى ، وهو ذاهل عما يضعه له الإنكليزى فى المقدمات من دقائق الأغراض التى تعكس عليه النتيجة .

وما زال المحتلون ينتفعون بصوابهم وخطئنا معا ، وينالون أغراضهم باغفالنا الحزم فى أمورنا ، وانتباههم وتبصرهم فى أمورهم ، حتى تمكنوا من التداخل فى إدارات الحكومة المصرية ، ولم يبق فى أيدينا منها إدارة سالمة من تداخلهم إلا إدارة الأوقاف التى دبروا لها مادبروا لوقوعها فى أيديهم أيضاً . وقد رأينا أن نبسط تاريخ تداخلهم فيها شاهدا على ماقدمنا ، ونموذجاً لما بينا . فنقول .

---

(١) المنبت الذى ينقطع عن أخوانه فى السفر ، يجهد دابته ليسبق اخوانه فيهلك هو ودابته .

كان ديوان الأوقاف نظارة معدودة من نظارات الحكومة إلى أواخر رئاسة نوبار (باشا) لمجلس النظار سنة ٨٤ . وفى ذلك الحين قرر مجلس النظار فصل تلك النظارة عن هيئة الحكومة ، ووضعها تحت نظر الحضرة الخديوية مباشرة . وكان ذلك على أثر التلغراف المشهور الذى أرسله اللورد جرانفيل ناظر خارجية انكلترا فى وقتها إلى المرحوم شريف (باشا) رئيس مجلس النظار قبل استعفائه : بأنه مادامت الجيوش الانكليزية مقيمة فى القطر المصرى فعلى رجال الحكومة المصرية أن يأتمروا بما تشير به الدولة الانكليزية عليهم من الآراء . فارتأى المغفور له توفيق (باشا) أن يفصل هذا الديوان عن هيئة الحكومة ليكون بمأمن من تداخل المحتلين ، وليسلم من الدخول تحت نص هذا التلغراف ، فأعانه دولة نوبار (باشا) على رأيه فى فصله ليشغله به عن الحكومة ، ويستبد هو مع المحتلين بجميع أعمالها . وبقى الحال على ذلك إلى حين نظارة دولة رياض (باشا) ، فسعى فى إرجاع ديوان الأوقاف إلى الحكومة كما كان عليه لما اعتاده من حب التفرد بمباشرة أعمال الحكومة كلها . فلم يسع المرحوم توفيق (باشا) إلا التسليم له فى أن يجعله تحت مراقبته الشخصية فقط مع تعيين أحمد حمدى (باشا) مديراً له ليأتمر بما يأمره به رياض (باشا) ، ويكون دولته واسطة بين الأوقاف والمعية . ورأى أن هذه المراقبة تقوم مقام إعادة الديوان إلى هيئة الحكومة ، مادام هو رئيساً باقياً فيها . ثم استشعر الحاجة إلى سن لائحة يسير عليها الديوان فى إدارته ، فكلف لجنة بإنشائها . ولما انتهت اللجنة منها سقطت نظارة رياض (باشا) ، وخلفتها وزارة سعادة مصطفى (باشا) فهمى ، فاسترجع المرحوم توفيق (باشا) وكالته التى أعطاها لدولة رياض (باشا) فى مباشرة أعمال الأوقاف ، فرجع الديوان كما كان مرتبطا بالمعية رأساً ، وحفظت اللائحة المذكورة فى محفوظات مجلس النظار لا يحركها إلا من ينفض الغبار عنها .

وفى عهد الجناب العالى عرضت مسألة من المسائل لها مساس بالأوقاف

ودارت المذاكرة فيها بين الحكومة ومجلس شورى القوانين ، فذكر المجلس الحكومة بتلك اللائحة التى وضعتها ، وما كادت تعرضها عليه حتى سقطت نظارة مصطفى (باشا) فهمى . واشتد النفور بين الحكومة والمحتلين . فكان المحتلون يعيرونها ويبكتونها فى كل آن بفساد الأمور فى المصالح التى لا دخل للمحتلين فيها ، ويضربون المثل بديوان الأوقاف ، واختلال أعماله . ويقيمونه حجة على أن كل ما كان فى أيدى المصريين خالياً عن مراقبتهم يكون على مثل ذلك الاختلال . وأكثروا من هذا التعيير ، والتنديد ، حتى اضطروا المعية أن تطلب بنفسها النظر فى لائحة الأوقاف ، ولما كانت تلك اللائحة موجودة فى مجلس النظار ، ولا بد لتنفيذها من رأى مجلس شورى القوانين ، ولا سبيل لعرضها عليه مباشرة من المعية ، بل لابد من توسط مجلس النظار أمرت المعية رئاسة المجلس بإخراج تلك اللائحة والنظر فى أمرها ، ورئيسه يومئذ نوبار (باشا) ، فانتهز هذه الفرصة ليأخذ من المعية ما كان أعطاها إياه لغرضه الذى أغنته الحوادث عنه ، ويرده إلى الحكومة ، فيدخل تحت مداخلة المحتلين . فلم تشعر المعية إلا وقد أضيف إلى تلك اللائحة فقرة تجعل النظارة المالية واجب المراقبة على حسابات الأوقاف ولما كان ديوان الأوقاف من المصالح ذوات الإيراد والنفقات ، وكله حساب فى حساب كانت المراقبة الحسابية عليه مراقبة على جميع أعماله ، وتداخلا فى كافة شؤونه وصار المحتلون بعد ذلك إذا ذكروا أمور الأوقاف ذكروها بغير اهتمام ولا عناية ، ليستروا ما وضعوه من الأغراض . وداموا على هذا الحال سنة كاملة اقتصروا فيها على إرسال موظف من المالية إلى الأوقاف فى بعض الأحيان ، حتى جعلوا رجال الأوقاف أنفسهم فى مقدمة المستخفين بتلك المراقبة ، والزاعمين بعدم وجودها ، واعتقدوا أن المحتلين لا يتجاوزون فى مراقبتهم إلى غير ذلك القدر ، وإنهم لا يتعدون حدود تلك المداخلة الخفيفة فى المستقبل كما يعملون فى بقية النظارات ، لأن الأوقاف يحميها منهم اسمها .

وبعد أن مضت سنة أخرى على هذه المراقبة الخفيفة حان لمندوبى المالية أن يصرحا بأنهما عاجزان عن مراقبة الحسابات وترتيبها إذا استمر الديوان على طريقته الأولى فى الحساب، ولم يوحده ، فعضدت المالية رأى مندوبيها ، فشعرت المعية والأوقاف بما أخفى لها ، وأحسا بثقل النتيجة التى كانا يستخفان بمقدماتها .

وهنا نقول أن القارىء لهذه السطور كأنما يقرأ قصيدة من شعر شاعر بليغ ، فبينما هو يلهو بنسيبها إذا انتقل به إلى مديحها لحسن التخلص، وحسن التخلص هنا هو الاستيلاء على الأوقاف بعد ذلك الاستخفاف .

ولما انكشف السر للمعية والأوقاف هالهم الأمر ، وكثرت المداولات مع العلماء فى مجالس متعددة لسد هذا الباب بعدم الإفتاء بتوحيد الحسابات، حتى قال سعادة إبراهيم (باشا) فؤاد ناظر الحقانية فى بعض تلك المجالس كلمته المشهورة عنه : إذا كانت الشريعة لا تبيح توحيد الحساب فالحكومة المصرية لا تقيد نفسها . وبعد جدال طويل تقررت الطريقه التى ترومها المالية بعد تحفيف فى ظاهرها .

ثم قال الكاتب بعد كلام طويل :

والقلم واللسان عاجزان عن وصف التدرج الذى يتداخل به المحتلون وابتدائهم بالصغير لينتهوا منه إلى الكبير . وما يماثله إلا تلك النادرة من نوادر أبى دلامة الشاعر : فقد مدح الخليفة السفاح، فقال له سلنى حاجتك . قال أبو دلامة حاجتى كلب أتصيد به . قال أعطوه إياه . قال ودابة أتصيد عليها . قال أعطوه . قال : وغلام يصيد الكلب ويقوده . قال : أعطوه غلاما . قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : أعطوه جارية . قال يا أمير المؤمنين : هؤلاء عبيدك فلابد لهم من دار يسكنونها . قال :

أعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال قد أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة . قال وماالغامرة : قال مالا نبات فيها . فقال : قد أقطعتك أنا ياأمير المؤمنين خمسمائةألف جريب غامرة من فيافى بنى أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال فأذن لى أن أقبل يدك . قال أما هذه فدعها . قال : والله مامنعت عيالى شيئاً أقل ضرراً عليهم منها .

فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفهفيها ابتدأ بكلب فسهل القصة به ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة ، حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل إليه.

ولو أن أبا دلامة مازال مسترسلا فى هذا النحو لانتهى بالوزارة يطلبها والأمارة يخطبها !

النموذج الرابع :

العزة فى القوة [1]

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى	المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به	فانما نحن للأسياف كالخدم

استنهاضك الرجل وهو فى أرضه ومزرعته بين زوجه ، وولده، وأنسبائه وأقربائه ، وخلانه وجيرانه ، ومعالم دياره ، وأعلام دينه ، وحملك له على التدجج بالسلاح ، والتحصن بالدروع ، ليدفع عن حماه العدو المفاجىء ، ويذود عن حرمه المغير الطارىء ، فينهض فيرميه بسهم أو يطعنه برمح ، فيلقيه إلى الأرض صريعاً لليدين وللفم ، فيسلم له أهله وماله ـ ذلك حقيقة معقولة وأمر حاصل يعمل به .

وقعودك بالرجل عن الأخذ بأسباب الدفاع ، واختيارك له فى حفظ حوزته ، والعدو محيط به من كل مكان أن يضع ابنه فى المكتب . ثم فى المدرسة ، ثم فى الكلية ، فيتلق هناك ما نشتت من علوم التمدين والتهذيب، وما تفرق من وجوه العلوم والمعارف ، وما اختلف من أبواب الصناعات والحرف ، ثم ينتقل إلى المطالب العالية من البحث فى الطبيعيات والرياضيات ، فيخترع الآلات ، ويبتدع الأدوات ، ثم يرجع من البحث فى ما وراء الطبيعة وقد تساوت عنده الأديان ، وأصبحت لديه الديانات كلها إحناً ، والمذاهب كلها فتناً ، وخلص من تلك الغلطة الموروثة ، فلانت عريكته وانبسطت نفسه للناس على اختلاف مذاهبهم وبقائهم عليها ، فرآهم كلهم له إخواناً ، واعتبرهم له أعواناً . فإذا وصل إلى هذه الدرجة المطلوبة ، وأمهله العدو تلك السنين الطوال ، قام يدفع العدو عن حوزة أهله وبيضة قومه ـ ذلك هو الطيران على أجنحة الخيال فى جو المحال .

---

(1) مصباح الشرق ـ عدد ١٨ من السنة الأولى بتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٩٩

وقد بحث الباحثون فى اختيار الوجهة التى تتخذها الدولة العلية لدفع ما يستدير بها من الملمات والخطوب ، ويحفظ مركزها فى الوجود مما يحدق بها من المكائد والمكاره ، فذهبوا مذاهب شتى ، وانصرفوا إلى أغراض مختلفة . ومنهم صاحب تلك الرسالة التى طلعت من أفق المشرق على «المصباح» فأوضح فيها أن الوجهة القويمة للدولة العلية فى حفظ مركزها من مخالب الأعداء المحيطة بها هى التحصن بالقوة ووسائل المنعة، وأن ذلك هو الدواء النافع الذى يقتضيه حالها فى وجوب الإسراع فى التوقى لعدم احتمال المدة وجها من الوجوه الأدوية الأخرى . فوقعت أقواله أحسن الوقع من نفوس الذين يدركون تلك الحقيقة ، ويحسون بموضع ذلك الصواب ، واستيقنتها قلوبهم ، وحلت محل الاستكراه من غيرهم، واستنكرتها قلوبهم، فاعترضوا عليها بأن الدولة لو عملت بقول أولئك المنادين لها بالتحصن بأطراف الرماح ، والتوقى بالدروع لتصد عنها المهاجم ، وترد المنازل لاجتمعت الدول الأخرى عليها ومزقتها تمزيقاً ، وتقاسمت أملاكها فى أسبوع من الزمان ، ولأحدقت بها من كل جانب براً وبحراً ، ولأوردتها حتفها قبل أن تدرج من مهدها شبراً .

وهو وهم وخيال دفع إليه شدة التسرع فى فهم المقصود من كلام كاتب الرسالة . فإنه لم يطلب من الدولة العلية أن تحشد الجنود ، وتحشر الجموع ، وتدعو الدعوة العامة لغزو الغزوات وفتح الفتوح ، وأن تقف فى موقف القتال ، وتقول لكل الدول: نزال نزال . لأن كل إنسان يعلم أن مثل هذه الدعوة لو قامت بها أقوى دولة فى العالم لاتفقت الدول على التنكيل بها، ولقامت كلهن فى وجهها صوناً لوجودهن . وإنما دعا كاتب الرسالة الدولة العلية إلى الأخذ بأسباب القوة لدفع الطارىء ، وصد الطامع على ما تقضى به حاجتها ، وتهدى إليه مصلحتها . والتمس من الخليفة أمير المؤمنين أن ينهج هذا المنهج الذى هو ناهجه فى الحقيقة ، واجتنات الدولة من باكورة

ثمرته ما اجتنته . وقد رأيناها تزيد فى عدد العساكر ، وتجتلب الأسلحة وتعد المعدات الحربية، فتستحضر السلاح من النمسا وألمانيا ، وتصلح السفن الحربية على الطراز الجديد ، وتنشىء المدرعات فى معامل إيطاليا ، وترسل بضباطها للتعليم الحربى والبحرى إلى ألمانيا وانكلترا وأمريكا ، وتنشىء الطرق الحديدية فى البلاد التى تحتاج إلى قرب المواصلات لسهولة نقل المعدات الحربية عند الحاجة إليها . ولم نسمع بعد ذلك كله أن دولة من الدول غضبت من هذا الاستعداد . أو عارضت فيه، أو اتحدت مع غيرها من الدول على منع الدولة العلية من تحصين بلادها ، ولم يهتز للبرق سلك بالإشارة إلى شىء من هذا القبيل ، ولم تجتمع به حروف أوربية فى جريدة .

والاستعداد للقوة على ما تقدم لا يمنع الدولة العلية من مداومة المسير على نظام التمدن والتقدم فى العلوم الجديدة النافعة والعلوم المفيدة الحادثة ، بما هى آخذة فى أسبابه أيضاً . وكما أن كاتب الرسالة نبه المسلمين إلى العمل بكتابهم فى التذرع بالقوة ، كذلك يجب على كل مسلم أن ينبه المسلمين إلى ما بكتابهم وسنة نبيهم وسيرة أسلافهم من التأدب بأدب الدين والاجتهاد فى طلب العلم والتعليم واستخلاص اللب ونبذ القشور . ولما كان الدين الإسلامى دينا يتناول أمور الدنيا كما يتناول أمور الآخرة كانت الدعوة للقوة أو للمدنية من طريق الدين أقرب وأدنى ، وأوقع وأنفع . وعز الدولة ومنعتها ورسوخ مركزها ، وتقدمها فى العلوم والمعارف من هذا الطريق لا تقتصر منفعته على فئة من رعيتها دون فئة ولا ملة دون ملة ، فإن الدين الإسلامى دين يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ، ويحبب فى العمل، ويبغض فى الكسل ، ويرشد إلى حسن المعاملة وجميل المعاشرة ، ويرفع من قلوب المسلمين العداوة والبغضاء، ويحض على إكرام الجار، ويوجب حفظ الحقوق والمساواة فى القضاء بين المسلم وغير المسلم . ولن يفعل فى المسلمين نداء مناد مثل ما يفعل نداء من يناديهم من طريق دينهم للعمل بالفضيلة ، ولذلك

تقبل المسلمون هذه الرسالة قبولا حسناً ، وأجلوا قدرها فى صدورهم ، واطمأنت لها قلوبهم ، وارتاحت لها نفوسهم .

وقد غيرت الدهور وكرت العصور والفرق المختلفة مقيمون تحت حكم المسلمين فى عيشة راضية ، لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، فعاش الفريقان فى اتفاق ووفاق وسلام ووئام ، لم يقل منهم للآخر : إنى أكن لك الحقد ، وأحرق عليك الأرم ، وأبطن لك السوء ، وأتربص بك الدوائر ، وألتهب عليك عداوة ، وأتميز منك غيظاً . ولا يغرنك ما يجرى بيننا من ألفاظ المجاملة فإنما هى الظاهر المموه من تحتها الباطن المشوه . وإنى أختار لك شكلا للحكم، فإن لم ترض به فهلم فاخرج من ديارك التى فتحتها بحد السيف ، واستوطنها مئات من الأعوام ، وحكمت فيها قروناً طويلة من السنين ، ودونك البوادى والقفار فاتخذها لك سكناً وداراً .

فإن كانت تغيرت اليوم الأحوال وتبدلت الأمور، فالمسلمون لا يزالون متمسكين بآداب دينهم ؛ لا يختارون إلا مايختار لهم حكمه . فمنه قوتهم، وفيه مدنيتهم ، وبه هداهم « قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » .

هذا وأما ماتذهب إليه أفكار بعض كتبة المسلمين من اجتماع أئمة المسلمين فى دار الخلافة العلية لعقد مؤتمر ينظر فيما يجمع كلمة المسلمين ويلم شعثهم ، فهو رأى مقبول . إلا أن مثل هذا العمل فى الوقت الحاضر مما يشوش على السياسة العامة . والأمر فيها موكول إلى نظر أمير المؤمنين ؛ يسير فيها بحكمته ، وليس من وراء هذا المشروع كبير فائدة . ويكفى لهذا الآن الاجتهاد فى نشر الجرائد الإسلامية للبحث على جمع الكلمة وتأليف القلوب ، ومبادلة الأفكار التى تنفع الإسلام بين المسلمين فى أنحاء الأرض . ولمثل ذلك المؤتمر وقت يحين بعد . ولا عبرة بما يقال أن الدول تألبت على الدولة العلية بعد حرب الروسيا ، وأخرجت من يدها تونس ، ومصر ،

بسبب اجتماع المصرى والمراكشى والتونسى وغيرهم فى الآستانة . فإننا لم نسمع عن اجتماع سياسى على هذا الشكل فى تلك الأيام، ولم نسمع أن الدول تكلمت فى شأنه .

وليس المطلوب من جماعة المسلمين الذين تحت حكم الدل الأجنبية أن يتفقوا فيما بينهم للمظاهرة على من يحكمهم ، والوقوف فى وجهه والخروج عليه . وإنما المطلوب منهم أن يساعدوا الدولة العلية اليوم بأفكارهم ، وأموالهم لصيانة الإسلام . وقد شهدت الحرب اليونانية بأن المسلمين لا يتأخرون برهة عن بذل أموالهم فى إعانة الدولة العلية . واتفاقها فى سبيل الدفاع عن حمى الدين ، والذود عن ذمار المسلمين. وهم كلهم على تنائى ديارهم فى يدهم كتاب الله يقرأون فيه تلك التجارة الرابحة فى الآية الشريفة « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » الآية ، ويتلون فيه تلك الأرباح المضاعفة فى الآية الكريمة «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء » .

النموذج الخامس :

مصر وحدها [1]

العادات المصرية

لم يكن شيء في الوجود إلا وضعه الباري سبحانه وتعالى تحت حكم التغيير والانتقال ، وهو الذي يغير من حال إلى حال ، وينقل من وضع إلى وضع ، ولا يختص التغيير والانتقال بالماديات ، بل يتناول المعنويات أيضاً ، فمنها ما يتغير تغيراً يدركه الحس ، ومنها ما يظهر تغيره على مرور الأزمان وكرور الأعصار .

وليس التغير في الشيء الواحد يكون على نمط واحد من السرعة والبطء ، بل يكون التغير تارة سريعا ، ثم يتغير سيره فيصير بطيئا . ومما يدخل تحت التغيير عادات الأمم وأخلاقها ، والرسوخ والثبوت في وصفها نسبي. فهي في تغير وانتقال على الدوام ، وربما تعودت الأمة عادة ، ودامت عليها أزمانا ، ثم تحولت عنها إلى أخرى ، وبعد هذا التحول بزمن طويل أو قصير عادت إلى عاداتها الأولى مرة ثانية .

فمن ذلك عادة المصافحة ، وهي من السنة الشريفة النبوية . كانت شائعة بين المصريين ، ثم زالت أو كادت . وقد أدركنا الناس لا يصافح بعضهم بعضا إلا أرباب الطرق من أهل التصوف ، فإنهم بقوا على السنة . وأما التحية بين طبقات الناس فإنها كانت باللسان ، وإشارات اليد ، أو بتقبيل اليد ، أو بغير ذلك من لثم الأذيال ، وهو مما أوجبه على الناس كبرياء كبرائهم حتى بلغ ببعض آل البيت النبوي الذين لا ينبغي إلا أن يكونوا قدوة للناس في تعليم مكارم الأخلاق أنه كان إذا قبل يده أحد حضر الخادم في الحال بالماء فغسل ابن النبي يده أنفة واستقذاراً من لمس يد أخيه المسلم . !

---

(1) مصباح الشرق — عدد ١٨ من السنة الأولى بتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٩٨

ولما اختلط المصريون بالغربيين عادوا إلى السنة النبوية ، والعادة المصطفوية ، ولكن من طريق التقليد للأجنبي . وصار العظيم يصافح من دونه وأخذت التحية بالإشارات فى التلاشى . ولا شك أن هذا من محاسن الأخلاق التى تستوجب مدح صاحبها ، ولكن لو كان الرجوع إليها من باب الرجوع إلى الاقتداء بأخلاق النبى صلى الله عليه وسلم لكان المدح أعظم والثناء أوفر . ومن التناهى فى تكلف التقليد أن بعض من تراهم من المتكلفين إذا صافحك رفع كوعه حتى يكاد يساوى به رأسه ، وأمال جسمه ، وحنى ظهره ، وأخذ يدك ثم هزها هزاً متتابعاً . وانتفض كما انتفض العصفور بلله القطر . وذلك لأنهم أخذوا على أنفسهم أن يرصدوا حركات الأجنبى وسكناته فى كل ما يعمله ، فيأخذوا عنه ما قبح وما حسن بلا ترو ولا تبصر !

ومن ذلك عادة الاستئذان قبل الدخول ، وهى من آداب القرآن . وقد نهى الله عن دخول البيوت بغير إذن من أهلها فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » والزمخشرى يقول بعد تفسيرها : وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة ، فقد تركوا العمل به . وباب الاستئذان من ذلك . بينا أنت فى بيتك إذ رعف عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية ، وهو ممن سمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن أين الأذن الواعية ؟

وقد جرى المسلمون على هذه العادة زمناً ، ثم زالت من بينهم . وشاهدنا الناس يدخل بعضهم على بعض بلا استئذان . ثم جدد فيهم تلك السنة النبوية اختلاطهم بالأجانب ، فأخذوها عنهم ، وقلدوهم فيها ، وبلغت بهم سماجة التقليد إلى طلب الإذن بالنقر على الباب وإجابته بأمر الدخول باللفظ الأجنبى . وربما نطق به من لا يعرف من اللغة الأجنبية غيره ، ولو كان

الرجوع إلى هذه العادة رجوعاً إلى آداب الدين لكان أولى بأمة أدبها الله فى كتابه أحسن تأديب .

وقد كانت اللغة العربية انحطت فى جميع طبقات الناس بعد ارتقائها انحطاطاً تستك منه المسامع، وتنفر منه الطباع، وتبدلت أحرف منها بغيرها، فكنت ترى الشيخ الجليل والكهل النبيل قد تخنث فى حديثه ، فأبدل جميع ما فى كلامه من حرف القاف بالهمزة ، وأبدل الجيم العربية بجيم لا تعرفها العرب، وأبدل الضاد بالدال ، والظاء بالضاد ، والثاء بالسين والذال بالزاى، ثم يساعد لسانه بيده من العى، فيكثر من الإشارات والحركات والالتفاتات أيضاً حتى يمله سامعه، ويستثقله ناظره وهذا كان يتناول العلماء أيضاً ، فإن العالم كان لا ينطق بالقذف إلا فى نقل مافى الكتاب فى درسه ، فإذا خرج عن الدرس فكلامه لا يفترق عن كلام العامة فى شىء . ولا يسلم من هذه الركاكة والرخاوة منهم إلا من كان من أهل الصعيد . فإنه يبدل القاف جيما مصرية، فيخفف بها هذا الأذى بعض التخفيف. وربما أراد بعض المتعاملين أن يهجر هذه الهمزة هجر ابن عطاء حرف الراء ، فيقلب من جهله كل همزة عثر بها لسانه فى الكلام قافا . ولو سمعت الآن بعض من ذكرنا ، وهو يتكلم ذلك الكلام ، وينطق ذلك النطق ويشير تلك الإشارات ، ويطيل فى حديثه ذلك التطويل لبكيت على اللغة العربية الشريفة التى نزل بها القرآن، ولرأيتهم قد أهانوها وانتقموا منها لصعوبة تعلمها الناشئة عن تقصيرهم فى أساليب التعليم ، فضربوها بسياط ألسنتهم حتى خلطوا بعضها فى بعض ، وصار الأجنبى إذا سمعها ينفر منها سمعه لرخاوتها . كما وصفها الأجانب فى كتبهم . وسمع غربى مصريا من شبان هذا الزمان يتكلم باللغة العربية على قواعدها فأصغى إليه طرباً ، وأنصت لحديثه معجباً من حسن اللغة، وقال إن الغربيين ظلموا هذه اللغة فقال له الشاب إن المصريين هم الذين ظلموها بما فعلوا بها . ومن العجب أن بعض الذين يعرفون هذه اللغة حق معرفتها لا يتكلمون

إلا باللغة المستهجنة ، ويتركون لغة تكسو مقاصد المتكلم حسن القبول فى القلوب . وكنت ترى الكاتب الشهير لا يعرف للحروف رسماً ، ولا تعرف لغلطه حداً . وله أيضاً من عى القلم جمل يكررها بلا معنى ولا فائدة ، واستعارات باردة تقشعر منها الأبدان وتستنكرها الأذواق . كقول بعضهم لأمير فى الدعاء له (والله يبقى الأمير وأنجاله مسلسلين بقيود النعمة فى أوتاد الدوام). وربما كانت هذه الجملة وأمثالها هى التى شهرته بالبلاغة بين أقرانه . أما الآن فقد تغير الحال ، وأخذت اللغة العربية فى الرجوع إلى جمال رونقها ، والكتابة فى العودة إلى بهاء بهجتها . فترى الغلام التلميذ يتكلم بالألفاظ الفصحى ، ويكتب الكتابة مزدانة بالمعانى الجزلة ، منطبقة على قواعد الرسم ، خالية من الحشو . وترى كثيراً من رجال النيابة والمحامين يقفون فى موقف الخصام والدفاع ، فيمثلون لك ما كنت تسمعه عن سحبان وقس بن ساعدة ، وأمثالهما من فصاحة الألفاظ ، وجزالة المعانى ، وحسن التشبيه ، ولطف الأسلوب ، وبراعة الإلقاء ، مما يكون له وقع فى النفوس ، ومنزلة فى القلوب . وقد أخذ هـــذا يمتد فى جميع الطبقات . وينتشر بينها على قدر مداركها واستمدادها : فتغير أسلوب الكلام فى المجتمعات ، فأصبح أقرب إلى العربية الفصحى منه إلى العامية العجمى . ولو دام هذا الترقى فى اللغة لوضع هذا العصر فوق عصر الجاحظ وأبى تمام فى النثر والنظم . والفضل فى ذلك للمدارس والمطابع والجرائد . ولو خلت الجرائد من عبارات الشتم والسباب كما هو الواجب عليها لكان لها النصيب الأوفر من ذلك الفضل ؛ لأنها دروس يومية فى الإنشاء والسياسة تشترك جميع الأمة فى تلقيها ، وتتربى فى ملكاتها بالأخذ عنها . ولكننا نرى بعضها قد خرجت عن حد ما وضعت له وأصبح ما يكتب بها يخالف شرط الاشتراك فيها ، لأن المشترك فيها لم يعط ثمنها إلا لاستفادته من نقل الأخبار . وإبداء الأفكار . فإذا خالفت هذا ، وجاءت إلى المشترك فى حجرته بين أهله وأولاده حاملة من

أنواع السباب والشتائم ما يكرم نفسه عن المرور بقائله والناطق به ، فقد أضاعت وقته ، وسلبت ماله ، وأقرأته ما كان ينفر من سماعه ، وأدخلت فى حجرته ما يستعيذ له بالله من هجر القول وفحشه .

فان كانت الجرائد تفيد الناس من جهة فانها تضر بآدابهم من جهات . فيجب على الحكومة التى بيدها الحل والعقد فى شؤون الرعية فى أن تبحث لإيجاد طريقة لحفظ الآداب بمنع الجرائد عن وقوفها موقف السابّ ، والشاتم ، والقاذف . وأعراض الناس وديعة فى يد الحكومة فينبغى أن تحافظ عليها . ومن الغريب أن أرباب الجرائد يجعلون أنفسهم فى منزلة الرادع ، والوازع ، والواعظ ، والناصح ، ويشتمون لمنع الشتم ، ويسبون لمنع السب .

فان لم تفعل الحكومة ما يجب عليها فى هذا الباب لم يبق إلا أن يقوم فضلاء الأمة وأهل الشأن فيها لحفظ الآداب ، ودفع هذا الشر بتأليف جمعية تقف أمام الجرائد وقفة المراقب الوازع بسلطة معنوية .

* * *

(وبعد) فقد كنا نريد أن نسوق أمثلة من كتابة المويلحى فى الصحف أكثر من ذلك ؛ ولكننا نكتفى بهذا القدر الضئيل . ولعلك — أيها القارىء الكريم — حين تتأمل هذه النصوص تتفق معنا فيما ذهبنا إليه من هذه النتائج التى أهمها :

أولا : أن الأدب والصحافة خلقا فى كل لغة من لغات العالم نوعين من الأساليب . أولهما النوع الممتاز ، وهو خاص بالأدب الخالص . وثانيهما النوع غير الممتاز ؛ وهو الأسلوب القريب من العامية بعد تهذيبها والعناية بحركات إعرابها عناية كاملة . وقد كان المويلحى خير من يمثل النوع الأول فى القرن الماضى وأوائل القرن الذى نعيش فيه . ولم يكن قد حان الوقت بعد لظهور النوع الثانى الذى اقترن بظهور الصحافة اليومية المنظمة ، كصحافة السيد على

يوسف وأمثاله ، ومن ثم كان هذا الأخير — كما سنذكر ذلك فى الجزء التالى بمشيئة الله — أول زعيم حقيق للكتابة الصحفية بالمعنى المراد من هذه الكلمة عند إطلاقها .

ثانيا : إن المستشرقين نظروا إلى المويلحى الكبير على أنه من زعماء المحافظين ، ونظرنا نحن إليه على أنه من المجددين المعتدلين . والواقع أننا نلتقى مع المستشرقين فى نقطة واحدة ؛ هى أن تجديد المويلحى كان قائما على إحياء السنة . ولقد جاء النموذج الخامس والأخير شاهداً على ذلك، وموضحا طريقة المويلحى فى الإصلاح ؛ وهى طريقة سبقه إليها النديم ، ومن ثم نظرنا إلى المويلحى على أنه تلميذ لهذا الأخير ، والرجلان معاً من أصدق تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، كما سبق أن أوضحنا .

ثالثا : إن القومية الإسلامية كانت سائدة فى أذهان الكتاب والمفكرين على القومية المصرية ، وذلك إلى عهد المويلحى ومن إليه من كتاب تلك الحلبة ، فإذا اتجه أحدهم إلى التفكير فى أى ناحية من نواحى الإصلاح ؛ وخاصة الإصلاح السياسى فإنما يوجه كلامه إلى الدولة العلية ، ويحصر جهوده فى إصلاح عيوبها بوصف أنها زعيمة العالم الإسلامى الذى بقى متماسكا إلى ذلك الوقت ، وكان ينظر إلى السلطان العثمانى إذ ذاك على أنه يمثل الإسلام ، وحامى الشعوب التى انطوت تحت لوائه . وفى النموذج الذى عنوانه (العزة فى القوة) ما يدل دلالة صريحة على هذه الفكرة .

رابعاً : أن جميع الكتاب المصريين فى ذلك الحين — وفيهم المويلحى الكبير — كانوا يبغضون الاحتلال الانجليزى من صميم قلوبهم ، وكانوا ينظرون إليه على أنه أضاع استقلالهم ، وأفقدهم السودان وسلخه من أيديهم ثم لم تقف مساوىء الاحتلال فى نظرهم عند هذا الحد ، بل تجاوزته إلى الدين الاسلامى الذى تعرض لسخرية الأوربيين ، وإلى القوميتين الشرقية

والمصرية اللتين تعرضتا لأذى أولئك الساخرين المعتدين ، وإلى الحضارة الشرقية الإسلامية التى أحست بشىء من الحياء والاستخذاء من الحضارة الأوروبية الحديثة ، منذ أصبحت الغلبة لهذه الأخيرة وهنا انبرى كتابنا المصريون والشرقيون للدفاع عن حضارتهم ، كما دافعوا من قبل عن لغتهم ودياناتهم .. والحق أن اللغة العربية مدينة بالفضل لأولئك الكتاب الذين حاطوها بعنايتهم ورعايتهم حياطة الأم الرؤوم والأب الشفيق . ولولا ذلك لكنا — نحن المصريين — نتكلم الإنجليزية فى حياتنا اليومية ، بل فى حياتنا العلمية أو الأدبية . وفى ذلك ضياع لقوميتنا ، وفقدان لشخصيتنا ، وعدوان على تاريخنا القديم . وتراثنا المجيد ؟

تم بحمد الله الجزء الثالث من كتاب
أدب المقالة الصحفية فى مصر
ويليه الجزء الرابع بمشيئة الله تعالى
وفيه الكلام عن على يوسف صاحب المؤيد

محتويات الكتاب

صفحة